

التعريف بالأدب النونسي

رضوان ابراهيم

دار العربية للكتاب



Bibliotheca Alexandrina



0147576



507
1-2-2



الكتاب المكتبة الاسكندرانية

رقم الكتاب

رقم التسجيل

التعريف بالادب التونسي

رضوان إبراهيم



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Sehwa el-Kutub

الدار العربية للكتاب
 ليبيا - تونس

© جميع الحقوق محفوظة - الدار العربية للكتاب
ليبيا - تونس 1977/1397

الف سلسلة قصص للأطفال ،
ومجموعة قصص « جراح
شعب » ، وكتاب « أزمة
التعبير الادبي » ، وكتاب
« شعراء العرب المعاصرون » ،
و « تيسير مقدمة ابن خلدون » ،
وعشرات المقالات الصحفية
والاذاعية فى الادب والنقد
والمجتمع ، وراسل معظم
صحف واذاعات العالم العربى
والمهاجر ، وله تجارب فى
الشعر الوجدانى .

ترجم عن اللغة الروسية
عشرات الكتب والبحوث .
والمقالات الادبية والنقدية
والقصص والاشعار .
عمل باحدى هيئات وزارة
المالية والاقتصاد والتجارة
الخارجية .

توفى عام 1975 .



نشأ فى ريف مصر ،
واتم تعليمه بالقاهرة .

حصل على ليسانس فى
الادب ، ودبلوم فى التربية
وعلم النفس ، ودبلوم فى
الادب العربى المعاصر ، ودبلوم
فى اللغة الروسية .

اشتغل بتدريس الادب ،
وتنظيم المكتبات .



تقديم بقلم الأستاذ أبو القاسم محمد كرو

عرفت المرحوم الاستاذ رضوان ابراهيم أولا بواسطة المراسلة سنة 1953 باشارة من صديق الشابى المرحوم الدكتور أحمد زكى أبو شادى .

وفى صيف 1954 ، التقيت به لأول مرة فى القاهرة ، حيث كنا نحضر معا ندوة الشعر الاسبوعية التى ينظمها فى بيته الشاعر المرحوم محمد على الخوماني ، الذى كان قد ظفر باعجابى وتقديرى الخاص لقصيدة واحدة من شعره المنشورة فى مجلة الكتاب المصرية بعنوان « أنشودة الكون » ، والتى نظمها فى عيد جلاء القوات الاستعمارية الفرنسية عن سوريا ، وقد بشر فيها بجلاء مماثل لقواتهم عن تونس والجزائر والمغرب .

يقول فى طالعها :

يومك الضاحك فى نيسان أنسى
كل باك دمعته حتى فرنسا

ويقول :

نشطت جلق من أصفادكم
وستقفوها رباط وبلنسا

وسنلقى سفن أرسى
نقر بيروت لدى وهران مرسى
وسيصحو القادر اللاهى بنى
ويسرى اللهو بكم أعذب كاسا
أبها الباكى على اندلس
وعلى تونس هون وتأسس
وثب الضيفم من مكنه
وانتهى زهجرة ما كان همسا

وجدت فى رضوان ابراهيم كل دماء خلق وشهامة نفس ،
وعزىز همة ، وكرم المعاملة وصدق القول وعميق الوفاء للاخلاء
والاصدقاء . ومنذ سنة 1953 لم تنقطع بيننا المراسلة حتى آخر
لحظة من حياته .

ولعل صداقتى له هى الحافز الاول على اهتمامه النشط بالادب
التونسي الحديث ، ويكاد يكون الكاتب الوحيد فى الشرق الذى
عايش الادب التونسى ومارسه قراءة وعلاقات شخصية مع العديد
من أدبائه حتى أمكن له ان يكتب عنه البحوث والمقالات والاحاديث
المختلفة للصحف والمجلات وللإذاعات العربية ، ثم تخصص فى
الترجمة من الروسية الى العربية ، فكان اهتمامه منصرفا
بالدرجة الاولى الى ما يكتب عن تونس وأعلامها وأدبها فى الكتب
والمجلات الروسية .

وله فضل السبق والعناية بما كتب أو نشر فى روسيا من
دراسات وكتب عن الادب التونسى ورجالنه .

وقد سبق له أن ترجم كتبيا عن الادب التونسى عهد بنشره
الى الدار التونسية للنشر منذ عام 1971 ، وتعاقد معها على ذلك عام
1973 ، حيث كان لى شرف دعوته الى تونس للمشاركة فى أعمال
المؤتمر التاسع للأدباء العرب .

وكان لي أيضا شرف نشر أول دراسة ترجمها من الروسية عن ابن خلدون فتم طبعها بتونس عام 1974 تحت عنوان « نظريات ابن خلدون » ، وهي من تحرير الدكتورة سفيتلانا باتسييفا .

وقام رضوان ابراهيم بترجمة اضخم كتاب صدر في روسيا عن ابن خلدون لنفس المؤلفة ، هو « العمران البشرى في مقدمة ابن خلدون » ، وتتولى الآن الدار العربية للكتاب طبعه ليصدر قريبا في سلسلة مكتبة ابن خلدون .

بعد عودة رضوان من تونس الى القاهرة ربيع 1973 شرع يرسل لي مجموعة من المؤلفات والاحاديث التي يترجمها من الروسية ، أو يكتبها للمجلات والاذاعات العربية للتعريف بالادب التونسي ، وخاصة ما ينشره الادباء التونسيون من كتب في القصة والشعر والدراسات الادبية .

وقد تجمع عندي من هذه المقالات الموضوعية والمترجمة عدد كبير ، وكان الكاتب نفسه قد اختار لها عنوانا لينشرها تحته وهو « التعريف بالادب التونسي من خلال مطبوعاته » .

ونظرا لقيمة هذه المقالات ، لا سيما ما ترجمه من الروسية ، ونظرا لعلاقتها الوثيقة بحركة التأليف والتطور الادبي في تونس .

وتحية لكاتبها واعتزازا بنضاله الذي استغرق ربع قرن في خدمة الادب التونسي من المشرق العربي ... رأيت أن تجمع في كتاب - كما كان ينوى كاتبها - وأن تعطي نفس العنوان الذي اختاره لها ، وان تبوب الى ثلاثة أبواب رئيسية :

الاول - ما ترجمه عن الروسية حول الادب التونسي .

الثاني - ما كتبه عن مؤلفات الشبابي أو الكتب التي كتبت عنه .

الثالث - حول مؤلفات تونسية أخرى .

وأضفت الى ذلك كله مجموعة من التعليقات والهوامش حيث كان ذلك ضروريا . غير أني خصصت بحث « التجديد في الادب التونسي » الذي ترجمه عن الروسية بطائفة كبرى من التعليقات والملاحظات والتصويبات التي رأيت ان بدونها لا يستساغ نشر مثل هذا البحث المطول في كتاب مثل هذا .

فالبحت على أهميته وجهد صاحبه الكبير ، محشو باخطاء فادحة ، وأوهام وقع فيها الكاتب الروسي نتيجة تسليمه المفرط بما يراه في مصدريه أو بسبب القراءة العاجلة .

واعتقادي ان هذه الهوامش وتلك التعليقات هي بمثابة المساهمة الاخيرة في تبصير القارئ لهذا البحث بكل الحقائق الناصعة والصحيحة عن أطوار الادب التونسي ورجاله ومختلف المؤثرات والتيارات التي احتوى عليها .

ومهما يمكن من أمر .. فان هدفنا الاول والاخير من نشر هذا الكتاب وجمع شتاتيه هو خدمة الادب العربي في تونس والتنويه بشخصية أدبية عربية كرسست نصف عمرها في خدمة أدبنا والاشادة به والكتابة عنه .

وآثار هؤلاء الرجال الزهاء ، المناضلين حقاً من أجل شرف الكلمة ومجد الادب ، جديرة بالاحياء والنشر والاهتمام والتقدير .

ولا نملك أمام مصابنا بفقد المرحوم رضوان ابراهيم سوى الوقوف بخشوع اجلالا لذكراه وتمجيذا لنضاله، وترحمنا على روحه .

وان خير تحية تزجي له ، وخير عرفان يقدم اليه والى السيدة زوجته الفاضلة وأسرته الحزينة هو نشر كتبه وزيادة تعميمها بين القراء في كل مكان وزمان .

لم يكن رضوان ابراهيم حين توفي عام 1975 قد تجاوز الخمسين

من عمره الا قليلا . ومع ذلك ترك عددا كبيرا من الكتب المؤلفة
والترجمة ، ومئات المقالات والبحوث المتناثرة في مجلات وصحف
العالم .

واننا سنحاول نشر ما يتيسر لنا منها ، لا سيما ما لم يسبق
نشره حتى تصان من الاهمال والضياع .

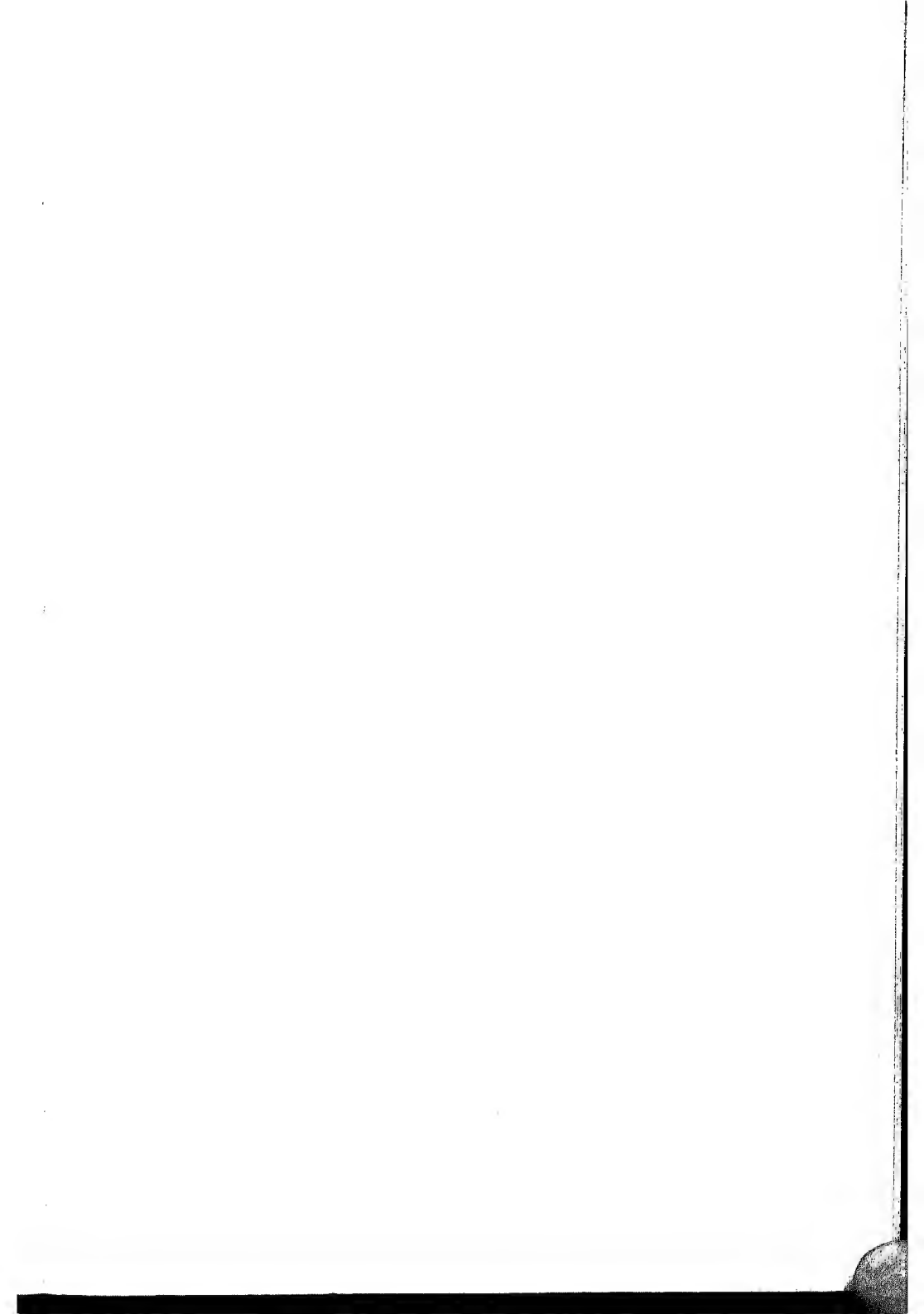
ونحن على يقين بان ما احتوى عليه هذا الكتاب ليس الا جزءا
قليلا مما كتبه عن الادب التونسي ، ولعلنا نستطيع استكمال الباقي
في طبعة قادمة .

كما نرجو ان نتمكن من نشر بقية آثاره المخطوطة الاخرى وان
نعيد طبع عدد من كتبه السابقة ، وفي طليعتها مختاراته من مقدمة
ابن خلدون ، ومجموعاته القصصية وما ترجمه عن القصة المصرية
وطه حسين وأمين الريحاني .

وعسى أن نرى قريبا كتابه المترجم عن الادب التونسي الذى
مات وهو يتحسر ويشكو من تأخر نشره ، وهو الحريص - طبعه
لتونس وأدبها - أن يراه مطبوعا في دار نشر تونسية .

ومقابلة الوفاء بالوفاء عملة نادرة في بلادنا وفي عالمنا الثالث .
ومع ذلك فإن أملنا في انتصار الحق واخير والعدل ، وفي سيطرة
النزاهة والانصاف والوفاء على النفوس مع تطور العقول وبقطة
الضمير القومى ، ما زال كبيرا ، وفي الظروف التى ساعدت على نشر
هذا الكتاب والخوافز الداعية اليه لشعاع من كل ذلك .

تونس فى 19/5/1977



مقدمة

كلمة ..

كلمة لا بد منها بين يدي التعريف الذي أرجو أن أقدم به
الادب التونسي المعاصر من خلال المطبوعات التي تصل إلينا بين
الحين والحين .

ان الظاهرة البارزة التي تتردد على ألسنة الأدباء التونسيين
وأقلامهم هي الشكوى من العزلة المضروبة بين الجناح الغربي والجناح
الشرقي من البلاد العربية . والعقبات الاقتصادية والسياسية
والاجتماعية التي تحول دون انتشار الكتاب التونسي في البلاد
الشرقية .

فالجناح الشرقي يمور ويضطرب بالأفكار والآراء والمذاهب
الادبية والفكرية ، بينما يتحرك الجناح الغربي ببطء وفي اطار
محدود لا يسمح له باختراق الجدار الاصم القائم بينه وبين الجناح
الشرقي .

ولقد كان الاستعمار - وما يزال - يبارك هذه العزلة بين اقطار
الامة العربية ، لانه لا يستطيع أن يحتوى هذه الاقطار في مناطق
نفوذه الا فرادى منعزلة متفرقة الاهواء ، اذ أن مجرد تجمع هذه
البلاد المتحدة اللغة ، والتاريخ والاهداف والآمال تعنى نهاية
الاستعمار .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فهو لا يريد أن تحل الثقافة العربية الاصيلية محل الثقافات الغربية التى يستطيع من خلالها دائما أن يفرض فلسفاته على الامة العربية ، ومن هذه الفلسفات يقفز الى السيطرة الاقتصادية والسياسية على البلاد العربية ، فيسهل عليه بقاؤها الى الابد فى مناطق نفوذه .

ومع أن تونس بالذات قد أتيح لها فرصة الانفتاح على البلاد الشرقية بوسيلة أو بأخرى ، منذ القدم ، وفى العصر الحديث عن طريق التبادل العلمى منذ هجرة ابن خلدون واستقراره بمصر ، وفى وفود الحج والتجارة والاتصالات التقليدية ، وفى انتقال أبنائها الى جامعة الازهر ، حتى الزيارة التى قام بها الشيخ محمد عبده لتونس ، وأخيرا عن طريق تبادل الصحف وتبادل الافلام التى تكتب فى هذه الصحف ، وتبادل المطبوعات ، وقيام دور النشر الجديدة فى تونس .

الا أن تونس ما زالت تحس بهذه العزلة احساسا عميقا ، وتعتب على شقيقاتها الشرقيات وعلى أدبائها انصرافهم عنها ، وتجاهلهم لانتاجها ، حتى بعد استقلالها السياسى والاقتصادى الذى اغتنصته من المستعمرين ، وبعد المساهمة الايجابية التى تقوم فى حل مشكلات الجناح الشرقى بوجه عام .

ومع هذا فنحن جميعا نحس بالحاجة الى تنشيط التبادل الثقافى والادبى والفنى والفكرى والصحفى الى الدرجة التى يحس معها القارئ العادى فى كلا الجناحين بما يجرى داخل الجناح الآخر ، ويلمسه ، ويتذوقه ، ويتفاعل معه ، ويشارك فيه .

وهنا لا بد أن يقوم الافراد وأن تقوم المؤسسات فى مختلف بلاد الجناحين ببذل أقصى الجهد فى هذا السبيل ، لتمد جسرا من التفاهم والتعارف الوثيق بين تونس بالذات وبين شرقنا العربى .

واذا كان للأفراد بجهودهم المحدودة أن يسهموا في هذا البناء ،
فأنتى من هنا أقدم ما تيسر لى الاطلاع عليه من الانتاج الذى تقدمه
مطابع تونس العربية .

نحن نحس فى الآونة الاخيرة بأن جهودا كثيرة ومخلصة تبذل
لتقوية الروابط الفكرية والثقافية بين تونس والبلاد العربية ، ممثلة
فى المطبوعات التى تفد علينا من تونس ، وإن كانت قليلة وبطريقة
فردية ، ولكنها تؤكد أن هناك نشاطا فكريا وليدا ، ورغبة مخلصة
فى التقارب بين الجبهتين .

ومن خلال ما يتوفر لدى من مطبوعات تونسية سوف أطلع
المستمع الكريم على مضمون الثقافة والفكر العربى المعاصر فى تونس
بقدر ما أستطيع ، وأرجو أن يشاركنى المستمع الرأى فى أن هذا
الجناح العربى - وفى مكان القلب منه تونس - جدير منا جميعا
بهذا الاهتمام ، وبما يتلوه من تفاعل مثمر للثقافة العربية والمثقفين
العرب جميعا .

وما لم نحتضن هذه النهضة الفكرية الوليدة فى تونس فإن
مصيرها سيكون الانطواء أو الانفتاح على الثقافات المعادية من جديد .

إن فى تونس - بعد الاستقلال والاستقرار - مظاهر ووسائل
لنهضة أصيلة بعيدة عن أن تكون ثورة طارئة ، وإنما هى حركة
فكرية أدبية ذات أهداف ، تتخذ لنفسها وسائل حقيقية ، وتسندها
أيدها وعقول وكفايات تبشر بالاستمرار ، وتدعو الى التفاؤل .

فى مجال الفن أصبح مهرجان قرطاج الدولى للسينما والمسرح
معترفا به عالميا كإحدى مؤتمرات فنى فى أى بلد من البلاد المتقدمة ، مما
ينبىء بأن وراءه نهضة فنية ناضجة مكتملة الدعائم .

كما أنها قد أخذت نصيبها الدورى فاحتضنت مؤتمر الادباء
التاسع ومهرجان الشعر شأن بقية الدول العربية فى المشرق .

وكانت أول دولة عربية في المغرب يستضيف مؤتمر الادباء .

وفي مجال الصحافة نسمع ونقرأ ان الدولة بدأت تحتضن المؤسسات الصحفية وتشجعها وتنميتها ، وتعطيها من ذات النفس والمال والحرية ما تستطيع به أن تقف في مصاف الصحافة العربية العريقة ، بل والصحافة العالمية المتقدمة .

وفي مجال الصحافة نسمع ونقرأ ان الدولة بدأت تحتضن أن تخلص الادب من التكتلات والطائفيات ليصبح أدبا عربيا خالصا جديرا بأن يقود الامة الى حياة أفضل .

ومن الوسائل والضمانات الباعثة على التفاؤل قيام عدة مؤسسات جادة للنشر والتوزيع :

والذي يدعو الى الاطمئنان تلك الخطط والمناهج التي تضعها هذه الدور لنشاطها من احياء للفكر العربي ، وبعث للتراث ، والتراجم لاعلام التونسيين القدامى والمحدثين ، والتعريف بالثقافة العربية عامة ، وتبادل الاقلام بين التونسيين والادباء المشاركة والمغاربة على السواء ...

وقد كان ذلك مما لفت الباحثين في الشرق والغرب ، وحمل المستشرقين على أن يعترفوا بالادب التونسي وأعلامه ودورهم في النهضة التونسية خاصة وفي النهضة العربية المعاصرة والانسانية بوجه عام .

وما أجبرنا نحن بهذا الالتفات الى اخوة يشاركوننا اللغة والدين والفكر والدم والآمال والآلام ، ونحن نرجو ان يوفقنا الله الى ان نتناول بالعرض والتعريف جوانب النهضة الادبية في تونس من خلال انتاج كتابها وشعرائها وباحثيها في حدود ما نستطيع الحصول عليه من مطبوعات ، وما يمنحنا الله من جهد وتوفيق لعرض ذلك بأمانة وصدق وإخلاص .

... وشخصية

قدمت لهذا الموضوع بكلمة أعتقد أنها تلقى الضوء في طريقنا الى التعريف بالادب التونسي ، وهناك خطوة أخرى لا بد منها هي التعريف بالجهود المناضلة التي لها اثرها في التقريب ما بين ادباء تونس والعالم العربي .

وهذه شخصية أعتقد أننا نقصر في ذات الموضوع اذا اقتحمناه دون ان نتعرف عليها .

فهناك جهود جماعية تتمثل في الجمعيات الادبية والفكرية التي ظهرت حديثا ، مثل رابطة القلم ، ونادى القصة .

ومنها جهود المجالات مثل مجلة الفكر ومجلة الندوة ، ومجلة اللغات ومجلة الثقافة ، ومشروعات اصدار ونشر مسلسلات الكتب الثقافية والفكرية مثل سلسلة كتاب البعث ، مكتبة الشابي . وسلسلة اعلام المغرب العربي .

ومثلها جهود دور النشر والتوزيع الناشئة مثل الدار التونسية للنشر والشركة التونسية للتوزيع ، ودار الكتب الشرقية ، وشركة النشر لشمال افريقيا ودار المغرب العربي .

واعترف ان معرفتي بهذه الجماعات قاصرة ، لا تعدو ما أقرؤه من خلال نشاطها واسمائها المدونة على منشوراتها .

اما ما اعرفه عن ثقة فهو تلك الشخصية التي ظلت ترفض وراء الكثير من الانتاج الفكري التونسي المعاصر لعقدين من الزمان مثلما يرفض الجندي اليقظ خلف مدفعه المصوب .

تلك هي شخصية الكاتب الباحث التونسي المتعدد الجوانب . الاستاذ أبو القاسم محمد كرو .

فمنذ تخرجه في دار المعلمين العليا بالعراق، في أوائل الخمسينات من هذا القرن، عاد الى تونس ليمارس هوايته كمؤلف أولا، ثم ليصنع لهذه اليقظة الفكرية في تونس دعائمها الاساسية .

فالف أول بحث مكتمل عرفه العالم العربي عن « الشابي .. حياته وشعره » ، ثم أخرج مجموعة من مقالاته وخطبه وأحاديثه للتعريف بتونس في كتاب بعنوان « حصاد القلم » وعندما استقر في تونس أصدر العديد من الكتب في التعليم والعمل والسياسة والاجتماع ، والادب والنقد ، منها كتاب « كفاح الشابي » وكتاب « كفاح وحب » وبعض كتب التراجم ، واسهم بإيجابية في تحرير الكثير من الصحف في مختلف البلاد العربية .

واخيرا تبلور اتجاهه الثقافي في اصدار سلسلة كتيبات شهرية باسم « كتاب البعث » الذي تناول في العديد من حلقاته كثيرا من ألوان المعرفة في التاريخ والتراجم والدين والاجتماع والفلسفة والاقتصاد والآثار والقصة والنقد ، وجمع على هذه السلسلة كثيرا من الافلام التونسية والعربية .

ولم تكن الفكرة مجرد اصدار سلسلة من الكتب ، بل كانت مبادرة ثقافية واجتماعية يعتبرها الباحثون من الاحداث الهامة تشكل نقطة تحول في تاريخ الحياة الثقافية لتونس المعاصرة ، وقد نم عن اهدافها ذلك الشعار الذي اتخذته أساسا لعملها ، وهو « فكر حر ، وحياة افضل » وخطط لوضع هذا الشعار موضع العمل ، وذلك بان جعلها تسهم في بعث الثقافة العربية ، وتواكب نهضة المغرب العربي المعاصرة ، وتصور نشاط الحياة الادبية والاجتماعية ، وتيسر امكانية دخول القارئ الى فروع المعرفة المختلفة ، وترفع مستوى المجتمع ، وبهذه الصورة تستطيع قوة الكلمة المطبوعة والتثقيف ان تخرج المغرب من دائرة الخمول والاهمال .

وقد صدر من هذه السلسلة الشهرية أكثر من ثلاثين حلقة متتابعة .

ثم اصدر مجلة أدبية شهرية باسم « الثقافة » تعمل في المجالات الثقافية احياء وترجمة وتاليفا ، وتحفز كل الابدنى للعمل ، وتجمع على صفحاتها كل الافلام العربية السائرة في هذا السبيل دون تفرقة اقليمية .

واخيرا انشا دار المغرب العربي للطباعة والنشر ليصدر من خلالها أكثر من ثلاث سلاسل من الكتب والكتيبات .

وفي مقدمة هذه السلاسل سلسلة « مكتبة الشابى » وهى سلسلة من الكتب الحية التى تبحث أدب الشابى وحياته وآثاره ، وتعرض عيون الدراسات والبحوث التى كتبها الشابى أو كتبها عنه الادباء والنقاد .

والثانية سلسلة « اعلام المغرب العربى » وهى سلسلة ادبية تترجم لمشاهير رجال المغرب العربى قديما وحديشا ، من شعراء وكتاب وزعماء وأبطال ومفكرين ، فيها تعريف منهجى بحياتهم ، وآثارهم ، ومكانتهم فى تاريخ الفكر والادب العربيين .

والثالثة سلسلة « نجوم الفن » وهى أول سلسلة فنية تتحدث عن نجوم الفن فى المغرب العربى .

ولقد استطاع بجهوده الخارقة ومن خلال ايمانه بالهدف ان يجند قلمه ووقته ودخله لانجاح هذه السلاسل والسلاسل السابقة ، والعمل على انتشارها فى أنحاء العالم العربى ، فحشد حولها الاقلام التونسية الكبيرة والشابة من أمثال الكعاك والخليوى والعروسى والخميرى ومصطفى رجب وزبيس ، والمرزوقى ، ومجبوب بن ميلاد ، ومحمد مزالى ، وصفر ، وناجية ثامر ، بالإضافة الى الكتاب الشرقيين الذين استطاع ان يجتذبهم اليه ، وان يفتح امامهم مشروعاته الثقافية ليشاركوا فيها على قدم المساواة مع اخوانهم التونسيين .

ان ابا القاسم كرو قصة كفاح نادرة في توثيق الروابط الثقافية والفكرية بين تونس وشرقى العالم العربى بهذه الجهود ، وبما يقوم به من رحلات علمية ، وبما يشارك فيه من مؤتمرات وندوات أدبية وثقافية ، وبما ينشره من تراث ، وما يشجع من اقسام تونسسية ومشرقية وما يقدم من مطبوعات تونس الى الادباء والنقاد والقراء بغية ايجاد جسر من التعارف والتفاعل بين الفكر التونسى والمفكرين العرب .

وهو الى جانب ذلك قارئ نهم ، لا تفوته شاردة ولا واردة مما يكتب او ينشر او يذاع عن تونس خاصة وعن المغرب كله فى القديم والحديث ، ولهذا فهو يجهد فى تجميع كل التراث التونسى واعلامه ليعيد نشره باسلوب عصرى يناسب قارئ اليوم فى مختلف البلاد .

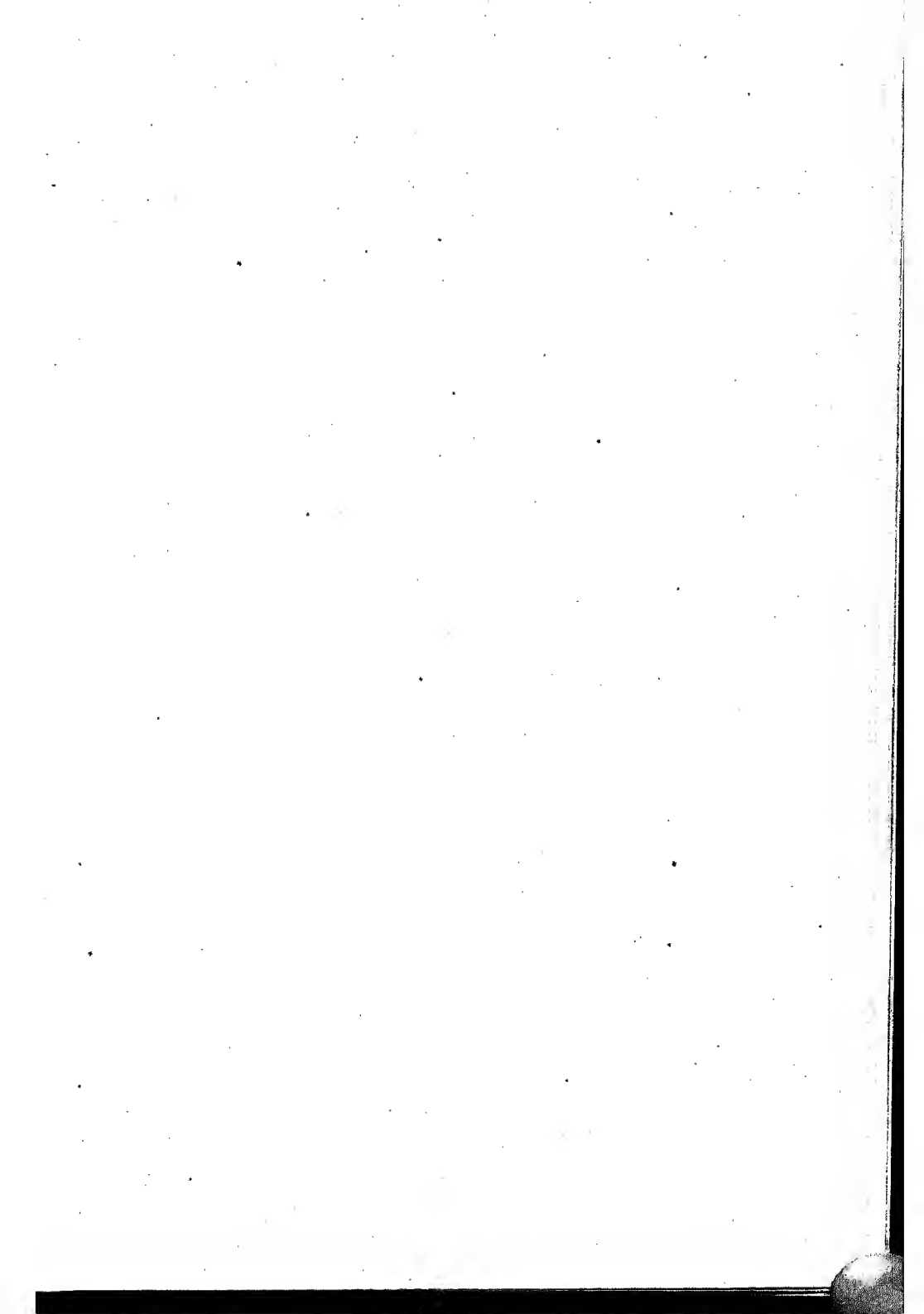
وهو ، من قبل وبعد ، كاتب اسلوب متميز يبين الكتاب العرب المعاصرين بالاضافة الى ان لديه القدرة على ان يحول اسلوبه العالى الى اسلوب مدرسى تعليمى ميسر يشارك به فى تحرير الكتب المدرسية للنشء التونسى .

يكفى ابا القاسم كرو للتنويه بجهوده انه عرف بالشابى لاول مرة باول كتاب علمى جامع يصدر عن حياته وشعره .

ويكفيه هذا الجهد الموفق ليكون داعية من دعاة الوحدة العربية بادئا من الجانب الثقافى الذى يجمع ولا يفرق ، ويهدى ولا يضل ، وحسب كل اديب عربى مخلص أن يضع معلما فى هذا الطريق ، وقد وضع ابو القاسم كرو كثيرا من المعالم ، وحدد كثيرا من الاهداف ، وفرش هذا الطريق بالاضواء .

رضوان إبراهيم

الباب الأول
الأدب التونسي المعاصر
في اللغة الروسية



الفصل الأول الأديب التونسي في الاتحاد السوفياتي

من بين - المظاهر التي أعتز بها في مجال اهتمامي بالأدب التونسي قراءة وتفاعلا ودراسة - أنني شغوف بتتبع ما يكتب عنه، سواء في اللغة العربية أو في اللغة الأجنبية التي أجيد التعامل معها، وهي اللغة الروسية.

ومنذ توثقت صلاتي بالأدب التونسي المعاصر (1) بفضل الصديق الأديب العالم أبو القاسم كرو، ومن بعده الاصدقاء الأدباء رشيد الذوايدي، وعبد الواحد براهيم، والدكتور نور الدين الحمداني، ثم صلاح الدين الجمالي (1) زاد اهتمامي بهذا الاتجاه، على قدر ما يتوفر لي من الوقت، وبقدر ما تستجيب لي الوسائل.

ولقد كتبت من قبل عن هذا الموضوع في جريدة « الصباح » الغراء بتاريخ 14/9/1972 أشير الى بعض الجهد المبذول من مستعربي الاتحاد السوفيتي الذين استرعى انتباههم الأدب التونسي المعاصر، فأخذوا بالوسائل العلمية والنقدية يعملون على تقييمه ووضعه في موضعه الصحيح بين آداب آسيا وأفريقيا المعاصرة.

وقد صدر في الاتحاد السوفيتي العديد من الدراسات المركزة، لعل في مقدمتها الكتاب الذي أشرت إليه من قبل بعنوان « الأدب

(1) الحمداني والجمالي من موظفي السفارة التونسية بالقاهرة، وكانا يزودان المرحوم رضوان ابراهيم بالكتب التونسية « ك » .

التونسي « للمستعرب التشيكي بانتوتشك، والذي ترجمته الى اللغة العربية إيسان صدوره، وأرجو ألا تكون الدار التونسية للنشر قد نسيت أنه من بين مخطوطاتها منذ ثلاث سنوات، وألا ينسى السيد الرئيس مديرها العام أن بيني وبين الدار عقدا بنشر هذا الكتاب قارب عمره الستين، وأن في هذا الكتاب ما هو جديد ومفيد من اللقطات المضيئة عن الأدب التونسي وأعلامه المعاصرين.

وكنت قد أشرت في نفس المكان من جريدة الصباح الى عمل من أعمال التعريف بالأدب التونسي في الاتحاد السوفييتي كان ما يزال في ضمير الغيب، وهو مجموعة قصص تونسية مختارة للترجمة الى اللغة الروسية.

ولقد صارت هذه المجموعة في حوالي 80 صفحة بعنوان « الوجه الجديد » ضمن سلسلة عن أدب الشرق، وقد أشرف عليها وشارك في ترجمتها، وقدم لها الدكتورة أولجا فرولوا أستاذة الأدب العربي في جامعة لينينجراد.

وقد اقتصر اختيارها على سبعة من القصصيين التونسيين الذين يمثلون الاتجاهات الأصيلة في القصة التونسية المعاصرة، واستوعبت تسعا من القصص التي تعتبر نماذج لهذه الاتجاهات وقام بترجمتها عدد من الدارسين والمتخصصين من كبار المستعربين السوفيت على الوجه التالي :

البضاعة الجيدة، لمحمد الصاحبي، قام بترجمتها الى اللغة الروسية
الدكتورة سفيتلانا باتسييفا. (2)

الوجه الجديد، لنفس المؤلف، وقد اتخذ اسمها عنوانا للمجموعة،
وقام بترجمتها س. بروزوروف.

القمح زيت. الزيتون، لمحمود طرشونة، ترجمها ا. ايندسكي.
سيدى سالم، لمحمود بو العيد، ترجمتها ا. ميخائيلوف.
مصرع صالح، لمحمد فريج الشاذلي، ترجمها س. بروزوروف.
صاحب المغارة، لمحمد المرزوقي، ترجمتها الدكتورة أولجا فرولوف،
المتبوع، لمحمد المرزوقي، ترجمها ف. تخوروجيفسكي.
فرحة الأولاد، للطبيب التريكي، ترجمتها ر. شرف الدينوف.
إبريق الشاي، لنانجية ثامر، ترجمتها ا. سوكلوفسكا.

وللمزيد من تعريف القارئ السوفييتي بهذه الشخصيات،
ومعظمها جديد على القراء ألحقت بالمحررة بهذه المجموعة ثبوتا
بيوغرافيا قصصيا لايجاد صلة بينهم وبين الأدباء والدارسين،
ولفتح مجال التعارف والتقارب بين الأدبين التونسي والسوفييتي،
كما قدمت الدكتورة أولجا لهذه المجموعة بدراسة تاريخية
تحليلية وافية، ومركزة تقول فيها :

(2) تخصصت في دراسة آثار ابن خلدون وقد نشر لها عنه بتونس « نظريات
ابن خلدون » ويطبع حاليا كتابها الكبير عنه « العمران البشرى في مقدمة
ابن خلدون » وما تزال توالى البحث والكتابة عنه وعن الادب التونسي. د ك

« كان يوم الثالث من يونيو عام 1955 يوم اعلان الاستقلال الذاتي لتونس، والمظاهرات الضخمة للشعب المغتبط المتهلل بالهتافات التي تمجد الحرية والاستقلال، وهي تتحرك في اتجاه قرطاجنة، التي كانت المدينة الرئيسية وقتنا ما، حيث كانت الدولة الجسارة المترامية الأطراف، وهي في الوقت الراهن ضاحية من ضواحي العاصمة تونس، وتحمل نفس الاسم في نفس البلد.

وبعد أقل من عام، في العشرين من مارس عام 1956، أعلن الاستقلال التام لتونس، وأصبحت هذه الأحداث أهم مراحل التطور السياسي والاقتصادي والثقافي.

ويرجع تاريخ هذه البلاد الى الألف الأولى قبل الميلاد، حيث يتصل بتاريخ الفينيقيين والرومان والوندال والبيزنطيين، ثم أصبحت البلاد التونسية عربية منذ القرن الثامن الميلادي.

وتونس موطن لكثير من مشاهير العلماء والأدباء الأمجاد، فضلا عن يدعونه أبوولو، مؤلف الرواية العالمية المشهورة «الحماس الذهبي» في القرن الثاني الميلادي، وقد تلتى علومه في قرطاجنة.

كما أنها موطن مؤلف أول كتاب عن نظرية علم التاريخ، وهو «المقدمة» لكتاب ابن خلدون في تاريخ العالم، وابن خلدون من علماء القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وهو يعتبر إماما لعلماء الاجتماع المعاصرين.

وفي تونس تقوم جامعة من أقدم جامعات العالم، هي جامعة الزيتونة التي أنشئت في القرن الثالث عشر. (3)

وفي القرن التاسع عشر ظهر في البلاد أدب فني أخذ ينتظم في نمطه العصري (4).

ولقد فتح استقلال تونس أمام أدبائها آفاقا جديدا، ولعبت مجلة « الفكر » — التي ظلت تصدر منذ عام 1955 — دورا كبيرا في تعريف القراء بانتاج المؤلفين التونسيين.

وكما يعتمد المؤلفون التونسيون في إبداعهم الراهن على التقاليد المحلية فانهم يعتمدون كذلك على منجزات آداب البلاد العربية الأخرى، كما يعتمدون على الآداب الغربية.

حقيقة إنهم يتحدثون عن أحداث الحياة اليومية، لكنهم كثيرا ما يلجأون الى الماضي البطولي لشعبهم، والى نضاله الوطني التحرري،

(3) هكذا في الاصل ، ومعلوم ان جامع الزيتونة تأسس عام 114 للهجرة وانه منذ تأسيسه وهو معهد للعلم . وعليه فان التاريخ الصحيح هو القرن الثامن الميلادي ، لا الثالث عشر . « ك »

(4) عن الادب التونسي المعاصر يمكن الاطلاع على الاعمال التالية : سفيتوزار بنتوتشك ، الادب التونسي المعاصر ، دراسة قصيرة ، موسكو ، 1969 و س . بروجينا ، ادب مراكش وتونس ، موسكو ، 1968 ، و « ارضنا العزيزة » ، مجموعة قصص لكتاب مراكش وتونس وليبيا ، موسكو ، 1967 ، و ب . شوستر ، مراجعات في ادب تونس ، « كوكب الشرق » ، عدد 10 ، 1958 ، و ي . ن . زافادوفسكي ، الادب التونسي ، دائرة معارف الادب المختصرة ، مجلد 7 ، موسكو ، 1972 ، و س . ف . بروجينا ، ادب بلدان المغرب المكتوب باللغة الفرنسية ، موسكو ، 1972 .

ويخصصون كثيرا من المواقع للحديث عن حياة الناس البسطاء، وعن عاداتهم وتقاليدهم وخرافاتهم المحلية.

ومعظم كتاب تونس المعاصرين يتحدثون في انتاجهم عن نضال الشعب التونسي في سبيل التحرر من الظلم الاجتماعي، كما يتحدثون عن التحرر من العبودية الروحية.

إنهم يسخرون دائما من العادات والخرافات البائدة، ويندodon بها، ويصورون حياة الشعب اليومية بمختلف صورها، ويبرزون ما فيها من مظاهر العزة وجمال البساطة في الإنسان البسيط.

وتصوير الحياة الشعبية هو الموضوع المفضل لدى كاتب الجيل المبكر محمد المرزوقي الوثيق المعرفة بها.

إن محمد المرزوقي كاتب فولكلوري خبير بحياة البدو وأغانيهم القديمة وأساطيرهم وقوانينهم القبلية وعاداتهم التي ظهرت انعكاساتها في إبداعه الفني. فهو يصور في حب وتعاطف طبيعة الصحراء بأوديتها، وأبعادها المترامية الأطراف، ورمالها الصفراء وصخورها الصلدة.

وقد وفق الكاتب في أن يبعث في قارئه شعورا غير عادي بالطمأنينة والاحلال بازاء الطبيعة المحيطة بالإنسان عند التأمل في هذه المراتع الفسيحة الأرجاء.

فالسكون.. وجلال الطبيعة يستقبله المرزوقي بشغف إنساني عاصف.
وفي قصصه انعكاسات لكثير من الآراء الساذجة والعادات
والقوانين السائدة في ظروف الحياة العادية للبدو الرحل لآماد طويلة
من الزمن.

ولقد كرس المرزوقي لحياة البدو قصة « عرقوب اخير »، وقصة
« خيال الماضي »، وقصة « المتبوع ».

أما قصة « صاحب المغارة » فتدور حول الكشف عن السر الخاص
بإحدى الأساطير التي كانت تروى عن الثقة في الحب وخيانة الصديق
وعن مآسي الفقير.

تلك هي ملامح واحد من الجيل المبكر، أما كتاب القصة القصيرة من
الشيان فاننا نجدهم في حالة بحث مستمر عن الأساليب الأدبية الجديدة.

وتجد مجلة « الفكر » التونسية تفتح صفحاتها بصورة منتظمة للنقاد
وعلماء الأدب لمناقشة المشكلات الحيوية للقصة، وفيه القصاصيين،
والمضنون الفكري لانتاجهم، ووسائل إتقان الشكل الأدبي.

ويحدد عبد العزيز قاسم في مقاله عن « قواعد القصة » المهام
المستقبلية للأدب التونسي حين يقول : « علينا أن نثبت لهذا الأدب
حقيقته العميقة الراسخة، وأن نجعله أدبا يتحدث عن الانسان،
عن ماهيته، وعن طبيعته، وعن قلقه، وعن حريته، وعن أمانيه،
وعن قضايا حياته الخالدة » (5).

(5) عبد العزيز قاسم، في أساليب القصة (عن قواعد القصة)، الفكر، 1966،
عدد 6، ص 6* (630) .

أما المؤلف الذي ما يزال في دور الشباب ، ولسكنه واسع الشهرة ، وهو محمود بو العيد ، فيخصص أنتاجه للمواقف الصعبة التي يعانيها الشعب ، وقصته « قلب لا يخفق » — على سبيل المثال — يتحدث فيها عن العاملة القاسية التي يعامل بها العبد الأسود ، ويسخر من الخرافات والعادات البائدة .

وقصة « سيدي سالم » قصة محتال ذكي يستغل السذاجة والجهل بالعقيدة والثقة بالقدسيين والسحرة .

وهو يتجاوب في كثير من العناصر مع قصة « دار الشفاء » للكاتب التونسي المعروف مصطفى الفارسي المولود عام 1931 ، وهي القصة المنشورة باللغة الروسية في مجموعة « أرضنا العزيزة » .

وعن الحظ التمس الذي يعانيه الفقراء يكتب الكاتب المشهور الطيب التريكي قصصه ، ففي قصته « فرحة الأولاد » يضع أمام القارئ صورة أسرة لا تستطيع حتى في يوم العيد أن تطعم أطفالها إلى حد الشبع .

وتتفاقم دراماتيكية الحالة ، وتزداد سوءا بسبب أن الفقر في المفهوم الشائع وصمة عار كبرى ، وسمعة ربة البيت التي يحل بها العيد ولا تستطيع أن تعد انطبق التقليدي للعيد تصبح سمعة ملطخة .

وتنهال على المرأة الفقيرة سخریات الجيران واستهزاؤهم وإهانتهم ، وليس من باب المصادفات أن يكون ذلك في أيام الأعياد الدينية ، فإن من الممكن أن نقرأ في الصحف خبر انتحار امرأة لا تملك النقود التي تهيء بها طعام العيد .

أما الطيب التريكي فيتخذ محور قصصه من الحياة الواقعية ، ويعتمد الى سرد الكثير من تفاصيل الحياة اليومية العادية ، ويلجأ الى أحداث هذه الحياة يستوحىها.

وفي جراءة يخالف المؤلف قواعد اللغة العربية الأدبية ، ويدمج في نص القصة حوارا باللغة التونسية الدارجة.

وقضية ازدواج اللغة تثير القلق في العالم العربي كله ، فمكان كل بلد عربي يتحدثون اللغة الدارجة المحلية مثلما يتحدثون في الوقت نفسه باللغة الادبية العامة بالنسبة لجميع البلاد العربية ، لكنها عمليا غير مفهومة للغالبية العظمى من العرب الذين لم تتح لهم فرصة الالتحاق بالمدارس.

والكتاب مضطرون بحكم التقاليد أن يكتبوا أعمالهم باللغة الأدبية ، وكان محمد حسين هيكل أول من بدأ يقدم أحاديث الشخصيات باللغة المحلية الدارجة ، وتابعه في ذلك الكتاب التونسيون الشبان ، حينما لجأوا جميعا وفي حسم الى الحديث « بلغة الشارع » التي يتحدث بها الفقير التونسي. (6)

وفي قصة « القمح وزيت الزيتون » التي تنسب الى قليم محمود طرشونة يشغل المكانة الرئيسية فيها قضية النضال الحيوي والملاح

(6) هذه الملاحظة تثير نقاشا طويلا ، ويكفي ان نذكر بان الذين يكتبون بالدارجة في تونس أو يمزجونها في كتاباتهم لم يتابعوا م . ح . هيكل الذي ليس هو أول من كتب بها في مصر . ففي مطلع القرن الحالى ظهرت في الصحف التونسية الكتابة بالدارجة ، بل وتخصصت لها صحف بأكملها . أما في مصر فان الكتابة بها ظهرت منذ القرن الماضي . (ك)

جدا ضد العادات الراسخة بإحكام لاختفاء الفقر بطريقة متقنة ،
والتظاهر بالغبى.

ومحمود طرشونة يسخر من الرواد الدائمين للمقاهي التونسية ،
وينبذ فزع هؤلاء من أن يعرف شخص ما أي شيء عن فقرهم ،
كما لو كان ذلك شيئا فاضحا على الحقيقة.

والقصاص الشاب محمد الصاحبي الحاج يطالعنا بانتاجه النثري
المنتظم في شكله الموجز ، وتتميز قصصه القصيرة بالبناء المحكم ،
والتحول الفجائي للأحداث ، والحلول غير المتوقعة.

ففي قصته « البضاعة الجيدة » يصور المؤلف بسخرية تلك
العادات القديمة لزواج البنت الكبرى أولا ، ثم البنت الصغرى
كما يسخر من عادة تحريم رؤية الخاطب خطيبته قبل التماس الزواج.
والحاج يبرز أن منطق الحياة المعاصرة يوجد التزاما أحمق وغير
محتسل بالأوضاع المماثلة. •

وفي جميع أعمال الكاتب التونسيين المعاصرين على وجه
التقريب تنعكس هذه أو تلك من مسائل النضال الوطني التحرري ،
ففي قصة الكاتب الشهير محمد فوج الشاذلي المعنونة « مصرع
صالح » يحب البطل عمله في الفلاحة ، لكن الشعور بالنقص ،
والنزوع من المستعمرين يقوده الى صفوف المناضلين ، فيلتحق
بفصائل الفدائيين.

وفي السنوات الأخيرة ظهر في الأدب التونسي بعض الكاتبات من النساء، وأكثر هؤلاء يكرسن قصصهن لمجموعة من الموضوعات الخاصة بالمرأة.

من هذه القصص على سبيل المثال قصة أمينة بنت مصطفى، وهي قصة « سر خديجة »، 1967، ويسودها في الواقع أسلوب المذكرات التهذيبية، فالكاتبة تنصح الرجال التونسيين بأن يختاروا زوجاتهم من بنات وطنهم، وألا يركبوا البحر الى فرنسا، فعلى النساء لا يتميزن بشيء هام من وجهة نظر الأخلاق الإسلامية.

ومن الكاتبات الشهيرات في تونس ناجية ثامر، التي ألقت كثيرا من المسرحيات، والمقالات النقدية، والأعمال الأدبية، كما قدمت كثيرا من الموضوعات النسائية، ففي قصة « غناء البابل » تتحدث عن غيرة الحماة من زوجة الابن، تلك الغيرة التي لا يخفف منها سوى ظهور حفيدها الذي جاء الى هذا العالم.

وفي قصة « ابريق الشاي » تتحدث ناجية ثامر — دون أن تعتمد الإلحاح — عن الحياة القاسية التي يحياها الأجير التونسي.

انها تبرز طابع الحزم والصلابة الأصلية المثيرة والمعتزة بروح الثبات في النضال.

وبعد.. فلقد ظل الأدب التونسي حتى هذه اللحظة غير معروف خارج حدود بلاده الا للقليلين، مع أنه بلغ مستوى فنيا عاليا.

ونأمل أن يؤدي نشر مجموعة « الوجه الجديد » — بالرغم من التحديد المرسوم لهذا الرصيد المتواضع — شيئا من التوسع في تقوية الصلات الثقافية بين الاتحاد السوفيتي وتونس حتى يمكن أن يتعرف القاري السوفيتي — بطريقة أفضل — على واحد من الآداب العربية المعاصرة، وهو أدب يطور نفسه من عام الى عام، وينظم قواه الإبداعية، أدب يقدم بنفسه في الوقت الراهن أهم ظاهرة ثقافية ».

وأخيرا يجيء تعريف المحررة بكتاب هذه المجموعة على الوجه التالي :

محمد الصاحبى الحجاج

كاتب تونسي شاب، وقد تم تحقيق ترجمة قصته « البضاعة الجيدة » عن نص منشور في مجلة الفكر، العدد السادس، عام 1967. أما ترجمة قصته « الوجه الجديد » فهي محققة عن نص منشور بالعدد الثالث من مجلة الفكر لعام 1966.

ولم يسبق أن نشر له شيء في اللغة الروسية من قبل:

محمود طرشونة

كاتب تونسي شاب، وقصته « القمح وزيت الزيتون » مترجمة عن نص منشور في العدد الثامن من مجلة الفكر لعام 1966. ولم ينشر لهذا الكاتب قبلها شيء في اللغة الروسية.

محمود بلعيد

كاتب واقعي تونسي شاب، معروف بقصصه التي تتناول الأوضاع القاسية لحياة العمال الذين تجلدتهم العادات الوحشية، والأباطيل والخرافات. وترجمة قصته « سيدي سالم » محققة عن النص المنشور في العدد السابع من مجلة الفكر عام 1967.

وقبل هذه القصة لم ينشر له شيء في اللغة الروسية.

محمد فرج الشاذلي :

ولد في القيروان عام 1927، وهو كاتب تونسي معروف باتجاهه الواقعي. وفي قصص محمد فرج الشاذلي وصف رائع لحياة الشعب وطبيعة الوطن وأعمال الفلاحين. وله مجموعة قصصية مخصصة للحركة الوطنية التحررية. وقصته المترجمة « مصرع صالح » مأخوذة عن نص منشور في العدد الثالث من مجلة الفكر لعام 1955. ولم ينشر لمحمد فرج الشاذلي قبل ذلك شيء في اللغة الروسية.

محمد المرزوقي

ولد محمد المرزوقي عام 1916، وهو كاتب تونسي مشهور، الى جانب أنه شاعر، وناثر، وعالم، وجامع لنصوص التراث الفولكلوري التونسي.

وكثير من قصصه منشور في المجلات التونسية، والى قلم هذا الكاتب تنتمي مجموعة قصص « بين زوجتين » المنشورة في تونس عام 1957، ومجموعة « عرقوب الخير » المنشورة في تونس

عام 1956، ومجموعة « في سبيل الحرية » المنشورة في تونس
كذلك في عام 1956، وغيرها.

وترجمة قصته « صاحب المغارة » مأخوذة عن نص منشور في
مجموعة « عرقوب الخير »، أما قصته الأخرى « المتبوع »
فمأخوذة عن مجموعة « أرضنا العزيزة ».

الطيب التريكي

كاتب تونسي معاصر، وترجمة قصته « فرحة الأولاد »
محققة عن نص منشور في العدد الأول لعام 1965 من مجلة الفكر.

ولم ينشر لهذا الكاتب شيء في اللغة الروسية قبل هذه القصة.

ناجية ثامر

كاتبة تونسية مشهورة، ولدت في دمشق، ولكنها تنحدر من
أسرة تونسية. (7)

وناجية ثامر مؤلفة قصص ومسرحيات ومقالات في علم
الأدب، وإلى قلمها ينسب عدد من المجموعات القصصية، مثل
مجموعة « أردنا الحياة » المنشورة في تونس في الستينات.

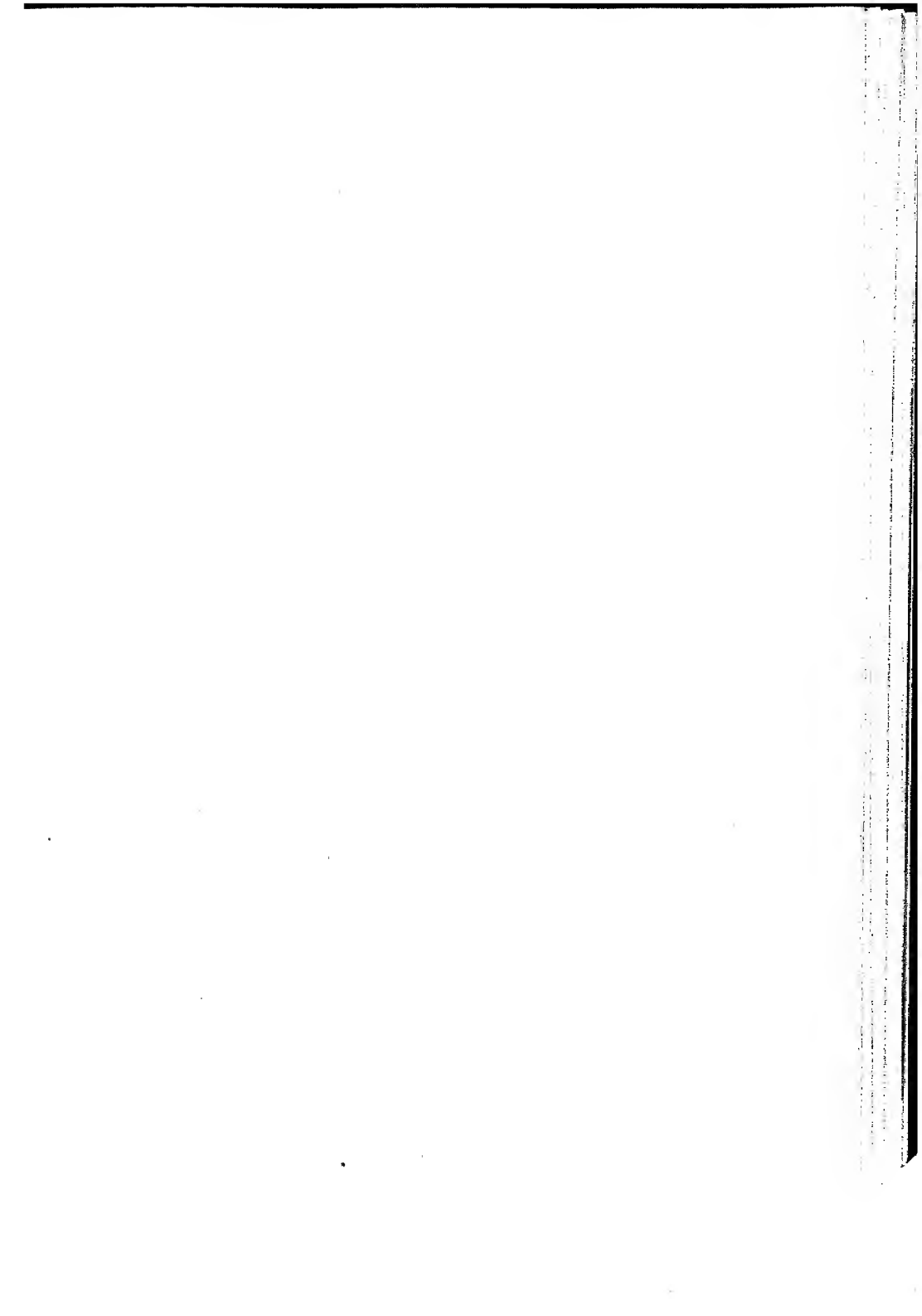
(7) المعروف ان السيدة ثامر حاصلة على الجنسية التونسية ، ومستقرة بتونس
منذ ثلاثين سنة . (ك)

وترجمة قصتها « ابريق الشاي » محققة عن نص منشور في العدد الأول من مجلة الفكر عام 1961.

ولم ينشر لناجية ثامر أي إنتاج في اللغة الروسية من قبل .

هذا هو الجهد المخلص الذي بذلته المحررة الدكتورة أولجا فرولوفا في تعريف القراء السوفييت بلون من ألوان الأدب التونسي المعاصر في هذا الحيز المحدود، ومع أن المحررة تقول عنه إنه « رصيد متواضع » وعلى الرغم من رأيها في تبرير استخدام اللغة الدارجة المحلية الا انه يبدو من خلال كلماتها التعاطف والإخلاص وروح الصداقة للأدب التونسي، وتلك بداية لزحف الأدب التونسي على المجالات العالمية، ويبقى بعد ذلك نشاط الأدباء التونسيين وانطلاقهم، ويبقى دور الأجهزة الرسمية في تنمية الصلات الثقافية على نطاق أوسع، وتبقى اللقاءات والندوات والمؤتمرات وتبادل الزيارات.

ومن الأمور الملحوظة في هذا الصدد ذلك الدور الإيجابي الذي لعبته مجلة الفكر التونسية في التعريف بالأدب التونسي، وربما كان دورا طبيعيا وغير متعمد، ولسكنه أثمر هذه الثمرة الطيبة لخير الأدب التونسي الصاعد.



الفصل الثاني التجديد في الأدب التونسي

تاريخ الأدب العربي المعاصر في تونس — شأنه شأن الأدب في بقية بلدان العالم العربي الأخرى — يرتبط تطوره حتما ببداية نمو التجديد الثقافي في البلاد.

فلقد أدى ظهور رأس المال الأجنبي في إفريقيا المعاصرة وميلاد الصناعة المحلية في القرن التاسع عشر، الى تغيير في جميع مكونات الحياة الاجتماعية، ومن بينها هياكل الثقافة والتعليم.

وتحت ظروف الحماية الفرنسية التي استمرت طوال خمسة وسبعين عاما كان تطور الأدب التونسي بطيئا الى أقصى حد، الا أنه بالرغم من كل هذا كان يتعرض — مثلما تعرض الأدب المصري والأدب السوري في تلك الفترة — لتحول ملحوظ، فلقد جدد نفسه وأثرى إنتاجه، وتخلّى بعض الشيء عن قوانين الشعر التقليدية الصارمة، وظهرت فيه فنون جديدة.

ومع ان هذا التطور بدأ في تونس متأخرا عنه في بلدان الشرق العربي، الا أنه منذ الستينات من القرن التاسع عشر ظهرت أول

مطبعة حكومية، وأول جريدة تونسية، وأول ترجمة لآثار المؤلفين الأوروبيين (١).

غير أن اليقظة الحقيقية. للثقافة الوطنية في تونس لم تصل إلى المستوى الذي وصلت إليه البدعة الأوروبية، و « المهمة التمدينية العظمى » للاستعمار الفرنسي، لكنها وصلت إلى القدر الملائم لنشاط القوى الوطنية، ونمو الوعي القومي في البلاد.

خير الدين التونسي

وترتبط بداية مرحلة اليقظة الثقافية في تونس بظهور أسماء مثقفي تونس في القرن التاسع عشر، من أمثال خير الدين التونسي، الذي ينسب إليه نشاط السنوات الأولى لحكم المشير أحمد باي (1837 — 1855) المناصر الإيجابي للإصلاح، فلقد شغل خير الدين كثيرا من المناصب العسكرية والسياسية في بلاط أحمد باي وخلفائه، وحصل خير الدين باستقامته على اعتراف الجميع بدواهبه وقدرته على استغلال منجزات الحضارة الأوربية في مجال سياسة الدولة، والحقوق الأهلية والشرعية في ميادين الفكر الاجتماعي، وفي تطوير الصناعة إذ كان يعتبر أن ذلك هو الطريق الوحيد والعخاص للوصول بالبلاد إلى الاستقلال السياسي والاقتصادي.

إن خير الدين يبسط نظريته الخاصة بتطور الحضارة الأوربية في كتابه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » الذي أنجزه عام 1867 (2).

وكان نشاطه موجها الى الأهداف النهائية لتحويل تونس الى دولة
بورجوازية ديمقراطية من الطراز الأوربي ، وقد أثار نشاطه
اعتراض المحافظين المثقفين على نقاء الدين ، ورسوخ قوانين
الشريعة ، خاصة وأن خير الدين كان يدافع كذلك عن رأيه في
ضرورة تعليم المرأة.

والى جانب ذلك كان نشاط خير الدين خصباً ومشراً الى أقصى حد
فبمساهمته تم افتتاح أول معهد عال على النظام المدني في البلاد
عام 1875 ، وهو الكلية الصادقية ، وأنشئت المكتبة العبدلية ،
وقد استطاع أن يجري تغييراً في المناهج التقليدية للتعليم في الجامعة
الإسلامية ، جامعة الزيتونة ، حيث وسع مجال تعليم العلوم
الطبيعية بدرجة كبيرة (3).

وأكثر من مرة أفصح خير الدين عن آرائه في ضرورة النضال
في سبيل حصول البلاد على استقلالها(4) ، والعناية بالشخصية
الانسانية ، ومراعاة القوانين والعدالة ، والى جانب هذا فمن
الضروري أن يكون للانسان ركيزة عقائدية ، لا بالنسبة لعالم الغيب
فحسب ، ولكن كذلك على الارض ، ومن هنا تتكون دعامة من
الكتاب والشعراء التونسيين في المستقبل.

لقد تم احتلال تونس في عام 1881 لكي تتحقق مصالح رأس
المال الفرنسي ، ولم يتم هذا الاحتلال الا من أجل أن يعزز الوضع
الذي كان قائماً من الوجهة الرسمية عند ذلك الوقت ، والذي كان
يمكن أن نطلق عليه احتلالاً جزئياً لتونس(5).

كذلك أتيحت للأجانب منذ عام 1856، وبمقتضى « المرسوم العالي » للسلطان فرصة تملك الأراضي والعقارات في جميع أقاليم الامبراطورية العثمانية(6)، وفي تونس أسلم الوضع الممتاز لأصحاب المشروعات الفرنسيين الى الوضع الذي جعلهم يملكون كثيرا من آلاف الهكتارات من الأراضي الخصبة بدون ثمن، بل أكثر من ذلك كانوا يحصلون على امتيازات لانشاء المشروعات المختلفة التي ترتبط باستغلال الثروات الطبيعية في البلاد، والمرافق والوسائل الأخرى، كالمواني، والطرق الحديدية والبرية الموصلة بين الأقاليم الصناعية ومراكز تصدير المواد الأولية، وكذلك البرق وأنابيب المياه ومصادرها وغير ذلك.

ولقد فرض الفرنسيون رقابة كاملة على الاقتصاد التونسي، فاستولت الشركات على مجالات التجارة، وقيد نشاط المشروعات التجارية للبورجوازية التونسية، وذلك بغمر تونس بالمنتجات الصناعية الرخيصة، وحرمت الحرفيين المهرة من وسائل العيش، فلم يصمدوا للمنافسة، بل اضطروا أن يتوقفوا عن إنتاج كثير من السلع التي اشتهروا بها في جميع أنحاء الشرق العربي.

وبهذه الصورة، ونتيجة للاستعمار الأوروبي تأثرت أوضاع جميع طبقات المجتمع التونسي، الا أن أهل المدن كانوا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين يشكلون أغلبية سكان البلاد، أما تجار الأراضي، والبورجوازية الصغيرة المرتبطة بتطور الحياة المدنية فقد كانوا كثيري العدد بدرجة كافية، وقد ولدت الحركة السياسية الموجهة ضد الحماية الفرنسية في أوساط البورجوازية المدنية بصفة خاصة(7).

فقد أثار تدهور الوضع المادي روح العداء ضد الفرنسيين في كثير من الأسر الأرستقراطية التي أملت نتيجة لاحتكار الأجانب للمناصب الكبرى في دوائر الإدارة الحكومية.

بلود الكفاح الوطني

وفي الثمانينات من القرن التاسع عشر ظهرت في أوساط البورجوازية المثقفة لأول مرة تلك المنظمات القائمة على الأساس الوطني، وكانت أولاها جمعية « الأربعة »، التي نظمها أستاذ جامعة الزيتونة، البشير صفر (8)، واشترك في عضويتها مجموعة منحدرة من الأسر البورجوازية والأرستقراطية، من الحاصلين على التعليم في جامعة الزيتونة الدينية، والمحامين، والصحفيين، ومنذ عام 1888 أصبحت هذه الحلقة تصدر جريدة « الحاضرة »، وقد انحصر نشاط حلقة صفر في الدعوة الى فكرة الطابع التثقيفي على أساس الانتشار الواسع في ذلك العصر لفكرة الإصلاح في العالم العربي.

وقد اعتمد صفر على نفوذ المصلحين الكبار في الإسلام، وبصفة خاصة على واحد من أبرز قادتهم، وهو الكاتب الاجتماعي السياسي المصري محمد عبده، الذي أمضى بتونس بضع سنوات (9) في ابان اضطراؤه للتزوج عن مصر في الثمانينات.

وفي عام 1903 اعتبر التوسع الاقتصادي والسياسي للعرب في البلاد العربية واحدا من أشكال النضال المسيحي ضد الإسلام، أما الاخلاص للإسلام، وعادات الأسلاف فكان يعتبر معارضة للعلاقات

مع مسيحي أوروبا، وبدلاً من هذا رأى المثقفون التونسيون في القرن التاسع عشر الطريق الصحيح إلى بعث عظمة ماضي البلاد، وأهليتها لمجابهة الاحتلال الأجنبي بالإصلاح الاجتماعي، والدعوة إلى المعرفة على أساس الوصول إلى المستوى العالمي.

وعلى المجتمع الجديد - في اعتبارهم - أن يسعى لا في طريق محاكاة البلاد الأوروبية، بل على أساس « الحقيقة » والدين الإسلامي المنقى من الخرافات، والتكيف مع متطلبات اليوم.

ولكن لكي نحافظ على تعاليم الإسلام ينبغي أن نظفر باعتراف الأوربيين، ولهذا كانت المهمة الأساسية لهذه الأيام هي إصلاح التعليم، وتحسين أنظمتهم.

فبالإضافة إلى الكلية الصادقية المؤسسة عام ١٨٧٥، حيث كان يسود التعليم باللغة الفرنسية، وبمبادرة صفر في عام ١٨٩٦، افتتحت الجامعة الخلدونية (10)، المسماة على شرف المفكر المغربي العظيم عبد الرحمان ابن خلدون الذي عاش في فترة ازدهار الثقافة الإسلامية في القرن الرابع عشر.

وأصبحت هذه الجامعة مركزاً للثقافة الجديدة، وتعليم اللغة العربية، ولكنها هنا اقترنت بتدريس العلوم الطبيعية على أساس الطرق العلمية العصرية، وعدا اللغة الفرنسية فقد كان يدرس بها تاريخ نظام العلوم الأدبية التقليدية، والأنساب العربية، وفنون البلاغة العربية، والشريعة الإسلامية، وتفسير القرآن، والأدب العربي الكلاسيكي (11).

وكان الطلبة الذين ينهون دراستهم في هذه الجامعة يحصلون — بالإضافة الى الدبلوم — على بكالوريوس العلوم (12) كل في مجاله، وفي الثقافة الشرقية والغربية، وعدا ذلك فإنه بفضل جهود الوطنيين في بداية القرن العشرين أجريت في تونس بعض التجديدات والتطويرات في المدارس القرآنية التقليدية أو الكتاتيب، كما افتتحت المدارس الريفية (13).

طلائع النهضة الثقافية

وعلى تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين تزايد عدد المطبوعات الدورية في تونس بشكل واسع، فصدر باللغة العربية جرائد ومجلات « المحاضرة » عام 1888، و « الرائد التونسي » عام 1888 (13) و « الزهرة » عام 1890، و « البصيرة » عام 1893، و « سبيل الرشاد » عام 1895، و « السعادة العظمى » عام 1904، و « القلم » عام 1904، و « الصواب » عام 1907، و التقدم » عام 1907 (15).

وكانت مهمة التوسع في المعرفة من خلال المطبوعات الدورية سببا في ظهور فن المقال. كما كانت مجموعة الموضوعات الجديدة للبحوث والمقالات سببا في بعض التبسيط الذي حدث في اللغة والاسلوب بالنسبة للمؤلفات الاجتماعية والسياسية، وتحريرها من التراكيب اللغوية المهجورة.

ومن الواجب أن نذكر أنه لم تظهر في تونس في القرن التاسع عشر أعمال من انتاج الترجمة الثقافية الموجهة الى غرض معين (16)،

على غرار ما حدث في لبنان وسوريا ومصر (17) على سبيل المثال، بفضل نشاط مدرسة الألسن، التي قامت بإشراف رفاعة رافع الطهطاوي، إذ لم تنح مثل هذه الفرصة في تونس للاستفادة بإنتاج المؤلفين الأوربيين في فروع المعرفة المختلفة إلا في الثلاثينات من القرن التاسع عشر (18).

والحقيقة أن مترجمات المطبوعات الفنية والعلمية المنقولة عن الغرب، والصادرة أخيراً بالقاهرة وبيروت أخذت تتغلغل في جميع بلدان العالم العربي، ومن بينها تونس، إلا أن انتشار المعارف والأفكار الأوربية كان في بداية الأمر قد جاء أساساً من خلال خريجي الكليات والجامعات الذين حصلوا على تعليمهم في الغرب (19).

ويبدو أن الصورة الجديدة الأخرى للإبداع الأدبي بالذات ظهرت في البلاد عن طريق المقالات والتقارير الخاصة عن رحلات التونسيين خارج بلادهم.

ومن نماذج هذا الإنتاج « الرحلة الحجازية »، للشيخ السنوسي، حيث يقص عن أسفاره في بلدان البحر الأبيض المتوسط. ووصف آثار الفن الإسلامي في إسبانيا لعلّي الورداني. ورسالة باريس لمحمد بالخبوكة (20).

وانتاج هذا النوع من الطراز الأدبي يحتوي — عدا الانطباعات الخاصة — على مادة مدركة محددة.

والتعصب لفكرة الإصلاح الإسلامي ، والاهتمام بماضيه القومي —
يمكن أن يوضح ظهور تراجم البارزين من الشخصيات الإسلامية
في الثمانينات ، ف فيما بعد وجدت أفكار محمد عبده — على سبيل المثال
— انعكاسا في الإنتاج الذي اعتبره النقد التونسي أول ترجمة للرواية القومية
في مثل رواية « الهيفاء وسراج الليل » لصالح سويسسي عام 1906.

وعند بداية القرن العشرين وجدت نزعة ملحوظة الى تغيير
الاتجاه الثقافي ، فقد رأى أنصار بعث الماضي القومي للبلاد —
الذين حاولوا أن يبرهنوا على رأيهم — أن تجديد الدين الإسلامي
قادر على أن يجعله أساسا للتقدم ، وأن يصل بالبلاد الى الاستقلال ،
لكنهم قبلوا بمعارضة شديدة من جانب أنصار النزعة الغربية.

ولقد نشأ في بداية القرن الحالي في تونس اتجاه يرفض شعارات
مجددي الإسلام ، وقد كان هذا الاتجاه منجذبا الى الفكرة الأوربية
وكان يقود هذا الاتجاه المحامي علي باش حانبة الذي كان ملاصقا
لمجموعة صفر ، ففي عام 1905 رأس جمعية خريجي الصادقية التي
كانت تبشر النشاط الثقافي في البلاد.

وفي تلك الآونة أخذ عدد أنصار فكرة الجامعة الإسلامية في البلاد
جميعها يقل ، وفي عام 1907 وحد صفر وباش حانبة جهودهما ، وأنشأ حزبا
هو حزب « تونس الفتاة » ، وكان معظم أعضائه بعيدين عن الثقافة العربية
الإسلامية ، بسبب أنهم كانوا قد تلقوا تعليمهم في فرنسا ، وكانوا يؤيدون
فكرة ضرورة اعتناق شعب البلاد للحضارة الغربية ، وتحريرها من
« الذهول العقلي » ، وتطويرها على أساس النظام الغربي في الثقافة والتعليم.

وفي هذه الفترة الاولى من العمل الإصلاحي الثقافي الإيجابي لعب المثقفون دورا هاما في الحياة الاجتماعية التونسية، وكان الناتج النهائي لهذا الدور هو اعداد الأرض للنضال الوطني التحرري في المستقبل، لكن هذه الفترة لم تقدم شيئا من الإنتاج الأدبي الملحوظ، وإذا كانت قد أثارت في مصر وسوريا اهتماما ايجابيا بماضي العرب، ساعد على ميلاد فن جديد هو فن الرواية التاريخية، فانهما في تونس لم تحدث شيئا مشابها.

والذي حدث في تونس هو أن الكتاب الاجتماعيين والسياسيين هم الذين نشطوا في الغالب، فتضاعف عدد المجلات والجرائد، ونشطت الأبحاث والمناظرات الحيوية الكثيرة الحركة على صفحات صحف أنصار الاتجاهات المختلفة، مما أدى الى وفرة كبيرة في مجموعة موضوعات المقالات، كما أدى الى تحول في شكل الأساليب القديمة، وتقريب لغة الصحافة من لغة الحديث اليومي. وفي بداية القرن العشرين وجدت كذلك أولى الدلائل المميزة والملاحظة في تجديد الشعر التونسي.

فبجانب الشعر الممثل لهذه الفنون العربية الكلاسيكية، كالمدمح والهجاء والاخوانيات بأسلوب القصيدة التقليدي من جهة، والممثل من جهة أخرى لشعر الحيل الشكلية في أسلوب عصر التدهور — بدأ يظهر في تونس إنتاج جديد في الشكل بمحاولة المؤلفين الذين يمكن أن نعتبرهم مجرد طلائع للإبداع المقبل للشعراء المجددين الذين أثروا الشعر التونسي فيما بعد بالمضامين الجديدة.

ومن هذا الإنتاج الطليعي شعر أحد الشعراء التونسيين الكبار وهو محمد الشاذلي خزندار، الذي اشتهر عام 1910 بأنه « أمير الشعراء » التقليدي الراسخ العقيدة، الذي كتب بأسلوب المؤلفين العرب في القرون الوسطى، وقد حاول خزندار أن يبعث بشعره الحماسي في العرب روح النضال من أجل احياء الثقافة، وإيقاظ الأمة للتحرر من المستعمرين.

وبازاء اعجابه بالقيم الروحية للعالم الإسلامي رأى خزندار أن الطريق الى التقدم هو احياء تقاليد الإسلام الصحيح، والاستمساك بأسلوب حياة الأنصار المتحمسين للرسول محمد، وهم الخلفاء الراشدون.

والى جانب ذلك بدأت تظهر على صفحات الصحف التونسية مقالات، كان من أولها مقال عبد العزيز المسعودي عن « الشعر والتقدم »، الذي نشر عام 1903، حيث حاول الشعراء أن يطرحوا مشاكل رسالة الشعر، ومحاولات حلها، وتحديد دور الشعر، وامكانية تطوير النظام التقليدي للقصيدة، والانصراف عن الفنون المعتادة، كالهجاء والمديح.

ولقد عارضوا الشعر القديم كوعاء للمعلومات اللغوية، ونماذج كاملة من فنون البلاغة، ومجموعة من معلومات العرب التقليدية عن العالم — عارضوه بشعر عاطفي معاصر، وعبروا عن كل انطلاقات النفس البشرية بمحاولة اختيار شكل الشعر الحر. (21)

وابتعادا عن المحاولات الشكلية، واللعب بالتخميس والتشطير —
وجد هذا الشعر نفسه قادرا على أن يتفطن الى كل ما يقع في العالم
المعاصر، وعلى أن يحقق مطالب الحياة الواقعية، وعلى تجميل
صورة الحياة، وعلى الدعوة الى النهضة الاجتماعية، والى النضال في
سبيلها — وهذه هي رسالته الأساسية.

ومع أن موقف أنصار هذا الاتجاه أصبح يتأكد يوما بعد يوم،
ويتوطد أكثر فأكثر، فإن وجهة نظرهم أثارت أكثر من مرة ذلك
النقد الإيجابي لأنصار القديم، وهكذا ظهر على سبيل المثال في
جريدة « المنير » عام 1920 مقال أبي تميم، الذي أوضح فيه
المؤلف أن جميع المفاهيم التي تدرج تحت عنوان « الشعر المعاصر »
اليوم شيء سيء، ولكي نصدر عليه حكما نهائيا علينا أن نشكل
شيئا أشبه بمحكمة شعرية، بأن نعقد مؤتمرا في مدينة القيروان، وهي
العاصمة القديمة لإفريقية منذ القرن السابع، والمعروفة بشعرائها.
وعلمائها، والتي لعبت في القرن العشرين دور المركز للثقافة التقليدية.

ولقد استمر الجدل بين أنصار التجديد الأدبي والمعجبين بالاتجاه
التقليدي سنوات طويلة لاصدار حكم لا دليل عليه، مبني على أساس
سليم لنقد الشعر الجديد، ولم تكن نظراتهم البعيدة تقابل بتأييد
إيجابي حتى لدى الشعراء الذين يسعون الى المحافظة على المقاييس
الشعرية التقليدية، وهكذا.. ففي عام 1919 أيد الشاذلي خزندار أمير
الشعراء موقف أنصار تجديد الشعر في المحاضرة التي خصصها لذلك
في الجامعة الخلدونية عن « حياة الشعر وتطوره »، وقد أكد أن

الشعر هو قبل كل شيء صوت الروح ، ولهذا فان رسالته الأساسية هي تصوير الإنسان وعواطفه وكل ما يشكل حياته.

ونرى لزما علينا أن نشير الى أن الاتجاه الى تجديد أشكال الانتاج الادبي ومضامينه قد أصبح ملحوظا عند بداية العشرينات ، حينما انتشرت في طول البلاد وعرضها أنباء الوقائع الثورية في روسيا ، فأحدثت دوبا هائلا بين الشباب التونسي (22) كما أثرت الانتفاضات المضادة للامبريالية والإرادة الثورية للشعوب في تركيا ومصر تأثيرا حتميا على وعي التونسيين ، وكان الدور الأول لهؤلاء الذين أمضوا سنوات الحرب العالمية الأولى في أوروبا في صفوف الجيش الفرنسي ، او في عداد العمال المهاجرين ، وبهذه الصورة أصبحوا قريبين من الأحداث العالمية. ومع اختلافهم في استيعاب الأحداث الثورية فانهم قد فهموا مع ذلك أن عالم التمثيل المألوف والتكوين التقليدي يحتاج الى تغييرات حاسمة وجذرية.

وبمقارنة العالم الأوربي بالعالم الإسلامي استيقظ الفكر ، ونشط الجزء التقدمي من المجتمع ، واجتذبت الأفكار الجديدة عن نشوء الإنسان في الظروف المعاصرة أمزجة الشباب الرومانتيكي.

الطاهر الحداد

ولقد كان من بين ممثلي الشعر الجديد المتميزين في الأدب التونسي إبان العشرينات والثلاثينات الطاهر الحداد (1899 — 1935) ، وأبو القاسم الشابي (1909 — 1934).

تلقى الطاهر الحداد تعليمه التقليدي في جامعة الزيتونة، وكان من أوائل تجاربه الشعرية بضع قصائد غنائية صوفية.

وفي عام 1920 أصبح عضوا في الحزب الليبرالي الدستوري الذي تم تشكيله في تونس عام 1919، ومن تلك اللحظة وجد نفسه في الأساس من العلاقات بين الأنشطة السياسية والاجتماعية.

والطاهر الحداد من أنصار فكرة الكاتب المصري قاسم أمين الذي نادى بتغيير الوضع الراهن من الناحية الاجتماعية والشرعية للمرأة في المجتمع الإسلامي.

وقد استمر الطاهر الحداد في تطوير آرائه، كما تأثر بأفكار قائد تجديد الإسلام جمال الدين الأفغاني، وذلك في كتابه « امرأتنا في الشريعة والمجتمع ».

كذلك يكتب الطاهر الحداد عن وضع المرأة في البلاد العربية، فلا يجد له تبريرا قانونيا من الشريعة، وإنما هو نتيجة ما تسرب لدى الشعوب المختلفة من عادات وخرافات قومية.

وانطلاقا من هذا يدافع الطاهر الحداد عن حق المرأة المسلمة في التربية المعاصرة وفي التعليم، ولا ينبغي إطلاقا أن يجر ذلك وراءه انهيارا في الأخلاق.

وانتقاضا ضد الوضع المتدهور للمرأة في الأسرة والمجتمع اقتفى الطاهر الحداد أثر قادة الإصلاح في الإسلام، فعارض تعدد الزوجات، كما عارض الحجاب، وأكد أن كل هذه أمور لا تجد تعصيда

من القرآن، ولهذا فليس لها أساس شرعي، وإنما هي تنحدر من العادات الجاهلية القديمة لبعض القبائل العربية.

والتأييد الملموس للطاهر الحداد يتمثل فيما قدمته الحركة النقابية التونسية التي اختلفت عند هذا مع موقف قيادة حزب الدستور الذي كان مشفقا من تزايد التضامن العمالي، فطالب في عام 1925 بحل المنظمة النقابية للعمال التونسيين التي أنشئت في السنة السابقة باسم « الاتحاد العام للعمل التونسي ».

وقد كتب الطاهر الحداد كتابا عن تاريخ منظمة العمال التونسيين، وهو كتاب « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » الذي كان في الحقيقة مخططا فكريا للحركة العمالية في البلاد.

ولقد ظل الطاهر الحداد خريج الزيتونة نصيرا للطريقة التقليدية في التعبير الشعري فيما بعد، لكن مجموعة موضوعاته الشعرية كانت جديدة تماما بالنسبة لهذه الآونة، انه يكتب عن فاقة الشعب ومسغبته، ويدعوه الى الاستمسك بالشجاعة، والمعارضة الحاسمة ضد الاستغلال، كما يكتب عن ضرورة تسليح الشعب بالمعرفة من أجل احراز النصر في نضاله.

أبو القاسم الشابي

والخواص الجديدة تماما هي التي ميزت ابداع مؤلف نابغة آخر في هذه السنوات يعد أكبر الشعراء التونسيين في القرن العشرين، وهو أبو القاسم الشابي الذي عاش حياة قصيرة جدا.

ولد الشابي في قرية توزر في جنوبي تونس، وتلقى تعليمه في المدرسة الابتدائية الإسلامية وأتم تعليمه المتزلي، وكان والد الشابي قاضيا، تلقى تعليمه الديني في أكبر جامعة إسلامية عربية، هي جامعة الأزهر، وفي السنوات المبكرة من حياة ابنه لقنه الأسس التقليدية لنظام العلوم الإسلامية، وقواعد اللغة العربية، والبلاغة، والأدب، والفلسفة.

ولم يكن الشابي يعرف أية لغة أوروبية، لكنه أبدى اهتماما كبيرا بالأدب الأوربي، وحاول بكل إمكانياته أن يتعرف عليه عن طريق مترجماته، وقد اجتذب انتباهه بشكل خاص ابداع الرومانتيكيين الفرنسيين، من أمثال ألفريد دي موسيه، وألفونس دي لا مرتين، وألفريد دي فينيه، وكذلك تيوفيل جوتييه.

وفي عام 1921 - وهي السنة الثانية عشرة من عمره - أصبح الشابي طالبا في جامعة الزيتونة، وفي عام 1925 كتب أول أشعاره في الهجاء، وهو هجاء لاذع لنظام التعليم الجامعي، والقواعد، ومعلمي القواعد المدرسين القادرين على أن يغرقوا معاني الأفكار في بحر من الجدل اللفظي الذي لا ينتهي.

ومنذ عام 1926 بدأت أشعار الشابي تظهر على صفحات جريدة « النهضة »، ومنذ ذلك الوقت نشطت أعماله الاجتماعية، فقد كان يرأس طلاب الزيتونة المطالبين بتحسين طرق التعليم، والمشاركين في إنشاء نادي الأدب التونسي، وكذلك منظمة الشباب المسماة « الشباب الإسلامي » التي كانت في ذلك الوقت واحدة من أنشط منظمات الشباب في تونس. (23)

وقد حاول الشابي أن يتم تعليمه الذي تلقاه في الزيتونة، فالتحق عام 1928 بمدرسة الحقوق التونسية التي انتهى منها عام 1930.

وفي عام 1927 ألقى محاضرة في جامعة الزيتونة عن « الخيال الشعري عند العرب »، وفي عام 1929 أصدرها في كتاب، حيث أعلن مبادئه في فهم الشعر، وتحرير الإبداع الشعري، ورفض حتمية مقاييس الشعر العربي التقليدي، ونادى باستيعاب الأشكال الجديدة، وتوسيع دائرة موضوعات الشعر العربي، وقد دوت أصداء هذه المحاضرة باعتبارها دعوة حارة الى تجديد الأدب الذي ينبغي أن يعبر عن جميع الأشكال المتنوعة، ومصاعب الحياة المعاصرة، وأن يمنح الإنسان المعاصر مكانته الأساسية. (24)

ويشير الشابي الخبير بالأدب العربي الكلاسيكي في هذه المحاضرة — التي يمكن أن نعتبرها بكل الحق منشورا ابداعيا — يشير فيها الى التباين بين مقاييس الشعر العربي ومقاييس المؤلفين الأوروبيين، فالشعر العربي الكلاسيكي هو « معرفة » تقف بازاء « عاطفية » الشعر الرومانتيكي، والحدق في إبداع التعبير المجازي، والقواعد المصورة للكلاسيكية الوطنية، والتفنن في تغيير الموضوع التقليدي، أي الخيال الفني المستقل، هو « الخيال الشعري »، خاصة وأنه في رأي الشابي الموهوب قادر على بعث العالم الداخلي للإنسان، وهذا هو أسمى رسالات الشعر.

واعترضوا على التحديد والجمود وثبات دائرة موضوع الأدب العربي التقليدي انتقض الشابي من أجل إتاحة الفرصة لابداع أكثر

اتساعا في شعر الحياة الواقعية ، مثله مثل إدراك الإنسان لعلاقاته بالعالم المحيط به ، ومن الممكن أن يجيب الشعر هذه المطالب بالمساعدة على ترسيخ المثل الجديدة.

فالمهام الجديدة تتطلب أشكالا أكثر كمالات للتعبير ، ولذا فانه من الضروري التخلي عن التبعث بالرقى والتعاويد وعن الاحتفاظ بالألفاظ والرواشم التقليدية للتعبير بها عن الوسائل والحدود الشعرية القديمة.

وكلاسيكية الأدب العالمي قادرة على أن تمنح كل شعر تنوعا ضخما في الشكل والموضوع ، وفي الوقت الراهن ، حين يستمر احتكاك الثقافة العربية القومية على الدوام بثقافة الشعوب الأوربية فان من العسير أن يظل الأدب العربي في عزله.

وفهم التأثير الإبداعي للرومانتيكية الأوربية على تحول الإنسان الى عالمة الداخلي يساعد على الاقتراب من تصوير مشاعره بأكبر قدر ممكن من التنوع والحركة ، بأكثر مما تتصور هذه القواعد التقليدية ، وعلى تعميق المضمون التأثري للشعر العربي.

ومع ذلك فان الشباب لم يدع الشعراء العرب الى التخلي اطلاقا عن التراث الكلاسيكي.

فاختصار الإنتاج الضخم الذي خلفه لنا الماضي وتهذيبه أمر جدير بالاعتبار ، أما التقليد فانه لم يعد يسعف الشاعر المعاصر ، بالإضافة الى أن الظروف الجديدة للحياة أصبحت تتطلب علاقات جديدة بالشعر ، وعلى الفنان أن يصور ما يرى ويحس بنفسه وقد تحرر من التقليد الأعمى — للنموذج.

و «الخيال الشعري عند العرب» ليس هو البحث النقدي الوحيد للشابي، فقد طور أصول منهجه الجمالي في بعض مقالاته، مثل : «شعرنا وشعراؤنا»، و «الشعر : ماذا يجب أن نفهم منه ؟ وما هو مقياسه الصحيح ؟»، و «الأدب العربي في عصرنا».

وأخيرا.. انتهت حياة الشابي وهو في الخامسة والعشرين من العمر لكن إبداعه كان غزيرا ومنوعا، ومن بين الأشعار المبكرة للشابي تلك التي تمثل اللون الآخر من إنتاجه، وهي المجموعة التي تضمنها ديوانه «أغاني الحياة»، الذي نشر قبيل اعلان استقلال البلاد، عام 1955، وأكثر أشعار هذا الديوان مخصص للحديث عن تونس وطبيعتها، كقصائد «تونس الجميلة»، و «من أغاني الرعاة»، و «تحت الغصون».

ومنذ البداية أثار الشابي في إبداعه موضوع رسالة الشعر في مثل قصيدته «شعري»، ومكانة الشعر من الحياة في قصيدته «الحياة»، لكن الشابي حينما فقد والده الحبيب فيما بعد وجد نفسه مرغما على مغادرة تونس بسبب التدهور الحاد الذي انتاب حالته الصحية، وحينئذ أخذت تسود شعره نغمات الحزن والكآبة والجزع، فهو يقول في قصيدته «شجون» : (25)

هذه صورة الحياة وهذا لونها في الوجود من أمس أمس
صورة للشقاء دامعة الطرف واسون يسود في كل طرس
في ظلام الكهوف أشباح شؤم وبهذا القضاء أطياف نحس

وشجونه الخاصة يصحبها وعيه بفواجع بلاده، حيث يحرم الإنسان فيها من أساس حياته، وهو الحرية، فهو يقول في نفس القصيدة :

عجبا لي، أود أن أفهم الكون، ونفسي لم تستطع فهم نفسي
لم أفد من حقائق الكون إلا أنني في الوجود مرتاد رمس

... ..

وخلاله القصور أنات حزن وبذلك الأكواخ أنضاء بؤس
والقضاء الأصم يعتسف النسا س، ويقضي ما بين سيف وترس
وهذه الأنغام الرشيقة الأنيقة تتردد في ابداع الشابي بصورة قوية
والى حد كبير، لكنها كثيرا ما تتغير في موضوع تأكيد الحياة،
حيث يقول من قصيدة « الاعتراف » :

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي ومشاعري عمياء بالأحزان
أنني سأظماً للحياة وأحتسي من نهرها المتوهج النشوان
وأعود للدنيا بقلب خافق للحب والأفراح والألحان

وفي الأسلوب الإبداعي للشابي نحس في وضوح بتأثير الرومانسية
الأوربية، وفهم الواقع في عالم سلبي مظلم، والسعي الى التحرر،
والجمال كفكر أسمى، وتشخيص قوى الطبيعة، والاعجاب بالشعر،
حيث يوجد صدى لانفعال الشاعر، وبكل هذا كانت تجيش أعماقه
بالشعر الغنائي العاطفي.

لقد فتح مجالا جديدا في محيط الشعر العربي للمشاعر والأشواق
الحيوية، وحاول أن يوجه خيالاته الإبداعية بكل قواها نحو تصوير
العالم الداخلي للإنسان في علاقاته مع قوة التأثير المضادة والحياة

المنعمة بالظلم والشرور ويلوم الشابي مواطنيه غير المبالين على
حصولهم وسلبيتهم، فهؤلاء هم — في نظره — « أبناء الشيطان » :

وشقي طاف المدينة يستجدي ليحيا، فخبوه احتقارا
أيقظوا فيه نزعة الشر، فانقض على الناس فاتكبا جبارا
يبنر الرعب في القلوب، ويلكي — حيثما حل — في الجوانح نارا

ولإذن فعلينا أن نقوض هذا العالم الظالم البغيض المليء
بالدسائس والوصولية والبؤس والتعاسة التي يصورها في قصيدته
« الدنيا الميتة » :

لا قلب يفتح الحياة، ولا حجي يسمو سمو الطائر الجواب
بل في التراب الميت، في حزن الثرى تنمو مشاعرهم مع الأعشاب
وتموت خاملة كزهرة بئس ينمو ويذبل في ظلام الغاب

كما يجب أن نمحو من مجموعة صور الحياة المقبلة الجديدة
كل ما يكبل قوى الشعب، ويرغمه على أن يكابد، ويتعرض للموت،
فهو يقول في قصيدة « النبيء المجهول » :

أيها الشعب ليتني كنت خطابا، فأهوي على الجدوع بنأسي
ليتني كنت كالسيول اذا سالت تهدد القبور رمسا برمس
ليتني كنت كالرياح فأطوي كل ما يخفق الزهور بنحس
ليتني كنت كالشتاء أغشى كل ما أذبل الخريف بقرسي
ليت لي قوة العواصف يا شعبي فألقي إليك ثورة نفسي

ولا يقل عن ذلك قوة ما يدوي في إبداع الشابي من إيمان بمستقبل الحرية المقدسة، حين يقول في مطلع قصيدته « إرادة الحياة » :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

ومن تفاؤله بذلك المستقبل العظيم والمجيد الذي يستشف فجره من وراء الغيب يصور ذلك في قصيدة « تونس الجميلة » :

ان ذا عصر ظلمة ، غير أني من وراء الظلام شمت صباحه
ضيع الدهر مجد شعبي، ولكن سترد الحياة يوما وشاحه

غير أنه قادر على أن يحرز انتصارا على الشر، هذا الانتصار الذي أعد له العدة بأفكاره التقدمية التي يتصدى بها للواقع، ويتمثل ذلك في أبياته الثلاثة التي جعل عنوانها « سر مع الدهر » :

سر مع الدهر، لا تصدنك الأهوال أو تفزعك الأحداث
سر مع الدهر، كيفما شئت الدنيا ، ولا يخدعنك النفاث
فالذي يهرب الحياة شقي سخرت من مصيره الأحداث

وموضوع التمرد ضد الظلم والاضطهاد يحظى منه بتعبير أكثر وضوحا في إحدى قصائده الرائعة، وهي قصيدة « الى طغاة العالم » :

ألا أيها الظالم المستبد حبيب الظلام عدو الحياة
سخرت بأنات شعب ضعيف، وكفك مخضوبة من دماه
وسرت تشوه سحر الوجود، وتبذر شوك الأسى في رباه

تأمل هنالك أنني حصدت رؤوس الورد وزهور الأمل
ورويت بالدم قلب التراب وأشربته الدمع حتى ثمل
سيجرفك السيل ، سيل الدماء ، ويأكلك العاصف المشتعل

وقد أبعد الشابي وراء النطاق كثيرا من الرومانتيكية العربية
الخاصة بتصوير السعادة ، مثل العالم المثالي المجرد لتحرير الروح ،
والسعي الى التحرر من الطغيان والاضطهاد ، وهذا ما حدد من
درجة الحماس العالي لابداعه الوطني الأصيل .

وهكذا.. أصبحنا نستطيع ابتداء من الشابي أن نتحدث عن
شيء اسمه التجديد الأصيل في الشعر التونسي.

يعزز ذلك أن الشابي لم يكن مبدعا في الجانب الفكري فحسب ،
بل كذلك في مجموعة موضوعات أشعاره ، فقد حاول التجديد
الكامل في شكل الشعر ومفردات لغته .

وبفضل الشابي وأنصاره تمت تحولات أصيلة في الاستعارات
والصور في الشعر العربي .

والخصيصة الأخرى التي تميز بها أنه — وهو مثال لشاعر الحب
الغنائي — أبطل معالجته عن طريق الرواشم الاصطلاحية التقليدية
لأشكال الشعر التي كانت محببة من قبل ، ولهذا تبدد على يديه
نظام القصيدة العربية ، وثلاشت القافية الواحدة والبحر الواحد. (26)

وأشعار الشابي تتباين فيما بينها تبائنا كبيرا من ناحية اللحن
والموسيقى ، وبعضه يتردد كما يتردد الحديث اليومي غير المتكلف .

والبيت الشعري التعبيري الموجز هو في العادة وحدة كاملة منطقيا، مجازاته غنية بالمتراذفات والاستعارات الجريئة، موجهة في النهاية الى القارىء بألفاظ وتراكيب تحمل اليه الشحنات الفكرية الأساسية، وكان كل هذا مما عزز الصبغة العاطفية لأشعار الشابي، وقوى من تأثيرها على القارىء.

ولم يصدر ديوان الشابي الا عام 1955 فحسب، لكننا - الى جانب أشعاره - التقينا في ابان حياته بعدد غير قليل من أعماله. وبالإضافة الى أشعاره وجدنا شهرته تتسع لا في تونس وحدها، ولكن كذلك في خارج البلاد، ففي الثلاثينات كانت مجلة أبوللو المصرية - على سبيل المثال - تنشر أشعارا للشابي في كل عدد من أعدادها تقريرا، ولهذا ذاعت شهرة هذا الشاعر التونسي في جميع أقطار الشرق العربي بين كتاب بلدانه وشعرائها، فأصبح ذا شهرة منقطعة النظير.

كذلك أوجدت له طريقته الإبداعية كثيرا من الأنصار والحوارين، قاموا في مواجهة الشعر التقليدي، سواء في تونس أو في غيرها من أكثر البلدان العربية، مثل شوقي بغدادى في سوريا، ومعروف الرصافي وبحر العلوم في العراق. (27) وكمال نشأت في مصر، واسماعيل حسن في السودان، وكثيرين غير هؤلاء وأولئك.

بعد الشابي

بعد الشابي بدأ الشعر التونسي يتطور بطريق آخر تماما، فقد ثارت أمام مؤلفيه بالطريقة الجديدة قضية رسالة الشعر، والهدف من

ابداعه ، فأخذ بعضهم يستلهم لكل موقف معاصر حالة مشابهة له من ماضي الشعر البعيد، الذي يرجع الى أيام جاهلية العرب ، يوم كانوا ينسبون دور الشاعر الى المنبر السياسي الذي ينتمي إليه .

هكذا فهم رسالة الشعر في المجتمع المعاصر واحد من ممثلي الحزب الدستوري بالذات ، وهو محمد محيي الدين . (28)

والواقع أن حركة التجديد في الشعر في تلك الاونة لم تكن تنفصم عن الحركة الاجتماعية ، ونضال القوى التقدمية في المجتمع التونسي ضد الجمود والخمول ، وكل ما كان يحرك البلاد لكي تخلص نفسها من التخلف والاضطهاد.

النثر الفني

وربما لهذا السبب يبدو النثر الفني أقل إنتاجا من الفنون الأخرى ، حيث تندمج مهمة الكتابة السياسية والكتابة الاجتماعية والأدب معا ، وقد أمكن استخدام هذا النموذج الأخير في الكتاب السياسي الذي ألفه واحد من قادة الحركة الوطنية التونسية ، هو عبد العزيز الثعالبي (1874 — 1944) ، وذلك هو كتاب « تونس الشهيدة » الصادر عام 1919 ، والذي نشر في باريس غفلا من التوقيع ، قد استطاع به الثعالبي أن يضع أمام مؤتمر باريس الدولي قضية إعادة دستور 1881 الى تونس ، ثم نشر في تونس بطريقة سرية . (29)

ولقد أحرز هذا الكتاب شهرة ضخمة ، نتيجة نشر مقتطفات منه في الجرائد التونسية ، وحتى تلك اللحظة لم يكن الثعالبي معروفا

الا باعتباره مؤلفا لتلك المقالات التقليدية التي تشيع فيها روح التربية الزيتونية، مثل « حياة سيدنا محمد »، و « روح القرآن » (30)

أما كتاب « تونس الشهيدة » فهو إنتاج مخطط تماما، وهو على غير العادة، تتضح فيه قوة الإقناع، والحدة الجدلية، وهو يفضح كل أوزار النظام الفظيع للاضطهاد الاستعماري، ويفصل برنامج عمل دقيقا قادرا على أن يسير بالبلاد الى التحرر الوطني، والبرنامج الذي صدر بعد ذلك بوقت قصير، وهو برنامج الحزب الدستوري، انما كان صورة طبق الأصل للمطالب الواردة في هذا الكتاب، والتي التزم الحزب بتأييدها وتقديمها للبلاد. (31)

على الدوعاجي

والواقع أنه لم يظهر في تونس على امتداد الربع الأول من القرن العشرين إنتاج على جانب كبير من الأهمية في مجال النشر الفني. اذ لم يبدأ التونسيون في التعرف على هذا اللون من الإنتاج الا في بداية الثلاثينات، حينما ظهرت القصص الأولى لعلي الدوعاجي (1903 - 1948). (32)

بدأ علي الدوعاجي حياته الخاصة بالعمل التجاري، ثم أخذ في تثقيف نفسه، ثم اشتغل بالصحافة.

والنشاط الإبداعي الكبير لعلي الدوعاجي يتجلى إبان عمله بالإذاعة التونسية، اذ كان يعد البرامج الإذاعية وخلال ذلك كتب

أكثر من خمسمائة قصيدة وأغنية للأطفال، وعددا هذا ألف
خمس عشرة مسرحية. (33)

وكانت المعارف التي تلقاها في المنزل وفي المدرسة الابتدائية
باللغة الفرنسية كافية لكي يتعرف على الكثير من إنتاج الأدبيين
الأوروبي والأمريكي، فأعجب بمواهب لندن، كما أعجب بعبقريته
همنجواي، وشتاينبك، وكولوديل، مما أثر في أسلوبه الإبداعي
الذي لم يبد فيه عنصر تأثير هؤلاء المؤلفين على إبداعه فحسب،
بل أكثر من ذلك بدا فيه الاقتباس المباشر لمحور العمل الفني.

وقد اعترف الدوعاجي نفسه بذلك حين سمي إحدى مسرحياته
باسم « راعي النجوم » تقليدا لعمل جاك لندن « جَوَّاب يس
النجوم ».

وتتجلى موهبة الدوعاجي الفكاهية في مسرحياته، ففيها سخيرية لاذعة
من القصور البشري، مما أتاح للنقد أن يقارن بين الدوعاجي وبين مولير.

وكان إنتاج الدوعاجي المستقل — أومقتطفات منه — يذاع عن
طريق الإذاعة، أو ينشر في الجرائد، وأحيانا في المجلات، إلا
أن معظم إنتاجه الثري ومسرحياته بقيت مخطوطة، ومن أكثرها
عبقرية — شهادة المعاصرين — « شارع الأقدام المخضبة بالدماء ».

لقد بقيت أغلبية إنتاجه مخطوطة لأنه لم يسمح لنفسه أن يوافق
بهذه الصورة المهينة على شروط الناشرين الذين يعرضون أجوار
زهيدة لنشر مؤلفاته. (34)

ومن شهادات معاصريه على قيمة انتاجه ما يقول الناقد التونسي المعروف محمد فريد غازي : « .. في اليوم الذي تنشر فيه قصص الدوعاجي ورواياته يمكن أن ندرك أنه كان لدينا أقدر مؤلف قصة عرفه العالم العربي في هذه الفترة، وهو قصاص لا يقل عن أحسن كاتب أوربي أو أمريكي ».

وفي عام 1962 صدر كتاب مستقل يحمل أشهر أعمال الدوعاجي، وهو « جولة بين حانات البحر المتوسط »، وبه اكتسب فن المقالة العربية التقليدية عن الرحلات مؤلفا لا « ليروح عن القارئ »، ولا لتصوير الانغماس في السكر والعريضة في المواني فحسب — كما يعلن المؤلف في مقدمته — لكنه كذلك يقدم صورة ساخرة سخرية لاذعة بالأخلاق، ويرز للتونسيين بطريقة النقدية جانبها من جوانب صور الحياة الغربية بصورة واضحة ومدرسة. (35)

محمود المسعدي

أما أكثر أحداث الأدب التونسي أهمية في القرن العشرين فهو ظهور مسرحية « السد » للكاتب المسرحي التونسي محمود المسعدي، التي أصدرها عام 1955، وهي إنتاج ينتمي من حيث الشكل الى الفن الدرامي، لكنها في الحقيقة شبه مسرحية، ومن المشكوك فيه أن تكون مؤلفة للتمثيل على المسرح، بل انها تصوير بطريقة خاصة لأحداث الحياة، أو هي بالأحرى مسرحية فلسفية للقراءة.

ففي الوقت الذي كانت تكتب فيه مسرحية السد كان الأدب العربي المعاصر يجتاز تجربة من نوع مماثل، فالكاتب المسرحي

الكلاسيكي المصري توفيق الحكيم يقف معارضا للرأي الشائع الذي يقول إن المسرحية لا يمكن ان تستخدم بهدف التسلية فحسب، بل يجب أن يكون مثلها مثل أي فن أدبي آخر، يتولى حل المسرحيات الفلسفية الرمزية المطبوعة بالطابع التأملّي الافتراضي بصورة بحثة، مثل «شهرزاد»، و «أهل الكهف»، و «بيجماليون» وغيرها.

وفي الشكل الرمزي يتجسد موضوع النضال بين المتناقضين : بين العقل والقلب، بين الحرية والقدر، بين الفن والحياة.

ومسرحية «السد» للمسعودي في شكلها التعبيري الرمزي تصور كذلك فكرة عدم الجدوى من نضال الإنسان ضد القدر من جهة، ومن جهة أخرى هي شهادة على سمو النضال في سبيل الرأي، والثقة في هدف نضال الفرد حتى تجاه الموت المحتوم.

فالأحداث تتطور في الوادي القاحل، حيث يكابد الشعب من الجفاف الدائم، ومن هنا فإن الذي حدث هو أن لأجنبي غيلان يقرر أن ينتهي الى الاستسلام، وهو شيء عادي بالنسبة لسكان الوادي، وذلك بالاذعان أمام الآلهة القادرين على كل شيء، وأن يبني السد الذي ينقذ الناس من التهديد المستمر بالجوع والرعب أمام غضب الآلهة.

وفي صراع غيلان الفردي مع الطبيعة والالهة احتمل واحدا وراء الآخر من ألوان الاخفاق.

فالعاصفة، والضعيج، وتمرد العمال، كل هذا كان يبدو من الضروري أن ينتفع بتحذيره، وأن يتذكر أن موته سهل، لأنه ضعيف بإزاء سلطان الآلهة، لكن لا شيء يمكن أن يرغم البطل على أن يتخلى عن خطته بأن يتم بناء السد.

ونتقسم الآلهة منه على عدم خضوعه، فتثور الطبيعة، وتدمر السد، أما غيلان وزوجته فيموتان بفعل الزوبعة الخاطفة.

والمرحبة مكتوبة باللغة الأدبية، وذلك باستعمال الوسائل التشبيهية التقليدية، ويفترض أنه يضع في أساس الرسم التخطيطي المحوري أحداثا واقعية من التاريخ العربي، فقد تم تدمير السد في اليمن القديمة، ولا يمكن أن يقال إن تنظيم مسائل نضال الإنسان ضد الشر، وإظهاره بمساندة الوسائل الرمزية - ظاهرة غير معروفة بالنسبة للأدب العربي، إنه يلتقي في إنتاج الكتاب في القرن العشرين.

وبالإضافة الى ذلك فان انشاء الأدب الدرامي الأكبر حجما، والأكثر موضوعات، الذي تجلت فيه ملامح البطل الملحمي كان بالنسبة للأدب التونسي ظاهرة جديدة تماما، وكما ظهر الجديد استعملت الوسائل الأسلوبية التقليدية للنثر العربي كباعث محوري الى ما ليس تقليديا مطلقا، ومعالجة المشاكل المميزة للقرن العشرين فطنة خاصة للانسان المعادي للقوى الجبارة.

ونتيجة لخلط المركبات غير المتشابهة مطلقا لم يظهر انتاج غير عادي فحسب، بل ظهر انتاج عبقرى، حيث يؤدي الإدراك

الفلسفي للصراع بين المثل الأعلى والواقع يؤدي بالمؤلف الى فكرة ضرورة النضال المحتوم ضد الشر حتى يضمن التصحيحة.

وفي النقد التونسي كثيرا ما يقارن السعدي بكامو، ويقال إنه طور في « السد » ذلك الموضوع الذي هو مخصص للطاعون، وصخرة سيزيف، ولكن يبدو أنه ليست هناك أسس كافية بالنسبة لهذه المقارنة، حيث لا يشتمل لدى المسعدي أي تفتن لأحداث معينة في هذه العصور المعينة في هذا الانتاج غير الموجه الى غرض معين لتمررد البطل.

ومن المحتمل بالنسبة لفكرة التشابه بين هذين الإنتاجين أن يؤدي نفس الوضع لدى المسعدي الى موضوع التمرد الخاص ضد خطل الكيان، وضد تهيج قوى البيئة، والسلطة القادرة على كل شيء من الآلهة المنتقمة، وكذلك بعض الصور التقريبية لغيلان، وهي صور متناقضة في الظاهر، ولكن ينبغي أن نلاحظ أن استعمال المؤلف للأدب الخاص بمذهب الوجودية لطوائف العالم غير المعقول الذي ثار على الشخصية - حتى غير المناسبة مع الحقائق المقررة للحياة الاجتماعية - قد وجد في ظروف الواقع الاستعماري، التحديد الاجتماعي، والمغزى السياسي المكشوف.

وفضلا عن السد فإن هناك زاوية أخرى تنسب الى قلم المسعدي، هي رواية « مولد النسيان »، الصادرة عام 1945 (36) وهي عمل متعدد الموضوعات، ذو مغزى فلسفي باطني، يعني المسرح الخيالي والشخصيات الواقعية، وفي بؤرة مأساته الانسان الذي فقد - بموت زوجته - قدرته على الحياة في العالم الراهن.

وحب الزوجة الثانية لا يمكن أن يخلص الطبيب المدين من عذاب النفس.

ومحاولة للخلاص من الذكرى يكرس نفسه لاختراع شراب سحري للنسيان، وحينما يبحث عما يؤدي الى النجاح يتناول الأكسير، فيموت، لأن شيئاً آخر — عدا الموت — لا يمكن أن يساعد الإنسان على أن يهرب من ماضيه. (37)

وبهذه الصورة تكون محاولة الهرب من الواقع تجرداً صناعياً من المشاكل المؤلمة يكشف عن افلاسه.

وفي قصص المسعدي المكتوبة بروح الإكبار القصصية العربية التقليدية في أشكال محورية مختلفة — تتكرر مجموعة الموضوعات التي يبحث فيها الإنسان بطريقة مما عن مثله الأعلى.

وفي محاولة الهروب من الواقع، والسعي الى التحرر من الأعراف والتقاليد المكبلة للحياة المعتادة — لقيت هذه الجهود حظها في العالم المثالي للجمال، وعلى سبيل المثال في الاتحاد مع الطبيعة.

وإبداع المسعدي يشهد له بسعة الاطلاع، والتضلع في مجال الأدب العربي في القرون الوسطى، وفي التاريخ، والفلسفة، كما يشهد له بالبراعة وتملك ناصية اللغة العربية الكلاسيكية، واستيعاب الاتجاهات الغربية المختلفة في الفلسفة والأدب.

وبمجموعة موضوعاته، وبطريقته الإبداعية الخلاقة — يصبح من العسير أن نعثر على كاتب يضارع المسعدي في الأدب التونسي المعاصر.

ففهم إنتاجه الذي يختلف تكوينه بين الاجتماع والافتراضات الفلسفية ليس ميسورا البتة بالنسبة للجميع (38) ولهذا السبب فإن رواياته وقصصه لا تتمتع بقدر كبير من الشهرة، ومع ذلك فباسمه ترتبط واحدة من أهم مراحل التكوين والتطور الإبداعي في الأدب التونسي.

البشير خريف

أما الناصر التونسي الكبير البشير خريف فرجع إبداعه الى الثلاثينات، ويتميز اتجاهه بأنه من أنصار المذهب الواقعي.

أنهى البشير خريف دراسته بجامعة الزيتونة عام 1947، حينما كان عمره ثلاثين عاما.

ونشر أول قصصه عام 1937، ثم أخذ يبدل في اتجاهه خلال عشرين عاما، وخلال عقد من السنوات تداول عشرات المهن، وقبلما يستقر نهائيا على رأي أصبح كاتباً.

ومع انتاج خريف الأول اهتدى الى أسلوبه الذي لم يظفر في بداية الأمر باعتراف نقاد الأدب.

انه يكتب الأدب الغض الفصيح، ولكن بلغة تتسم ببعض الصعوبة، وعباراته الشعبية غزيرة، وهو يفضل أن يدير الحوار بالعامية، ويعتقد أن اللغة الشعبية يمكن بل يجب - أن تخصب الأدب.

وفي عام 1957 نشر البشير خريف في مجلة « الفكر » رواية « الإفلاس »، حيث عرض حياة البورجوازية الصغيرة في تونس، والمثقفين التونسيين في فترة ما بين الحربين العالميتين.

والرواية تحكي قصة حب الشاب سليم البرجي حبا لا ينتهي
للممثلة لطيفة، وهو ممثل نموذجي للمثقف، لكنه لا يملأ مكانه
في حياة شباب العشرينات.

وعلى سبيل المثال يعرض الكاتب من خلال مصير البطل
الرئيسي معالم الإفلاس الأخلاقي لقطاع من المثقفين التونسيين الذين
تلقوا تعليمهم في الزيتونة، وتربوا على روح التصورات العقائدية
والأخلاقية التقليدية التي تبدو في نظرهم ثابتة لا تتزعزع، وفي
اصطدامهم بالحياة الواقعية، وبالناس ذوي الأخلاق الأخرى —
يكون من السهل أن يدمروا كل قوانين الشرف.

والرواية مليئة بصور الحياة اليومية، وهي تعرض بوضوح أخلاق
البيئة المسرحية.

وقد حققت حيوية الموضوع، واللغة الشعبية الحية لهذا الإنتاج.
نجاحا ضخما تفوق حتى على نجاح « السد » للمسعودي.

وفي عام 1960 حصل الكاتب من أجل روايته هذه على جائزة
علي البلهوان الوطنية. (39)

وفي نفس العام — 1960 — أصدر خريف روايته الثانية « برق
الليل »، وأبطالها ينتمون الى القرن السادس عشر، وكان المعتقد منذ
البداية أنها رواية تاريخية، لكن اتضح من تطور الأحداث أن
موضوعها يدور حول حب آثم بين العبد وزوجة سيده، فالعبد
ابن السابعة عشرة، المشتري من سوق الرقيق يقع في غرام زوجة سيده

الكيميائي، وعندما يعلم الزوج الغاضب بلقاءاتهما يسارع الى طرد العبد وطلاق الزوجة، لكنه سرعان ما يقرر أن يسترجع زوجته، لكنه لكي يسترجعها لا بد لها أن تتزوج زوجا آخر حتى تحل له طبقا للشريعة الإسلامية، وحينئذ يلجأ الى طريقة المحلل، بأن يزوجه لشخص ما زواجا صوريا مؤقتا، ولا يجد أنسب من برق الليل ليقوم بدور المحلل، لكن برق الليل يستغل هذه الظروف، فيرفض طلاق الزوجة لتعود الى زوجها الأول وهو سيده.

والرواية تقوم على أساس المعرفة العميقة بالمادة التاريخية للقرن السادس عشر، والواقعية المعاشية الهامة لذلك العصر، والكاتب ذو استعداد طيب كذلك لكتابة رواية السيرة الذاتية.

ونثر البشير خريف مشهور جدا في تونس كما رأينا، وقد ساعد على نجاحه الأسلوب الواقعي في قصصه، ووضوح قضاياها، واستخدام اللغة الشعبية، والنقد التونسي يعتبر البشير خريف كاتباً قومياً أصيلاً.

العروسي المطوي

والى الجيل المبكر من الناثرين التونسيين ينتسب كذلك محمد العروسي المطوي.

ولد المطوي عام 1920، وأكمل دراسته بالزيتونة، ثم في كلية الحقوق بالخلدونية.

وبعد اعلان استقلال البلاد كرس المطوي نفسه للخدمة الدبلوماسية ،
فكان ملحقا ثقافيا بالقاهرة، ثم قائما بأعمال شؤون السفارة
التونسية في جدة و(سفيرا) في بغداد، ومنذ عام 1962 أخذ يشغل
المناصب الحكومية المختلفة في تونس .

ومنذ عام 1966 والمطوي يرأس تحرير مجلة الكتاب المبتدئين
من أعضاء نادي القصة الأدبي، حيث يقدم مساندته الملموسة
للتأثرين التونسيين من الشباب.

وكثيرا ما يأخذ المطوي لنفسه زمام المبادرة في إصدار مجموعات
من أشعار الشعراء الشبان، التي يصدرها لهم بمقدمات تمهيدية. (40)
والى قلم محمد العروسي المطوي تنتمي طائفة من الأعمال التاريخية
والأدبية، مثل كتابه عن العالم اللغوي في القرون الوسطى :
جلال الدين السيوطي الذي عاش في القرن الخامس عشر، والشاعر
الجاهلي امرئ القيس، وبحث في تاريخ الحروب الصليبية.
وشهرة المطوي الكبيرة ترتبط بروايته « حليلة »، الصادرة
عام 1962، والتي من أجلها استحق جائزة المجلس البلدي، وقصة
« التوت المر » الصادرة عام 1967.

وتقوم رواية حليلة على أساس الأحداث الواقعية، وتعكس
النضال ضد انهيار الأخلاق في سنوات الحماية الفرنسية.

وفي بؤرة قصة التوت المر تبدو القوة الشابة الكاملة للفتى عبد
الله الذي اشترك بفاعلية في النضال ضد الإجراءات السرية لانتاج
الحشيش والاتجار فيه، مع أعضاء ممثلي السلطة المرتشين.

وعبد الله هو عاشق عائشة الفتاة المشلولة، ابنة الفلاح الهارب من مطاردة الطليان في ليبيا.

والانفعالات العنيفة هي التي أصابت عائشة بالشلل، لكن اتجاه عبد الله الى الهدف بحماسة الملهب المؤيد بالثقة في الانتصار للخير، والقادر — في رأي المؤلف — على خلق المعجزات والعودة الى مباحج الحياة هو الذي يبريء عائشة الحبيبة المهمة من مرضها المزمن.

رشاد الحمزاوي

ومن شباب الكتاب الذين أثاروا الاهتمام رشاد الحمزاوي الذي ولد عام 1934، وقصته «بودودة مات» الصادرة عام 1962 تحكي عن أطفال القرية الذين قرروا أن يجمعوا النقود من أنفسهم ليفتدوا من السجن صديقهم المسجون بتهمة سرقة رغيف خبز.

ولقد ظفرت هذه القصة بعدد من الجوائز الأدبية.

ويتميز الحمزاوي بعمق الفكرة، واسترجاع ظلال المعاني والأحاسيس المركبة، ويحاول التفتن الى جوهر العلاقات الإنسانية وحب الطبيعة.

وإلى جانب أن القصة رائعة، فانها انعكاس واضح لحياة القرية التونسية.

محمد المرزوقي

وهذا واحد من أشهر كتاب القصة التونسية هو محمد المرزوقي.
ولد المرزوقي في جنوبي تونس عام 1916، وبعد أن تلقى تعليمه
في الكتاب ثم في المدرسة الابتدائية درس في الزيتونة، ثم في
الخلدونية، وبعد انتهائه من مرحلة التعليم الجامعية اشتغل المرزوقي
بالصحافة، وعمل بالإذاعة.

وفي طريق الأدب بدأ المرزوقي بالأعمال النقدية الفلسفية.
ففي عام 1935 أصدر كتابه الأول «آراء المعري وعقيدته».
وفي عام 1936 أصدر كتابه «أشعة الجمال».
وفي عام 1946 أصدر مجموعة أشعاره، وهي في معظمها
ذات طابع رومانتیکی، وقد جعل عنوانها «دموع وعواطف». (41)
ثم أعطى المرزوقي فيما بعد أفضلية خاصة لكتابة القصة.

وفي قصصه الكثيرة العدد، المكتوبة بين عام 1946 وعام 1967،
والمنشورة في أربع مجموعات نجد انعكاسا لمشاكل الحياة
التونسية المعاصرة من وجهاتها الاجتماعية والأخلاقية الكثيرة
التنوع، التي حاول المؤلف أن يعالجها عن طريق إبراز أبطالها في
الصور العديدة والمميزة من الواقع التونسي في مواقف تصادم
الثقافتين الشرقية والغربية، والعالمين التقليدي والجديد، وهما شديدا
التباين، ومن العسير أن يتعايش أحدهما مع الآخر لاختلاف أساليب
تربية الشباب التونسي المعاصر الذي يستهدي في المعاهد التعليمية
بالغرب وفي الأسر الوطنية بالأساليب التقليدية.

وقد أعطى المرزوقي اهتمامه الكبير لجمع التراث الفولكلوري، والبحث في إنتاج الإبداع الشعبي الشفوي، ففي عام 1967 قام بنشر كتاب ضخيم من الفولكلور التونسي بعنوان « الأدب الشعبي في تونس »، وهو نتاج نشاط سنوات عديدة في جمع وتسجيل ومعالجة وبحث الشعر الشعبي المصوغ باللغة الدارجة في الأقاليم الجنوبية من البلاد أساسا.

والإنتاج المعاصر للشعراء الشعبيين باللغة الدارجة مشهور في الأداء الشفوي.

وعمل المرزوقي جدير بالاهتمام الأكثر جدية، ما دام في هذا الإنتاج القومي الحقيقي حتى هذه اللحظة ما يوحي بأحسن التقاليد في شعر الجاهلية الذي هو جدير لا بالحفظ فحسب، ولكنه جدير كذلك بالدعوة لهذا الشعر.

كاتبات تونسيات

وقد اقتحم ميدان النثر التونسي كاتبات، برز من بينهن ناجية ثامر، مؤلفة القصص والمسرحيات، وليلى بن مامي، التي أصدرت عام 1967 مجموعة رائعة من القصص بعنوان «منارة في ألسنة اللهب» (42) والقصص تجمع بصورة مباشرة بين المرأة التي تناضل في سبيل حقوقها في حياتها الخاصة، ومحاولة الانتصار على تحامل الرجل المسلم الذي يعتبر كل ظاهرة لاستقلال ذاتية المرأة وكأنها إهانة له، وإجحاف بعزة رجولته.

الادب باللغة الفرنسية

وفي السنوات العشر الأولى من هذا القرن ظهر الأدب التونسي المكتوب باللغة الفرنسية، وقدم عدیدا من المؤلفين الكبار الذين تميزوا في كل جوانب الإبداع، وشاركوا في علاج المشكلات الاجتماعية الهامة.

ومن أبرز شخصيات هذا الأدب المؤلف الروائي، والكاتب الاجتماعي السياسي، والباحث في أدب شمالي إفريقيا - ألبير ممي، المولود عام 1929، والذي يعيش الآن في فرنسا. (43)

ينحدر ممي من أسرة يمتزج فيها العنصر العبري بالعنصر البربري، من سلالة رحلت الى اقليم تونس في القرون الأولى، وشكلت في البلاد أقلية قومية مثلها مثل البربر. (44)

وممي في رواية سيرته الذاتية المعاشية « تمثال من الملح » الصادرة عام 1953 يقاوم بشدة ضد الجمود واستبداد الأوضاع التقليدية، الا أننا في عمله التالي وهو « اجار » الصادر في عام 1954 - الذي يمكن أن ينسب الى فن الرواية الأسرية السيكلوجية - نجد بطل ممي، المثقف، الذي يتلقى تعليمه العالي في فرنسا، يصبح بطريقة حاسمة في جانب المتخلفين من جهلاء المواطنين المستخفين بالغرب « المتحضر »، ويؤدي به هذا الى الانفصال عن زوجته الفرنسية التي تحتقر أقارب زوجها. (45)

ورواية ممي « وجه المستعمر » التي صدرت عام 1957 تلعب دورا هاما بسبب انتشارها الواسع في بلدان المغرب، وإثارة الأمزجة الثورية هناك. (46)

وفي الستينات أنجزت بإشراف ممي مجموعة من البحوث المتخصصة في أدب شمالي افريقيا.

هكذا بدأ النشر التونسي المعاصر يتشكل في فترة تعاظم الاضطهاد الاستعماري الكبير، وفي ظروف الازمة الاقتصادية والسياسية التي نشبت في فترة الثلاثينات. (47)

لقد كانت بعض الطوائف من مثقفي البلاد في ذلك الوقت تحمل المزاج العدائي في علاقاتها بالأرستقراطية الإقطاعية التونسية والسلطات الاستعمارية.

أما البعض الآخر فلم يكن يرى إمكانية قيام نضال واقعي ضد المستعمرين، بل حاول أن يحتفظ بالنمط التلميذي، إذ كان يخشى مغبة التغيير في صور الحياة المعتادة.

وفي عام 1934 وضعت قيادة التعليم في يد حزب الدستور الجديد، الذي أخذ يبحث عن أنجع الطرق وأمثلة الوسائل للنضال الوطني التحرري. (48)

وأكثر من مرة في هذا الوقت من مرحلة اليقظة تعرضت الحركة التحررية للمطاردة البوليسية، وكان غزو حكومة الجبهة الشعبية للديمقراطيين الأحرار وسيلة للقضاء عليهم، وتنكيلا جماعيا بالجماهير.

لم يعكس الأدب التونسي كل هذا النضال السياسي المعاصف في البلاد، لكن جميع الكتاب تقريبا كانوا فيما بعد شهودا على التزايد المطرد في الوعي القومي، وفي القوى المضادة للاستعمار،

وقد وضع في هذا الشكل أو ذاك من أشكال المسائل محاولة الإنسان الاعتراض والتحرر، وليكن ذلك تحرراً من الاضطرهاد السافر، أو من العرف، والعادات المترسبة التي تتحدد شيئاً ما في هذا النطاق.

ولقد وجد في الأدب باستمرار تجسيد لمشكلة البحث عن نماذج، سواء في الاتفاق، أو في التهذيب الأخلاقي، أو في محاولة تجميل عالم الفكر بالعدالة والسعادة.

وبعد إعلان الاستقلال شغلت المكانة الكبرى في النشر مجموعة الموضوعات الاجتماعية التي كانت تنتج إلى التصوير الواقعي، وكانت كثرة عدد المؤلفات عن حياة الكتاب — فيما يرى الأدباء — علامات حقيقية على تأكيد الطابع القومي للأدباء.

أما صعوبات النشر المستمرة فقد كانت وما زالت تؤثر تأثيراً حتمياً على خصائص الإنتاج وأشكاله، فمعظم الإنتاج مخصص للمجلات الدورية، ومن هنا جاء إثارة الأشكال القصيرة، وعرض بعضها بأسلوب المضابط، وأحياناً يحشر في القصة مضمون رواية كاملة، فتصبح أشبه بموجز لحوار الأوبرا الذي يسجل الأحداث الأساسية.

وكثير من النافرين التونسيين يسرون في طريق إقناع فن الكتابة، فقد يتقدم الكاتب في فنه بالتغلب على الكثير من نواحي القصور كالدهاية، والحماس الكاذب، والاسراف في إبداء العواطف الشديدة الحساسية، والصراحة المكشوفة، والمشاركة الحنون للمحرومين وكذلك بعض المفاهيم السطحية للخصائص القومية.

على أن معظم الكتاب يقيمون حساباتهم على أن ابداع الأدب المتنوع
الأصيل مرتبط حتما بتحسين الطريقة الإبداعية، وتعميق المعارف في
داخل الإطار، سواء أكان إطار الثقافة القومية أم إطار الثقافة العالمية.

أما الشعر التونسي المعاصر — الذي نشط في السنوات العشر الأخيرة
بأسرع مما نشط للنثر — فقد استجاب للتحولات الكبيرة في الحياة
السياسية للبلاد، ولو أنه كان عليه كالعادة أن يؤدي ضريبة الرومانتيكية.

وبالنسبة لمضمون الشعر فيمكن أن نعتبره جديدا تماما، أما
ما يتعلق بالشكل والمقاييس فهنا يمكن أن نلتقي بمعجبين من
مختلف الألوان والاتجاهات الشديدة التباين.

فبازاء المقاييس التقليدية يقوم الشعر الحر وشعر الموشحات.

وفي تونس يعيش كذلك الشعر الشعبي الغزير المادة، القائم على
الإبداع الغنائي، ومن الممكن أن نجد فيه أصدااء لكل أحداث الحياة
السياسية من السجن والنفي الذي تعرض له الزعيم بورقيبة عام 1934،
الى جلاء الجيوش الفرنسية عن البلاد بعد اثنين وثمانين عاما من
الاحتلال.

وفي الآونة الأخيرة أصبح الشعر الشعبي أكثر موضوعات النقد
التونسي أهمية.

بهذه الصورة يتضح أن تكوين الأدب الجديد في تونس وثيق
الارتباط بالإصلاح الجوهري للفنون التقليدية، وقيام فنون جديدة
تستجيب للمطالب الحيوية الملحة وحاجات العصر.

اهم المراجع

اولا : في اللغة الروسية :

- 1 — محمد فريد غازي : مشكلات النثر التونسي المعاصر —
مجموعة الأدب العربي المعاصر، موسكو، 1960.
- 2 — داتلين : شعوب تونس والجزائر والمغرب في نضالها من
أجل الاستقلال، موسكو، 1953.
- 3 — دولينينا : القصة في بلاد المغرب — « أرضنا العزيزة »،
مجموعة قصص لكتاب المغرب وتونس وليبيا، موسكو، 1967.
- 4 — دولينينا : نبذة عن تاريخ الأدب العربي في العصر الحديث،
موسكو، 1968.
- 5 — جيسولين : تاريخ افريقيا المعاصرة، تونس والجزائر
والمغرب من الفتح العربي حتى عام 1830، موسكو، 1961.
- 6 — زافادوفسكي : اللغات العربية الدارجة في المغرب
موسكو، 1962.
- 7 — زافادوفسكي : أدب تونس الى الحرب العالمية الثانية،
مجموعة « أدب وفولكلورشعوب افريقيا »، موسكو، 1970.

- 8 — زافادوفسكي : الأدب التونسي ، « أفريقيا » ، دائرة المعارف ،
مجلد 2 ، موسكو ، 1963 .
- 9 — ايفانوف : تونس المعاصرة ، موسكو ، 1959 .
- 10 — ايفانوف : أزمة الحماية الفرنسية لتونس (1918 — 1939) ،
موسكو ، 1971 .
- 11 — تاريخ أفريقيا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ،
موسكو ، 1967 .
- 12 — كراتشكوفسكي : مصطفى كامل وجولييت آدم ، مجموعة
المقالات ، مجلد 3 ، موسكو — لينينجراد ، 1956 .
- 13 — كريمسكي : تاريخ الأدب العربي الحديث في القرنين التاسع
عشر والعشرين ، موسكو ، 1971 .
- 14 — ليفين : تطور الاتجاهات الأساسية للفكر الاجتماعي والسياسي
في سوريا ومصر ، موسكو ، 1971 .
- 15 — نيكيفورفا : أدب النهضة الاجتماعية ، موسكو ، 1968 .
- 16 — التاريخ الحديث للبلاد العربية (1917 — 1966) ، موسكو ، 1968 .
- 17 — بانتوتشك : الأدب التونسي ، مقالات قصيرة ، موسكو ، 1969 .
- 18 — بروجوجينا : أدب المغرب وتونس ، موسكو ، 1968 .
- 19 — بروجوجينا : الأدب المكتوب باللغة الفرنسية في المغرب
وتونس — رسالة علمية — موسكو ، 1967 .

- 20 — أمين سعيد : ثورة العرب في القرن العشرين ، موسكو ، 1964 .
- 21 — ستيبانوف : أغاني الحياة — مجلة « الأدب الأجنبي » ،
1958 ، عدد 11 .
- 22 — شوستر : ملاحظات على أدب تونس مجلة « نجمة الشرق »
1958 ، عدد 10 .

ثانيا : في اللغة العربية .

- 1 — محمد الفاضل بن عاشور : الحركة الأدبية والفكرية في
تونس ، القاهرة ، 1956 .
- 2 — العامري : تاريخ الأدب العربي في تونس — مجلة « الفكر » ،
1966 ، عدد 4 .
- 3 — أبو القاسم محمد بدري : الشاعران المتشابهان ، الشابي
والتيجاني ، القاهرة ، 1959 .
- 4 — ناجية ثامر : أردنا الحياة ، تونس .
- 5 — ناجية ثامر ؟ : عدالة السماء ، تونس ، 1956 .
- 6 — محمد الجابري : وضع القصيدة في الشعر التونسي المعاصر ،
مجلة « الفكر » ، 1967 ، عدد 5 .
- 7 — محمد الحليوي : الشعر التونسي الحديث ، مجلة « الفكر »
1964 ، عدد 7 .
- 8 — محمد الحليوي : مع الشابي ، تونس ، 1955 .

- 9 — رشاد الحمزاوي : بودودة مات ، تونس ، 1962.
- 10 — الصادق الرزقي : الأغاني التونسية ، تونس ، 1967.
- 11 — أبو القاسم الشابي : أغاني الحياة ، تونس ، 1966.
- 12 — عمر بلخيرية : التأثير في الأدب ، مجلة « الفكر » ، 1967 ، عدد 2.
- 13 — محمد فريد غازي : قضية القصة ، مجلة « الفكر » ، 1959 ، عدد 4.
- 14 — عمر فروخ : شاعران معاصران ، ابراهيم طوقان ، وأبو القاسم الشابي ، بيروت ، 1954.
- 15 — عمر فروخ : الشابي شاعر الحب والحياة ، بيروت ، 1960.
- 16 — نعمات فؤاد : شعب وشاعر ، أبو القاسم الشابي ، القاهرة ، 1958.
- 17 — أبو القاسم كرو : آثار الشابي ، وصداه في الشرق ، بيروت ، 1961.
- 18 — أبو القاسم كرو : كفاح الشابي ، تونس ، 1957.
- 19 — أبو القاسم كرو : خير الدين التونسي ، 1958.
- 20 — أبو القاسم كرو : الطاهر الحداد ، تونس ، 1957.
- 21 — عثمان الكعاك : مصادر أبي القاسم الشابي ، مجلة « الفكر » ، 1957 ، عدد 1.

- 22 — أحمد اللغماني : قلب على شفة، تونس، 1966.
- 23 — محمد المرزوقي : بين زوجتين، تونس، 1957.
- 24 — محمد المرزوقي : الأدب الشعبي في تونس، 1967.
- 25 — محمد المرزوقي : جزاء الخائنة، تونس، 1956.
- 26 — محمد المرزوقي : في سبيل الحرية، تونس، 1956.
- 27 — محمد المرزوقي : عرقوب الخير، تونس، 1956.
- 28 — محمود المسعدي : السد، تونس، 1955.
- 29 — محمد العروسي المطوي : التوت المر، تونس، 1967.
- 30 — مفدي زكريا : تحت ظلال الزيتون، تونس، 1967.
- 31 — فوزي عبد القادر الميلادي : جولة مع أدباء شمال أفريقيا، القاهرة، 1965.
- 32 — حسن نصر : ليالي المطر، تونس، 1968.

ملاحظات وتعليقات

بقلم الاستاذ ابو القاسم محمد كرو

(1) يشير الكاتب الى ما قامت به المدرسة الحربية - التي اسسها المشير احمد باشا باي (1837 - 1855) - من ترجمة كتب اوربية معظمها فى الفنون العسكرية .

(2) طبع بمطبعة الرائد التونسى عام 1868 .

(3) ما يذكره الكاتب عن « توسيع مجال العلوم الطبيعية » غير واضح ، فالمعلوم ان الاصلاح تناول تنظيم الادارة وسلك المدرسين ومناهج التعليم ومراحلها بوجه عام اى ضبطه بنظام قانونى ، ولم يحدث الاصلاح تغييرا عميقا فى اسلوب التعليم ومحتواه ، وذلك بسبب العقلية السائدة على معظم شيوخ الزيتونة .

(4) المعروف ان خير الدين كان يعمل جاهدا على مقاومة التدخل الاوروبى - وخاصة الفرنسى - فى شؤون البلاد ، لذلك حرص على دعم روابط تونس السياسية بالخلافة العثمانية .

(5) لعله يعنى التسلط المباشر على ميزانية الدولة وعلى الاقتصاد التونسى عن طريق اللجنة المالية المعروفة باسم « الكومسيون » بدعوى حماية اموال المقرضين الفرنسيين والاجانب .

(6) يشير الى الامتيازات التى منحها السلطان العثمانى للدول الاوربية المعروفة ، باسم « الامتيازات القنصلية » .

(7) احمى الكاتب ثورة على بن غداهم ، وهى ثورة الكادحين والفلاحين من سكان

الريف والبادية . وما يعنيه بـ « تجار الاراضى » غير واضح ، ولعله يعنى « ملاك الاراضى » من الطبقة البرجوازية « البلدية » أى اعيان العاصمة .

(8) لعله يعنى حركة الشيخ محمد السنوسى ؟ أما البشير صفر فلم يكن من خريجي الزيتونة ولا من أساتذتها ، ولكنه كان أستاذا للتاريخ والجغرافيا فى المدرسة الخلدونية .

(9) الثابت تاريخيا ان محمد عبده قد زار تونس مرتين :
أ - الاولى مدة شهر تقريبا من 6 - 12 - 1884 حتى يوم 4 - 1 - 1885
ب - الثانية من 9 - الى 24/9/1903 . فكيف تسنى للكاتب ان يؤكد ان عبده أقام بتونس « بضع سنوات » ؟
(انظر عن رحلتى عبده الى تونس ، حوليات الجامعة التونسية ، الحلقة الثالثة سنة 1966) .

هذا .. وان مقاومة الاحتلال لم تكن نتيجة زيارة محمد عبده فقد قاوم الشعب الاحتلال بالسلاح فى معظم المدن والجهات . كما عارضه كثير من رجال الدولة .

(10) الصواب ان يقال : « الجمعية الخلدونية » اذ ان هذا هو اسمها الرسمى . كما ان التعليم بها لم يتجاوز المستوى الثانوى . وكانت لها مكتبة تلقى فى قاعاتها المحاضرات المتعددة الاغراض .

(11) فى هذا العرض لبرنامج تعليم الخلدونية خلط بين ما كان بها وما كان بالزيتونة .. فقد تأسس التعليم الخلدونى كنظام مكمل للتعليم الزيتونى ، لذا تركز البرنامج فيه على ثلاث محاور (1) العلوم الصحيحة (2) العلوم الادبية (8) اللغات الاجنبية .

(12) شهادة « البكالوريوس » غير معروفة فى نظام التعليم الفرنسى الذى يقلده التونسيون ، فهى شهادة سائدة فى التعليم الانكليزى او الامريكى . وكانت الخلدونية تقتصر على منح خريجها « دبلوم » يعادل البكالوريا الفرنسية ،

غير ان السلطة الفرنسية لم تعترف بهذه التسوية ، لهذا كان بعض طلبة
الخلدونية يشاركون « بصفة حرة » فى امتحانات الشهادة الفرنسية .

(13) لعله يعنى مشروع « مقاومة الامية ونشر التعليم بين العروش » - اى
القبائل - الذى كونه التونسيون لنشر التعليم الابتدائى بين سكان الريف ،
وبذلك قاوم سياسة الاستعمار التجهيلية للسكان .

(14) صدر اول عدد من الرائد التونسى عام 1861 وهذه الجريدة لم تنقطع عن
الصدور حتى الان .. وهى تسمى اليوم (الرائد الرسمى) وحذا ان يعاد لها
اسمها العريق « الرائد التونسى » اذ انها احدى رائدات الصحافة العربية
فى العالم .

(15) اسس جريدة الحاضرة على بوشوشة عام 1888 . والزهرة عبد الرحمن
الصنابل 1889 ، ومجلة السعادة العظمى (وهى اول مجلة بتونس)
اسسها محمد الحضر حسين 1904 . والحقيقة لصاحبها عثمان بن عسر
عام 1907 . والرشدية اسسها حسين بن عثمان عام 1904 . والتقدم
لصاحبها البشير الفورتى عام 1908 . ومجلة خير الدين لصاحبها محمد
الجعايبى 1906

(16) بالعكس فان ما تم من ترجمة كان لغرض معين ومحدود .. فالعروف تاريخيا
ان اساتذة المدرسة الحربية وطلبتها قد قاموا بترجمة كتب عديدة من اللغات
الفرنسية والتركية والاطالية ، وكان معظمها فى العلوم العسكرية ، وقليل
جدا كان فى التاريخ وغيره مما له صلة بالبرنامج المقرر . لكن هناك
محاولات اخرى بذلها تونسيون فى الصحافة وفى كتيبات مستقلة خلال
القرن الماضى ، كما فعل سليمان الحرائرى .. غير ان هذه المجهودات الفردية
لم تشكل حركة ذات اثر يذكر فى النهضة او فى الثقافة .

(17) غاب عن الكاتب اختلاف الظروف والبيئة بين هذه البلدان .. ففى لبنان كاف
عامل الطائفية محركا للمسيحيين العرب ، وفى مصر كان التشابه واضحا بين
حركة محمد على وحركة احمد باشا پاي ، رغم اختلاف حجم العميل والسكان

في البلدين .. على ان بعض العلماء التونسيين ساهموا بشكل بارز وهام في حركة الترجمة والتأليف والطباعة في مصر مثل محمد بن عمر التونسي ، وكل ذلك خلال النصف الاول من القرن الماضي ، أما النصف الثاني منه فان نهضة مصر الصحفية والادبية وكذلك في مجال الترجمة قد قام معظمها على كاهل المهاجرين اللبنانيين والسوريين .

(18) هنا يعود الكاتب لبيان دور مدرسة باردو في الاربعينات من القرن الماضي ، وهو بذلك ينتقل بين موضوعاته بدون ترتيب تاريخي ، علما بان مدرسة باردو قد اسسها احمد باي عام 1840 .

(19) هذا طبيعي ، فهم الذين تعلموا لغاته وعاشوا في معاهده . وبالنسبة لتونس كان خريجو المدرسة الحربية اولا ، والمدرسة الصادقية ثانيا هم طلائع من التأثيرات ، وهم الذين نقلوا لمواطنيهم - بكل الوسائل - آثار اوربا وعلومها .

(20) الرحلات التونسية في القرن الماضي كثيرة ، وهي بدورها من اهم عوامل التأثير والتأثر بالحضارة الاوربية . وحتى كتاب خير الدين في قسمة الثاني يعتبر من نوع الرحلات . ولحمد السنوسي كتاب عن باريس ومعرضها الدولي لعام 1889 سماه « الاستطلاعات البارسية » ، قارن فيه « بين الحالة الراهنة في باريس وبين حضارة الاسلام » ،

(21) لم نطلع على محاولات هذا الشعر الحر ، وخاصة في الشكل - كما يقول الكاتب - ولعله يريد ان يقول ان شعراء هذه الفترة قد تحرروا من الموضوعات القديمة وعالجوا موضوعات اجتماعية جديدة ، وهو المضمون الجديد الذي تحدث عنه الكاتب في الفقرة الموالية .

(22) لم نفهم كيف أثرت الثورة في روسيا على تجديد الادب في تونس ؟ وكذلك انتشار احداثها في طول البلاد وعرضها ، والحال ان الاذاعة لم تكن قد ظهرت بعد في تونس ، والشعب يومئذ لا يعرف معظمه القراءة والكتابة .. فهل قصد الكاتب بهذا الحشو استغلال القراء في بلاده ؟ ! ربما ! !

(23) هي جمعية الشبان المسلمين التي كان الشابي من مؤسسيها (انظر : أبو القاسم الشابي حياته وأدبه لزين لأعابدين السنوسي)

(24) ألقى الشابي محاضراته عن « الخيال الشعري عند العرب » في قاعة المكتبة الخلدونية ، ولكن بإشراف النادي الأدبي التابع لجمعية قداماء الصادقية ، وهو من مؤسسيه ، وذلك يوم 30 شعبان 1347 = 1929/2/10 وطبعت في نفس العام بتقديم ونشر صديقه ز . السنوسي

(25) في طبعة الديوان الثانية ، تونس 1966 ترتيباً للآيات يختلف عما ورد هنا .

(26) ان تجديد الشابي في شكل القصيدة لا يصل الى هذه الدرجة العالية التي يشير إليها الكاتب من القضاء على شكل القصيدة التقليدي قضاء تاماً ؟ ! فمعظم قصائد الشابي على الشكل التقليدي ، وإن كان نجح نجاحاً عظيماً في جعلها تحمل شحنة هائلة من الموسيقى والنغم الأسر ، وفي هذا سر سيطرة شعره على النفوس . وقد تفتن الكاتب الى هذه الظاهرة فتحدث عنها في الفقرة الموالية أثناء تحليله لخصائص شعر الشابي .

(27) نستغرب ان يحشر الكاتب « الرصافي وبحر العلوم » بين الشعراء المتأثرين بالشابي ؟ ! ولا يحتاج نفى ذلك الى أي دليل ، فهو من الواضحات لدى قراء الشعر العربي فضلاً عن دارسيه وتقاده ومؤرخيه ، عرباً وأجانب .

(28) هو محمد محي الدين القليبي من رجال الحزب الدستوري القديم ، توفي بدمشق عام 1954 . وكان من أشد المعارضين لدعاة التجديد ، وخاصة منهم الشابي والظاهر الحداد ، والكاتب يشير هنا الى رأي القليبي في الشعر الذي قدم به محاضرة الشاعر خزنه دار عن الشعر ، والطبوعة بتونس عام 1919 .

(29 و 30) يذكر الكاتب عدة معلومات غير مسلسلة ، ومعظمها مخالف للحقائق التاريخية والمسلمات الأدبية :

أولاً - هو ينتقل للحديث عن الثعالبي في سياق كلامه عن الشعر بعد الشابي ، مع العلم ان الثعالبي ليس شاعراً ، وليس من جيل الأدباء الذين ظهرت

بعد الشابي ، فالكاتب نفسه يذكر ولادة الثعالبي سنة 1874 بينما كانت ولادة الشابي عام 1909 .

ثانيا - الثعالبي من رجال السياسة والصحافة الوطنية والاصلاحية منذ العقد الاخير من القرن الماضي وخاصة مع حركة علي باشا حانية في العقد الاول من هذا القرن ، اى قبل ان يولد الشابي .

ثالثا - الكاتب يخلط بين النشر الفنى وبين نشر الكتابة السياسية والتاريخية اللتين تخصص فيهما الثعالبي منذ بدأ يكتب في الصحف التونسية قبل ميلاد الشابي .

رابعا - الكتب التى ذكرها الكاتب للثعالبي بينها خلط كبير ، وفى معلوماته عنها اخطاء ينبغي تصويبها :

1 - كتاب « تونس الشهيدة » كتب ونشر بالفرنسية ، ومثله كتاب « الروح الحرة فى القرآن » الذى طبع بتونس فى مطلع هذا القرن ، فاعتبارهما ضمن النشر الادبى بتونس بعد الشابي او حتى قبله امر غير مقبول .

2 - الكتاب الذى يسميه الكاتب « سيدنا محمد » ليس هذا اسمه بل عنوانه « معجز محمد » وقد طبع بعد وفاة الشابي ، وفيه نظرة جديدة لحياة الرسول ورسائله ، كما يدعو فيه المؤلف الى احياء وتجديد رسالة الاسلام واشعار المسلمين بانهم كانوا يوما قبة العالم واصحاب حضارة سائدة ، وانهم لذلك يستطيعون ان ينهضوا من جديد .

خامسا - ذكر الكاتب فى نهاية الفقرة 29 ان الثعالبي طالب فى كتابه تونس الشهيدة باعادة دستور 1881 والصواب 1861 ، ولعله خطأ مطبعى فى الاصل ، والحزب الدستورى التونسى ، بشقيه القديم - الذى كان يتزعمه الثعالبي - والجديد - الذى كان يتزعمه بورقيبة منذ تاسيسه عام 1934 - لم يكن يطالب باعادة دستور 1861 بل بنظام ديمقراطى دستورى حر فى دولة مستقلة .

هذا .. وقد قسام الاستاذ سامى الجندى بترجمة كتاب « تونس الشهيدة الى العربية » ونشرته (دار القدس) ببيروت فى 221 ص ط 1 سنة 1975 .

سادسا - يلمح الكاتب الى ان الثعالبي يصدر عن ثقافته الزيتونية فيما يكتبه مستدلا على ذلك بعنوان كتابيه (القرآن) و (محمد) . ويظهر جليا ان الكاتب لم يعرف من الكتابين سوى الاسم ، ولو انه اطلع عليهما فعلا ، لغير رأيه تماما . فالثعالبي كان دائما ، وخاصة في هذين الكتابين ، منحرفا في تفكيره وفي فهمه للقرآن وللإسلام بوجه عام . وقد لاقى اضطادا ومحاربة من رجال الدين والسلفيين الزيتونيين ، كما حوكم ودخل السجن من أجل أفكاره الدينية .

(31) تبدو هنا دقة تحليل الكاتب لكتاب « تونس الشهيدة » مما يدل على انه اطلع عليه ، بعكس تحليله وحديثه عن الكتابيين الآخرين .

(32) ذكر الكاتب أرقام حياة الدوعاجي فاصلحنها واعتبرنا أخطاءها مطبعية .

(33) يبدو ان الكاتب يخلط بين مختلف أنواع الانتاج الادبي للدوعاجي ، فقد كان انتاجه الشعري والاذاعي يمثل هذا العدد (خمسمائة) لا سيما الأجزاء والمسرحيات القصيرة ، وليس هذا العدد (500) كله قصائد وإغاني للأطفال - كما يدعى الكاتب -

(34) لا ندري كيف توصل الكاتب الى ان الدوعاجي رفض شروط « الناشرين المهينة (كذا) والحقوق الزهيدة حتى بقيت آثاره مخطوطة .. فالمعروف ان أحدا لم يعرض على الدوعاجي نشر مؤلفاته ، وذلك لسبب بسيط هو انه لم يكن بتونس في عهد الدوعاجي أى ناشر محترف ! !

(35) تاريخ نشر الكتاب الذى يذكره الكاتب تاريخ صحيح ، ولكنه لا يمثل تاريخ نشر الكتاب لأول مرة .. فقد سبق للمؤلف ان نشره تباعا فى مجلة « العالم الادبي » الصادرة بتونس ابتداء من العدد 13 سنة 4 بتاريخ 1935/9/2 ثم أعادت نشره مجلة « المباحث » التونسية فى الاربعينات ، وكان لى شخصيا شرف جمعه من المجلتين ونشره بواسطة الشركة القومية للنشر والتوزيع سنة 1962 حين كنت مستشارها الثقافى .

(36) نشرت فى هذا التاريخ تباعا بمجلة المباحث التونسية ثم طبعت مستقلة بكتاب عام 1974 .

(37) يمكن ، ان لم يكن مؤكدا ، اعتبار « مولد النسيان » بمثابة الترجمة الذاتية لفترة الية جدا فى حياة المؤلف ، فهى تعبر عن تجربة واقعية حادة ، ومعاناة ذاتية قاسية عرضها صاحبها بشكل مأسوى وفى اطار من الرمز الفلسفى العميق .

(38) لطف حسين رأى مشابه فى هذه الظاهرة العامة فى ادب المسعدى (راجع ما كتبه طه حسين عن السد فى مجلة الفكر س 2 ع 8 ونفس المقال نشره فى كتابه « من ادبنا المعاصر » ، وللمسعدى رد عليه فى نفس العدد من مجلة الفكر .

(39) المعروف ان الجائزة اسندت له عن قصته « برف الليل » سنة 1960 وتم نشر القصة فى العام الموالى 1961 . وليس كما ذكر الكاتب .

(40) لعل الكاتب يعنى تقديم المطوى للمجموعات القصصية التى نشرها نادى القصة .

(41) فى النص « دموع وعواصف » والصواب ما صححناه .

(42) اسم المجموعة الحقيقى « صومعة تحترق » ولعل التحريف حصل اثناء الترجمة الاولى للمروسة والثانية للعربية .

(43) يعتبر هذا الكاتب منسلخا من ذاتيته التونسية ، فهو لم يحتفل ان يعيش فى حى وطن تتولى ادارته حكومة عربية وطنية ! فاستقر بفرنسا مدعيا الكبت والاضطهاد ... فى حين ان روابطه الدينية المتعصبة والخفية وكذلك شعوره بالانتماء للمغوى والثقافى للمفرنسيين - المستعمرين السابقين للبلاد - هو الذى جعله يختار الإقامة معهم !

(44) من الغريب ان يعتبر الكاتب (البربر) اقلية مثل اليهود الذين نزحوا الى تونس وكامل الشمال الافريقى فرارا من الاضطهاد الاوروبى . ونسى الكاتب ان البربر هم سكان البلاد القدماء ، وانهم يمثلون الكثرة الغالبة فى اصول الشعب الافريقى على كامل شمال القارة ، ولئن تعرب معظمهم لغة وكلمهم ديننا وحضارة اسلامية ، فان ذلك لم يجعل منهم اقلية باى معنى كان .

(45) بعد عام 1956 - أى بعد إعلان استقلال تونس - غير الكاتب نظريته وموقفه
فالتحق بأصهاره مستوطننا فى بلادهم الأصلية

(46) ان ما اسنده الكاتب من دور الى رواية ممي هذه ، وخاصة فى اثارة الإمزجة
الثورية ، يبدو لنا بعيدا جدا عن الواقع ، لا فى تونس فحسب بل فى
بلدان المغرب جميعا .

(47) هل يعتبر الكاتب مؤلفات الطائفي المنسلخ (ممي) ، وكذلك الذين كتبوا
مثله بلغة غير لغة الشعب ، من النثر التونسي ؟ ! ان سياق الكاتب فى
النص يوحى بذلك ، وهو ما نراه بعيدا جدا عن النظرة الصحيحة والواقعية .
كما ان ربط تطور النشر بالازمات الاستعمارية والاقتصادية فى سياق حديثه
عن ممي المنسلخ غير صحيح . فالكاتب الذى ينسلخ عن الشعب لغويا ثم
جغرافيا ليس الا وجه آخر من وجوه الاستعمار القديم والحديث .

(48) لم أفهم ما يعنيه الكاتب من هذه الفقرة بقوله « قيادة التعليم ، فالذى وضع
فى يد الحزب هو قيادة الشعب لمتحرر من الاستعمار .

ابو القاسم محمد كرو

(تونس)

البابُ الثاني
الأدب التونسيّ المعاصر
من خلال مطبوعاتِه

الفصل الأول مع الشابي

تمهيد

ان الاهتمام البادى والمستمر فى تونس بالشابي وأدبه يوحى بأن أحدا لم يستطع على مدى ما يقرب من نصف قرن أن يسد الفراغ الذى خلفه الشابي .

كما يوحى من جانب آخر بان تونس التى وهبها الشابي تلك الشهرة الكبيرة تريد أن ترد له الجميل ، فقد اقترن اسم الشابي باسم تونس ، حتى لا تكاد ندرى أيهما الذى عرف بصاحبه .

لقد غنى أبو القاسم الشابي أعذب وأعرق أغاني الحياة ، وأثرى الشعر العربى الحديث بدفقة من الوجدان الصافى الذى تميز به .
وانتشرت أصداً أغانيه فى أرجاء الوطن العربى كله نداءً مجلجلاً بأنغام الحرية والاصرار على الحياة فى أحضان الطبيعة التى تمنح القوة والرفاهية والخلود .

وظل الوطن العربى ، وسيظل حفيداً بأشعار الشابي المخملية التى تبدي من الرقة والنعومة واللمعان بقدر ما تنطوى على قوة الدوى ، ومتانة النسج ، وطرافة العبارة ، والإيحاء المجلجل بقوة الارادة والدعوة الى الحرية ، حتى كأنه لا يستخدم الكلمات ، ولكن الكلمات نفسها تنمو على شباته ، وتترعرع على سنان قلمه ، ويبدو من ألفتها مع جاراتها وكأنها خلية حية تنبض جزئياتها بحرارة الدماء ولا تقبل الانقسام .

شعر كأنه تراويل الملائكة فى الملا الأعلى تتردد فى أسمع
الخالدين ، ومع أن الشابى لم تكن له فلسفة محددة المعالم ، إلا أن
شعره كان صورة للقلق والحيرة ، والتردد ، فهو مشبع برفض الحياة
والإقبال عليها ، وقد كان هذا ولا شك سمة من سمات الشباب
العربى الذى كان يتململ يومئذ فى قيود الرجعية والاستعمار ،
يرفض القيود ، ويتمرد على الأغلال ، ولكن بعزم واهن وساعد كليل ،
تحيط به حكومات مستكينة للدخيل ، ومجتمع غارق فى الخرافات .

ولقد كان يكفى أبا القاسم الشابى فى ذلك الحين أن يرفع علم
الثورة ، ويصر على إرادة الحياة فى جيل لم يعرف معنى الثورة .

هذا ما عرف عن الشابى لدى جماهير قراء العربية فى المشرق
والمغرب ، منذ تردد اسم الشابى على أديم الصحف السيارة فى
الوطن العربى الأكبر .

أما ما لم يعرفه الجمهور الباحثين فهو أن الشابى باحث وناقد
ثورى ، تبدو انتفاضته فى البحث الذى قدمه عن « الخيال الشعرى
عند العرب » انتفاضة صغيرة ، نعم ، ولكنها مليئة بالطاقات
المتفجرة .

وأما ما لم يعرفه الأقل من القليل فهو أنه كاتب رقيق يصطنع
الاسلوب الدرامى فى مقطعاته ولوحاته المنتزعة من الحياة ، وحتى
فى رسائله ويومياته الانيقة المفعمة بالحيوية والصدق والصراحة
والدقة .

وكم كل عملاق فى عصره أخمل الشابى كثيرين من شعراء عصره
فى تونس ، فظهروا بجانبه خافتى الاصوات .

ولم تكن تلك جناية الشابى ، بل كانت جناية التخلف
والاستعمار الذى فصرم عربى الوطن العربى وقتت وحدته ، وجعل منه
شرقا وغربا .

لكن القومية العربية العريقة كانت وما زالت تتحدى الفناء ،
وتتحدى عوامل التفتت ، فلو لم يبرز اسم الشابي في المشرق ،
ويتردد بجانب الصحبة المتواكبة حول مدرسة الديوان وجماعة أبولو
في مصر لما عرف كشاعر طليعي تردد اسمه منذ ذلك اليوم ، وسيظل
يتردد في وعى الاجيال كلما أتيج لها أن تعرف المزيد من جوانب
عبقريته الاصيل .

ولقد كان ذبوع اسم الشابي وأشعاره بين قراء العالم العربي
حافزا للتطلع الى معرفة الكثير عن تونس وأدبائها وشعرائها
ومفكرها ، وبالتالي للتعاطف مع قضاياها الاجتماعية والسياسية
والثقافية ، فلقد جاء وقت كانت تعرف فيه تونس بأنها بلد الشابي
فحسب .

وبقدر ما كان لتونس من صلات ببلدان الشرق ، فانها لم تبرز
كبلد مفعم بالجمال والنضال في سبيل الحرية بقدر ما برزت في شعر
الشابي .

والشيء الجدير بالحمد أن جيل الادباء والنقاد التونسيين
المعاصرين قد آمن بعبقريّة الشابي ، وبحقه عليهم في أن يبشروا
برسائله في العالم العربي كله ، وأن يصنعوا من حياته وشعره جسر
صداقة ، وملتقى حب وتعارف وتعاون بين المشرق والمغرب في تبادل
ثمر لما بين الادب التونسي والآداب العربية المعاصرة من آراء وأفكار
وايجاد الوسيلة للتفاعل بين الجناحين .

وعلى الرغم مما أحس به الشابي في حياته من مرارة الازمة ،
فإن نصيبه من التقدير كان كبيرا ، اذ وجد في ابان انطلاقه الفني
من يأخذ بيده ، حينما تلقفه الشاعر الناقد الكبير الدكتور أحمد
زكي أبو شادي فقدمه الى العالم العربي على صفحات مجلة أبولو ،
فقدم فيه الوجه المضيء لتونس الخضراء .

واعتقد أن حظه اليوم من التقدير أكبر ، بما يقدم له شباب
الادباء في تونس من عناية بحياته وتراثه الذي يجمع وينشر الآن في
أوسع نطاق ، بعناية الهيئات والافراد ، وفي مقدمتهم الاستاذ أبو
القاسم كرو ، الذي كان أول من عرف بالشابى تعريفا علميا في
كتابه « الشابى حياته وشعره » ، و « كفاح الشابى » ، وما زال
يجمع تراثه ويعمل على تحقيقه ونشره ، ويجمع حوله الكتاب والنقاد
ليؤرخوا للشابى ، ويجمعوا إنتاجه ويحققوا تراثه ، حتى أنشأ
مشروعا خاصا بذلك ، وهو اصدار سلسلة من الكتب عن حياة
الشابى وإنتاجه في مختلف أشكاله وألوانه باسم « مكتبة الشابى »

وبفضل هذه الجهود الفردية والجماعية صدرت طبعة جديدة من
ديوان « أغاني الحياة » للشابى ، وصدرت رسائل الشابى ، ومذكرات
الشابى ، ودراسات عن الشابى ، وما زال في الطريق الكثير والكثير
عن الشابى ، للكشف عن جوانب جديدة من حياته ، وعن ألوان
جديدة من إنتاجه ، وفيه الشعر ، والبحث ، والمقال ، والقصة ،
والمرحلية ، والخواطر ، وجميع فنون الادب وأشكاله ، مما ديجت
براعة الشابى الذى لم يعيش فى هذه الحياة الا عمر الورد ، والذى
أنتج فى ربع قرن - هو كل حياته - ما يتجاوز إنتاج العباقرة فى
عديد من القرون فى امتداد أثره وعمقه واتساعه .

وحسبنا هنا أن نحيى ذكرى الشابى شاعر الشعب والحرية
والطبيعة وإرادة الحياة والخلود ، وإن نعيش فى تراثه الانساني
المجيد .

الشابي ... حياته وشعره

تأليف : أبو القاسم محمد كرو

لا يملك مؤرخ الأدب المعاصر أن يغفل عن سجل الشعراء
المخالدين شخصية أبي القاسم الشابي وقرائه.

كما لا يملك وهو يكتب عن الشابي أن يستغني عن المصدر
الغني والأصيل في التعريف الكامل بالشابي وهو كتاب الكاتب
الناقد التونسي أبي القاسم محمد كرو.

والكتاب الذي نعرضه اليوم هو أول كتاب عام مستفيض
كتب عن الشابي، وهو كذلك أول إنتاج لأبي القاسم كرو (1)
ولكنه بحث علمي مكتمل الجوانب يدل على قدم راسخة في
البحث، وليس تجربة كاتب مبتدئ.

ومن المقدمة يتبين لنا منهج الكتاب وهدفه، كما يستبين
الجهود الذي بذله المؤلف ليجيء كتابه مرجعا يطمئن إليه
الباحثون والدارسون في أدب الشابي، فقد أراد أن يعرف
الشابي الى القراء العرب في أقطار الشرق باعتباره علما من
أعلام النهضة في تونس، وشاعرا من زعماء المجددين في
الشعر العربي المعاصر، كما أراد أن يعرض على الناس آلامه
وعذابه وشقاؤه وأساه مجموعة في أول كتاب عن حياة الشابي وأدبه.

(1) طبع لأول مرة في بيروت عام 1952 والكاتب يتحدث عن الطبعة .

ولقد استقى الحقائق من مصادرها الاصلية ، واستخلص المعلومات من البيئة التي عاش فيها الشاعر، ومن كل المنابع ذات الصلات الوثقى بالشاعر وبحياته ، واتصل بمعاصريه ومخالطييه، وكان يبحث في كل كبيرة وصغيرة، ويسأل عن الأشياء القليلة الأهمية والبالغة القيمة، ما دام في معرفتها شيء من العلم والفهم لنواح جديدة من حياة الشابي وأطوار شاعريته.

والحق أن الشابي ظاهرة عربية في الأدب المعاصر، نضج في وقت مبكر من حياته واختطفه الموت في وقت مبكر من الفجر كذلك، وعاش حياة قصيرة ولكنها عميقة كأبطال الأساطير.

وحفاوة المؤلف به تجعلنا نعايشه ونتعاطف معه ونحنو على آلامه.

والكتاب يضم قسمين : القسم الأول وهو الدراسة، والقسم الثاني المختارات وهذه المختارات يصفها المؤلف صنفين : شعر الشابي قبل العشرين، وشعره بعد العشرين، اذ من المعروف أن الشابي قد ولد عام 1909 ، وفارق الحياة في عام 1934، ويرجع تاريخ بعض قصائده الى عام 1923، أي أنه مارس القريض وهو في الرابعة عشرة من عمره، واستمر أحد عشر عاما يفيض عنه الشعر العبقري كما يفيض الماء العذب عن المنابع الطاهرة وعطاؤه يزيد ويضفو حتى آخر أنفاسه.

والقسم المخصص للدراسة يجري في فصول قصار تشكل لمحات عن : -- الحياة الثقافية التي تنبئ بأن القطر التونسي عامر بالحركات الأدبية والثقافية والشخصيات المفكرة في القديم، ومن أبرز مفكريها ابن خلدون وابن منظور، وصاحب زهر الآداب، وفيها الجامعة الزيتونية، وجامعة دار الحكمة بالقيروان.

— أما النهضة الحاضرة فترجع جذورها الى الوزير خير الدين الذي وضع الأسس المتينة لنهضة عربية معاصرة بانشاء المدرسة الصادقية وادخال اللغات الأجنبية، وحتى بعد أن طمس الاستعمار معالمها وارثد بالبلاد الى الوراء، صمدت الطلائع الواعية للكفاح حتى استطاعت أن تسير بتونس في طريق النور والحرية، وكان الشابي أحد المشاعل، وطليعة المناضلين في العقد الثالث وبداية الرابع من هذا القرن حتى تمهقرت الرجعية وبدأت حركة التجديد.

— وعن حياة الشاعر يتحدث عن زمان ومكان ميلاده في الشايبية من ضواحي توزر في اقليم الجريد جنوبي تونس، الغني بمفاتن الطبيعة، وكيف بدأ تعليمه في الكتاب فحفظ القرآن في التاسعة وأخذ والده — وهو خريج الأزهر — يلقنه مبادئ العلوم، وسمح له بقراءة كتب الدين والتصوف والفلسفة، وفي الثانية عشرة يلتحق بالزيتونة في تونس عام 1921، فيتخرج منها عام 1928، وكان انتقاله الى العاصمة نقطة تحول في حياته لأنه وجد فيها الانطلاق والتحرر والنشاط الأدبي، وفيها

قرأ الكثير من إنتاج الأدب المهجري الذي وجهه الى نقد الحياة والثورة على الأوضاع ، كما وجهه الى الصوفية ، والأسلوب الساخر ، الى جانب قراءته في أمهات الأدب العربي القديم ، وفي الشعر المعاصر ، وفيما ترجم من روائع الأدب الأوروبي .

ثم التحق بكلية الحقوق التونسية وتخرج منها عام 1930 ، وكان في كل هذه المراحل يشارك في الحياة الأدبية مشاركة جادة ، ويتزعم الاتجاه الى اصلاح التعليم ، وتأسيس الجمعيات مثل "جمعية الشبان المسلمين" و "النادي الأدبي" .

وقد سببه موت والده صدمة كبيرة غيرت الكثير من حياته ، وكان بداية متاعبه ومسؤولياته ، مما جلب عليه الآلام وأمراض القلب ، حتى انتهت حياته نهاية مؤلمة .

— وفي البيئة الاجتماعية رأى الشابي من حوله مجتمعا مريض الجسد والروح مستسلما للاستعمار والرجعية والتعاسة والبؤس ، وأعلن آراءه بجرأة وحماسة في شعره وفي نشره ، وأخذ يستنهض همم شعبه ، ويحفزه للنضال ، ويضم جوانحه على الألم والمرارة وهو يحطم الحواجز والسدود أمام مجتمع لينطلق ويخلق .

أما عن حياة الشاعر الخاصة فقد تزوج وترك الحياة ومن خلفه طفلان ، ويرجع كتاب سيرته أنه لم يكن موفقا في حياته الزوجية لأن زواجه المبكر كان ارضا لوالده من جهة ، ومن جهة أخرى لأنه لم يجد في زوجته الصورة الشاعرية التي

رسمها في شعره للمرأة، ولهذا اتجه بحبه الى امرأة خيالية (1). وعن مؤلفات الشابي يحدّثنا المؤلف عن ديوانه " أغاني الحياة " وعن كتاب " الخيال الشعري عند العرب " وعن رسائله الأدبية وعن يومياته وقصصه ورواياته النثرية والشعرية، ومنها رواية في المقبرة، وصفحات دامية، وجميل بثينة، ومسرحية السكير، ومن محاضراته ومقالاته، ومعظمها مخطوط لم ينشر.

وإذا انتقلنا مع المؤلف الى القسم الثاني من الكتاب، وهو المختارات التي نشرها من شعر الشابي، والتي كانت أكبر مجموعة من شعره تنشر قبل صدور ديوانه كاملاً، فقد قسمها المؤلف الى مرحلتين : مرحلة ما قبل العشرين، ومرحلة ما بعد العشرين.

ففي المرحلة الأولى يختار عشرين قصيدة ومقطوعة، تمثل العناوين : شعري - تونس الجميلة - زئير العاصفة - الحرب - لعلّ الحق - في الظلام - الزنبقة الذابضة - الدموع - أغنية الأحزان - نظرة في الحياة - مأتم القلب - الأمل والقنوط - شكوى اليتيم - أيها الليل - الملل الأليم - أيها الحب - حيرة - جدول الحب - أنشودة الرعد - يا شعر. أما ما بعد العشرين فقد اختار منها ثلاثين قصيدة ومقطوعة هي :

(1) من رأى الحليوى ان الشابي يتغزل في مثل أعلى للمرأة ، وليس في امرأة معينة ، ورأى مؤلف كتاب الشابي يختلف عنه تماماً .

مناجاة - الايمان بالحياة - الجمال المنشود - يابن أُمي -
الى طغاة العالم - ارادة الحياة - صلوات في هيكَل الحب -
الساحرة - أَلحائي السكرى - تحت الغصون - قلب الشاعر -
الأبد الصغير - قال قلبي للاله - زوبعة في الظلام - قلب
الأم أنا أبكيك للحب - الجنة الضائعة - أغاني التائه -
في ظل وادي الموت - الأشواق التائهة - الرواية الغريبة -
الناس - أمل الشاعر - النبي المجهول - أيتها الحاملة
بين العواصف - في ظلال الغاب - فكرة فنان - من أغاني
الرعاة - نشيد الجبار - الصباح الجديد.

ومع أن المؤلف لم يوضح لنا ملامح كلتا الفترتين، ولم
يستند الى مرجع تاريخي يجعلنا نتأكد من أن هذه القصائد
تنتمي الى هذه الفترة أو تلك (1).. الا أننا نلمح من مجرد عناوين
القصائد أن إنتاج المرحلة الأولى يتسم بسمات الصبا، ويفرق
في رومانتيكية المراهقة، على حين تنجّه مختارات المرحلة
الثانية الى المجتمع ، ومسائل الحياة، والترعة الفلسفية،
وعمق التحليل لعناصر الطبيعة.

وعلى كل حال فهي ثروة من شعر الشابي لم تتجمع من
قبل في وعاء واحد حتى صدور هذا الكتاب.

(1) كان اعتماد المؤلف على الحدس والنقد الادبي وبعض المصادر التي نشرت تلك
الفصائد متفرقة ، وقد أشار الى الفهم الاول الكاتب نفسه ، كما ثبت ان
تقسيم المؤلف كان صحيحا وسليما الا في قصيدة واحدة ، وذلك بعد طبع
ديوان الشابي وعليه تاريخ قصائده .

وينتهي الكتاب بإيراد نماذج من نثر الشابي ، وقد يكون أول تعرف بالشابي الناثر، ومن بين هذه النماذج خواطر، وبحوث قصيرة، ولوحات من الشعر المنثور، مثل : الشعر : ماذا يجب أن نفهم منه ؟ وما هو مقياسه الصحيح ؟ وبقظة الاحساس وأثرها في الفرد والجماعة، وصفحات دامية، وأغنية الألم.

ولكن هكذا ينتهي الكتاب كما ترى، دون تحليل لشعر الشابي، والتعريف بخصائصه الفكرية والفنية، وبيان اتجاهاته، ومواطن التجديد عند الشابي، وعناصر هذا التجديد.

ولكن حسب هذا الكتاب أنه كان بداية للتعريف بالشابي وإضاءة لجوانب شخصيته واستلالها من خضم الظلام والجهالة التي كادت تطمر حياة الشابي ، لولا أبو القاسم كرو وكتابه عن " الشابي ... حياته وشعره " .

كفاح الشابي

تأليف : أبو القاسم محمد كرو

في يقيني أن الاديب — كاتباً أو شاعراً — لا يحسن أداء فكرته ما لم يحسن تجربتها، ويتفاعل معها، ويحيها حياة عميقة نابضة بكل قواه المدركة واللامدركة، والا فهو منمق ألفاظ ليس غير.

وأدينا الباحث أبو القاسم كرو ينبض قلبه نبضات صادقة محتدمة بكل معاني الحياة في كل ما يكتب، وتحس حرارة قلمه تقطر من دمه وأعصابه، وقد قرأت له أخيراً « كفاح الشابي » وأشهد لقد كانت حرارة إيمانه ببطولة الشابي تندمج بكيانه، فتجعله يحيا تجربة الشابي ونضاله الرائد، ويحكى حكايات قلبه الثائر الجبار.

وقد بلغ قمة التوتر وهو يتحدث عن حياة الشعب التونسي النبيل المعدن، الذي زرع في الشابي إيمانه بنفسه وبأمته، فوهبها شبابه وفنه، وفني في أمواجه الهادرة المتأبية على قيود الشواطيء والخلجان.

وكان يحلق الى قمم الشابي مخلفاً عند السفوح أولئك الهازلين من الشعراء الذين كفروا بالشعب، وآمنوا بمصالحهم الضرورية أضعف الإيمان، فأوصدوا قلوبهم دون الشعب الكادح، وانطوا على أنفسهم يغنونها أغنيات متخاذلة خرساء.

لو قلت إن كرو تعصب للشابي حتى رفع صاحبه فوق مستوى الشعراء — بله البشر جميعا — لما عدت الصواب، ولا تثريب عليه إن هو فعل، فشخصية الشابي الماردة في دنيا الأقسام، وحياته الخاطفة التي توشك أن تكون أسطورة وشعر الشابي المعدود في الروائع الإنسانية الخالدة، وآراء الشابي الرائدة من جيله المتخلف — كل ذلك جدير بأن يأسر مؤرخ أدب الشابي فيدعه يتعصب له على غير وعي منه، وتلك خصيصة لا بد أن يصطحبها كتاب التراجم الناجحون ولو ساعة يسجلون حياة أبطالهم، وهي ظاهرة نلمسها في كل ما يكتب كرو عن بطله الشابي الخالد.

ولكي يحدد كاتبنا الموقف مكانة الشابي في ركب الشعر عرض لنا قصة الشعر العربي منذ عرف، مبرزاً عيوبه ومزاياه ومسجلاً ما فيه من وثبات تطورية، ذاكرة لذوي الإحسان أياديهم حتى يبلغ الذروة فيجد الشابي هناك .

ولكي يحدد مكانة الشابي بين رواد الوطنية عرض للبيئة عرضاً خفيفاً تلمح في ظلاله كيف شق البطل طريقه بين صخور الجمود والرجعية والتزمت والاستعمار وكيف دوت آراءه الوطنية الإصلاحية الحرة رغم القمامة والسدود، ولم ينس أن يذكر الذين شذوا أزر الشابي أو سلکوا طريقه وإن تخلفوا عنه مراحل ومراحل، وراح يوازن بينه وبينهم لينتزع له كأس البطولة، ويتوج هامته بأكاليل النصر الساحق المؤزر.

وربما يكون صنيع الشاعر في شعبه غير ذي بال لو أنه كان شعباً متقدماً أو كان الشاعر مسبقاً في هذا الدرب، ولكن الشابي عاش

في عصر متخلف يقتات الرجعية ويرسف في تقاليد بالية ويشهر الدين المفترى عليه سلاحا في وجه كل مصلح، وذلك ما يبرز كفاح الشابي، ويجعله في مصاف رواد الوطنية الكبار، الذين يفتحون مغاليق العقلية البشرية، أو على الأقل يعالجون أفعالها، تارة بالترغيب وإبراز مفاتن الوطن، والدعوة الى تغذية الروح من ينابيعه، وتارة بالحث والدفع الحاني الرقيق، وأحيانا بالندير الصائح المجلجل.

والظاهرة الجديرة بالالتفات أن الشعب ظهر بمعناه الكامل في شعر الشابي في وقت مبكر، وبطريقة تلقائية، يوم كان ينتفض انتفاضة الحرية في بلاد العروبة كلها، وأن الوطنية بمعناها الأمثل لازمت هذه الظاهرة في شعر الشابي، فلقد اندمج في آمال شعبه وآلامه لا ليخدعه ولا ليبكي معه، ولكن مبشرا بالحرية يدفع الشعب نحو فجرها دفعا قويا، وما زالت قولته تتردد على ألسنة صبيان العروبة وكهولها وشبابها وشيوخها في كل مناسبة واعية، حتى باتت أنشودة من أناشيد الثورة، تعتمل في كل صدر وتتغلل في كيان الأحرار، وتضيء حروفها كسطور الإنجيل في قلوب القديسين.

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

ولم تكن الوطنية عند الشابي خديعة يستتر خلف جدرانها، ليكسب مجدا رخيصا، أو يدعي بطولة زائفة، أو يتزعم فئة من الناس، بل

كان شعره ومثاليته على أتم ما يكون من التجاوب حتى جاء شعره في الوطنية أروع مثال للتضحية، وأكثر جرأة وحرارة، وأعمق ثورة مما نرى من وطنية مصنوعة في شعر كثير من أدعياء الوطنية.

وكثيرا ما تعني الوطنية الثائرة في شعر الكثيرين افتعال الثورة والظهور بمظاهر الهمجية التخريبية، ولكن الشابي كان مع الشعب دائما يمسح آلامه، ويحدد آماله، وينضج ثقافته ويغذي حاسته الاجتماعية، يريده شعبا نبلا، متيقظ الفردية متماسك الجماعة.

وما كان على الشابي من حرج لو قنع بأن يكون تونسيا، يتغنى بآلام التونسيين وحدهم، يوقظ أمانهم، ويكابد مشكلاتهم، وهي كبيرة وكثيرة، ليكسب بطولة محلية كغيره من الشعراء الانطوائيين الذين يعيشون في أصدافهم؛ ولكنه غنى كل أمة منكودة، ودفع كل شعب مغلوب، لبحث عن حقيقته، ويغصب حريته من الاستعمار والطغيان غير نادب ولا مؤنب، ولكن في حنو ومرحمة، وزمالة طيبة متعاونة.

هكذا يحدثنا أبو القاسم كرو في حرارة وعمق لإيمان بعبقرية الشابي.

وكان من تمام الايمان بالشابي والانتصاف له أن يرد عنه هجمات الحاقدين وأوهام الجاهلين، وهم كثيرون، وقد فعل ... لقد تنقل بنا المؤلف في حياة الشابي وإنتاجه، فبعد الموازنة المستوعبة، يقفز الى "قمة الشابي" فيعرض لنا صورة رائعة لهذا الملاك المحلق.

وفي الفصلين الأخيرين يتركنا مع الشابي وجهها لوجه، يتحدث إلينا عن عالم الغيب بشعره الرائع وروحته الحنون، ويروينا من نبعه الصافي عن "الوطنية العميقة" ثم يجول بنا في معرض "الطبيعة عند الشابي" وليست الطبيعة عنده زخرفاً ولا زينة، ولكنها وسيلة جذابة للكشف عن جمال الوطن، واستقطاب محبة الشعب حوله، واستمساكه بوطنيته الصادقة.

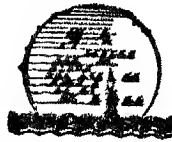
ولم يكتف المؤلف بهذه الجولة في شعر الشابي، ولكنه ترك له قطاعاً من الكتاب يتحدث فيه عن مبادئه وفلسفته تجاه الحياة، ونظراته في الوطنية، ويروي لنا ذكرياته المحببة التي تشيع في جوانبها حرارة الكفاح.

الحق أن الذي يقرأ هذا الكتاب ينتهي من قراءته وهو مجهد مشدود الأعصاب، لأنه لا يستطيع أن يكون قارئاً فحسب بل لابد أن يعيش الصورة التي جلاها المؤلف لحياة الشابي القلقة المتوترة والمتبرمة بالحياة، الساخطة عليها، وهي في نفس الوقت حانية عليها متفائلة بعطائها.

وقد ينقم القارئ على ما كابد الشابي في حياته من آلام الحياة، وأحقاد الناس ولكنه لا يشعر أبداً بالرثاء للشابي أو الإشفاق عليه، لأنه كان بطلاً انتصر على آلام نفسه، وعلى معوقات شعبه وكان عملاقاً من عمالقة الأساطير، وإن اتشح بوشاح التواضع.

ولقد جهد الاستاذ أبو القاسم محمد كرو ان يجعل هذا الكتاب صورة صادقة لشخصية الشابي ونضاله وانتصاراته، حتى تأكدت عبقريته في وعي الجماهير العربية، واصبح على قصر حياته انشودة حلوة على كل اللسان العربية، لقرب شعره من القلوب الفتية الطامحة الى الحرية، ولروعة حياته الرقيقة والملبسة بالكفاح والعبقرية حتى أحمل الكثيرون من معاصريه من شعراء تونس خاصة وبعض الشعراء العرب المعاصرين بوجه عام.

وبهذا الكتاب وبغيره من الكتب اصبح أبو القاسم كرو هو المؤرخ الصادق الأمين لحياة أبي القاسم الشابي (1).



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliothèque Alexandrine

(1) طبع الكتاب لأول مرة في بيروت عام 1954 ونشر المؤلف مقاله عنها في جريدة الصباح التونسية عدد 18 - 11 - 1955 .

رسائل الشابي

جمع : محمد الحليوي

من مظاهر الجدل لدى مؤرخي الشابي المعاشين له أنهم حريصون على حفظ المصادر الأصلية لهذا التاريخ ، وجمعها وإعدادها للتداول ليقوم تاريخه على الأسس العلمية المعتبرة.

ومن حسن حظ تاريخ الأدب المعاصر أن أصدقاء الشابي قد احتفظوا بكل نبضة من نبضات شخصيته حية دافئة حتى اليوم بصورة قل أن نجد لها مثيلا حتى بالنسبة لكبار الأدباء في العالم العربي.

ربما ساعدتهم على هذه الإحاطة قصر حياة الشابي ، وانحصارها في نطاق زمني ومكاني ضيق.

وإذا كانت الحياة قد قست على الشابي قسوتها المنكرة فإن التاريخ المعاصر قد أصبح حفيبا به أبلغ الحفاوة ، بفضل ما يقدمه أصدقاؤه وحواريوه.

ومن حواربي الشابي الذين قاسموه حياته الكاتب الشاعر محمد الحليوي الذي تعرف عليه في وقت مبكر من حياتهما ، ثم جرت بينهما مراسلات اتصلت على مدى خمس سنوات من منتصف عام 1929 الى ما بعد منتصف عام 1934 ، وهي أنحصب فترات حياة الشابي ، التي أصدر فيها كتابه عن "الخيال

الشعري عند العرب“، ونشر فيها معظم أشعاره، وأعد فيها ديوانه للنشر.

وفي كتاب ”رسائل الشابي“ يعرض محمد الحليوي أربعاً وثلاثين رسالة وجهها إليه الشابي، كما يسجل ردوده على هذه الرسائل في أربعين رسالة وجهها هو إلى الشابي، ثم أتبعها بعشرين رسالة كتبها صديق الطرفين محمد عبد الخالق البشروش.

ومع أن هذه الرسائل كما يقول جامعها ”رسائل شخصية“، تتناول مشاعر صديقين يتحدثان بكل حرية في مسائل أدبية، وعن أشخاص مختلفين من الوسط الذي كانا يعيشان فيه، ويتبادلان عواطف ذاتية متباينة، تندرج من المحبة الخالصة والإعجاب المطلق إلى العتاب واللوم والتعنيف... مع أن جامع هذه الرسائل يقول ذلك، فإن هذه الرسائل تتناول قضايا أدبية هامة، ومحاورات حول الأدب والأدباء، وتضيف حقائق ومعلومات عن التيارات والشخصيات في الاطار الفكري والثقافي للعالم العربي عامة، ولتونس ومصر بصفة خاصة.

كما تبدو فيها ظواهر جديدة بالتسجيل :

أولها: أن المتراسلين تعمدان في مرحلة من مراحلها أن يجعلها منها حواراً أدبياً مقصوداً، وشبهها بما كان بين كبار أدباء الغرب، وقدراً لها أن تنشر في يوم من الأيام،

فتحدث نفس الأثر الذي تركته الرسائل المتبادلة بين لامرتين وسانت بيف، خاصة وأن الحليوي كان يلقب الشابي بلقب "لامرتين العرب"، ويجعل نفسه منه بمنزلة سانت بيف، كما ورد في رده على الرسالة السابعة والعشرين.

ثانيتهما: يقترح الشابي في حاشية رسالته الحادية عشرة أن يتخذ موضوعاً أدبياً يصلح محوراً للتراسل، يتجاذب فيها الصديقان أطراف الحديث، ويدور الجدل، حتى تظل الصداقة حية، ويظل غذاؤها روحياً جميلاً.

ثالثتها: طرح الشابي في رسالته الحادية عشرة اقتراحاً بتأسيس مشروع مشترك بين الأصدقاء الثلاثة - الشابي والحليوي والبشروش - للنهوض بالأدب، وبذر نواة الحياة الأدبية في تونس، وذلك بأن يضع كل منهم مبلغاً من المال بأحد البنوك أو مكاتب البريد، وما يتجمع من الأصل والفائدة يكون تحت طلب من يريد من المؤسسين أن يطبع كتاباً، ويعتبر ذلك قرضاً يرد فيما بعد.

ويضاف إلى تلك العمديات والمخططات أن هذه الرسائل كانت مسرحاً تنطرح عليه قراءات الشابي ومشروعاته الأدبية والثقافية، وميلاد بعض أعماله الفنية، وكانت تعرض بطريقة عفوية وتلقائية، ومنها نتيبن جملة من قراءته، وطرفاً من المؤثرات في أدبه، فقد قرأ للعقاد وأعجب به وبكتب "الفصول"، و "المطالعات"، و "ساعات بين الكتب"،

وديسوان « وحي الأربعين »، وقرأ للمازني كتابه " حصاد
الهشيم "، وقرأ لمخائيل نعيمة كتاب " الغربال "، وقرأ
لجبران كتاييه " العواصف "، و" الأجنحة المتكسرة "، وقد
أغرته هذه القراءات بالعودة الى المعري، وابن الرومي، وابن
الفارض، وابن عربي، كما قادتة الى قراءة الأدب الرومانتيكي
المترجم عن زعماء الرومانتيكية في الغرب.

كذلك قرأ جملة من شعر أبي شادي، ونقد الراجعي،
وفصول الزيات، وبعض كتب طه حسين ومقالاته في مجلة
الرسالة، وفصول هيكل في جريدة السياسة الأسبوعية، وبعض
كتب أحمد أمين.

وقد انطرحت هذه الاعمال كلها في شعره بطريقة واعية
أحياناً، وفي كثير من الأحيان بطريقة لا واعية.

والذي يجعل لهذه الرسائل قيمة أدبية وتاريخية هو ما
تضمنته من آراء أصيلة في الأدب والأدباء، وفي الثقافة وشؤون
الفكر العربي المعاصر بصفة عامة، وترجع قيمتها الى أنها
آراء منصفة وواقعية، وليست واقعة تحت تأثير أية ضغوط،
بالإضافة الى أنها خالية من أي تهجم أو محاباة، ومع ذلك
فهي آراء شخصية، يحمل صاحبها كل تبعاتها، ويدافع عنها
بشجاعة.

وأبرز آرائه في الأدب ما سجله عن العقاد وأبي شادي ومجلة
أبولو.

فمن العقاد يقول عقب قراءته لكتاب "ساعات بين الكتب" :
"لقد تملت بما فيه من صور الفن، ومثل الحياة ما لا ينتج الا
عن ذهن جبار ولود، وعبقريّة نادرة خارقة، أما لغة الكتاب
وأسلوبه فهو الأسلوب القيم الجميل الذي لم يكتب العقاد
فيما سبق خيراً منه".

ثم يقول فيما كتبه العقاد عن شكسبير : "لقد كتب
العقاد فيما كتب عن شكسبير كتابة لو علم أنها ستكتب عنه
لمجد نفسه ألف مرة ، كتب عنه كتابة لا أحسب أنها
كتبت عن بشرى من قبل ...".

وعن ديوان "وحي الأربعين" يقول : "فيه ما شئت من
فلسفة ناضجة في الحياة والناس، وغزل مطول، ووصف شامل
نفاذ، وسخر لاذع عميق، أما أسلوبه فهو أرقى من أسلوب
أشعاره الماضية ، ولا غرو فهو العقاد".

أما أبو شادي فقد كان هو الذي بدأ — على عادته — بالكتابة
الى الشابي، يدعوه للمشاركة في تحرير مجلة "أبولو"،
والشابي يقول في حاشية رسالته الحادية والعشرين، المؤرخة في
أول يناير عام 1933 : "ورد علي في بحر الأسبوع الماضي
العدد الرابع من مجلة أبولو المصرية ، وهي مجلة لخدمة
الشعر الحي، ثم ورد علي بعد ذلك بيوم من سكرتير الجمعية
ورئيس تحرير المجلة الدكتور أبي شادي مكتوب يقول فيه إنه
يرغب مني امداد المجلة بما يمكن من شعر ونثر".

ثم يقول في رسالته الثانية والعشرين رداً على الحلوي :
”لاني أشاركك الإعجاب بمجلة أبولو، ولكنني أرى أن
بينها وبين السمو خطوتين :

الأولى: أن يقسو صاحبها في انتخاب ما يرد عليه، فلا ينشر
الا ما سمت روحه وشرف أسلوبه، حتى أصبح جديراً - ولو
أقل من كل الجدارة - أن يصير فناً.

الثانية: مشاركة عظماء مصر في تحريرها، كالعقاد، والمازني،
وطه حسين، ومن لف لفهم، فإن الطبقة التي تحررها هاته
الأيام - وخصوصاً في النثر - ليست من القوة في شيء.

أما علاقتي بأبولو فقد وجهت لها قصيدين، ومعلوم الاشتراك،
وطلبت من صاحبها أن يوجه إلي الأعداد الأولى منها، وقد ورد
علي كتاب منه بعد ذلك، وطيه معلوم الاشتراك نفسه، قائلاً انه
يستطيعني عنده في إرجاعه، لأن المجلة توجه إلي كهديّة
خاصة، كما أهدي إلي نسخة من ديوان له اسمه ”أشعة وظلال“
وجه إلي الأعداد الأولى من المجلة“.

وبنفس الاثزان والتجرد والتحليل يبدي رأيه في أبي شادي
وشعره : ”الحقيقة أنني كنت لا أستطيع أن أتم قصيدة لأبي
شادي، ولكنني رضت نفسي على أن أتابعه حتى ألفته، فتبين لي
أن الرجل في صميمه شاعر حساس، يمتاز بروحانية صوفية في
نظرته الى الوجود، ولكن الذي أسقط من قيمة أدبه شيئان :

(1) أنه متعجل مكثار، لا يصبر على التجويد الذي هو عمل لا بد منه للفنان المتسامي.

(2) أن صورته الشعرية لا تبدو واضحة كاملة في شعره، بحيث ترغبك على تذوقها والاستمتاع بها، بل أنها لتبدو ملتأثة غائمة سريعة كل السرعة، كأنها صور شريط سينمائي يدار بسرعة جنونية، وهذا السبب ينأى بالناس عن تذوق شعره، وإدراك ما فيه من صور شعرية وإحساسات عميقة، تدل على نفس واعية، ولذلك فشعره يبدو فاترا في كثير من الأحيان....»

وفي هذه الرسائل تتناثر وقائع حياة الشابي، وأزماته النفسية والمادية، وميلاد بعض أعماله، وتعتبر الرسالة التاسعة والعشرون المؤرخة في 19 من ديسمبر 1933 من أهم رسائله في هذا الصدد، إذ تحدث فيها عن ضياع ديوانه الذي كان يعده للطبع، وما أحدث له ضياعه من أزمة نفسية انجلت عن تحول خطير في حياته الفنية، ومن خلالها نستشف طريقته في إنجاب روائعه الفنية، وفي هذه الرسالة يقول :

«لقد ربحت من تلك الأزمة التي مرت بي قصيدا هو "نشيد الجبار"، فلإني في ليلة من ليالي هاته الأزمة نمت معذب النفس مهموم القلب، ثم استيقظت في نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، فلجأت بي الآلام، وضربت بي في كل سبيل... وتطورت نفسي في غمرة الألم، فبعد أن كانت معذبة باكية في ظلمة أحزانها... انقلبت ثائرة هائجة، واثقة من نفسها،

ساخرة من القدر والداء والأعداء وكل آلام الحياة، وتحت تأثير هاته الحالة النفسية نظمت "نشيد الجبار"، فذابت آلام نفسي، وشعرت بالحرية والانطلاق... وقد نظمتها في تلك الليلة، ولكن نفسي لم تنهض لكتابة ولو كلمة منها، وفي نحو الفجر نمت مرتاح النفس مطمئناً، وأفقت من الغد فلم أجدني قد نسيت كلمة واحدة، فكتبتها، ولم أزد عليها الا نحو بيت أو بيتين، وبعض تنقيحات وجدتها لا بد منها.

... والفرق بيني وبين نفسي الأولى أنني كنت أقبل آلام الحياة، وأتحسس أشواكها بنفس ضارعة، وقلب دامع، أما الآن فلإني ألقاها ببسمة الساخر، ونظرة الحالم المنتشي بجمال الوجود، وقد أحسست بهذا التطور لما اصطفت بعين دراهم، ولعل جمال الطبيعة هناك قد كان له أكبر الأثر في تلوين نفسي بهذا اللون الجديد، كما أن مصيفي هذا العام، وما رأيت فيه من صور الطبيعة الرائعة قد أكمل هذا التطور ونماه، أما الآن فإني أشعر بانقلاب عميق في نفسي، قوي كل القوة، وقد عبرت عن هذا الانقلاب الروحي بقصيد "الصباح الجديد"، وقصيد "نشيد الجبار"، وهو صورة صادقة لنفسي في طورها الحاضر الجديد.

وهذه الرسالة من أهم رسائل الشابي كذلك، لأنها تحلّل مرحلة نفسية وفنية من مراحل تطور الشاعر، وتضعها في إطار التحليل العلمي، فتتقصى الظواهر، وتبين الدوافع، وتخرج بنتيجة منطقية، يؤيدها التطبيق.

والواقع أن نشر رسائل الشابي على هذا النحو جهد محمود يضع وثيقة هامة، ومادة علمية بين يدي مؤرخي حياة الشابي، ومؤرخي هذه الفترة من تاريخ الأدب العربي المعاصر.

كما أن وضع هذه الرسائل في بيئتها الطبيعية بين رسائل الحليوي ورسائل البشروش أضاف إليها قيمة دراسية جديدة، وألقى بها أضواء كاشفة على هذه الحياة المعجدة لشاعر عربي عبقرى معاصر. (1)

(1) قدم للرسائل ونشرها بتونس أبو القاسم محمد كرو ، بمناسبة المهرجان الذي أقيم للشابي عام 1966 .

دراسات عن الشابي من سلسلة « مكتبة الشابي »

من تمام عناية الادباء والنقاد التونسيين بشاعر تونس الاكبر
أبي القاسم الشابي حرصهم على جمع ما كتب عنه ، ونشره ، ووضع
في متناول القراء والدارسين ومؤرخي الادب المعاصر .

وفي هذا الكتاب - وهو الحلقة الثانية من سلسلة مكتبة
الشابي - حرص الاستاذ أبو القاسم كرو على جمع ما وقع في متناول
يده من دراسات وبحوث ونشره تحت عنوان « دراسات عن الشابي »
تناولت ما كتب عن الشابي منذ وفاته عام 1934 حتى الستينيات ،
وقد أحسن كرو صنعا بجمع هذه الكتابات التي كانت مبعثرة في
شتيت الصحف التي احتجب الكثير منها ، وأصبح العثور عليها
يمثل صعوبة كبيرة ، بل قد ينذر الحصول عليها بالنسبة لدارسي
حياة الشابي ومؤرخي أدبه .

ولقد صنفها الناشر في قسمين : الاول دراسات من المغرب ،
والثاني دراسات مشرقية .

وكتاب الدراسات المغربية هم الاساتذة : الشاذلي القليبي ،
وكرو ، وفريد غازی ، والعروسي المطوي ، وعامر غديرة ، ومحمد
بدرة ، والهادي العبيدي ، ومحمد البشروش ، وابراهيم بورقعة ،
والبشير الفورتی ، وهم من تونس ، وهناك آخران هما خليفة
التليسي من ليبيا ، وعبد الله شريط من الجزائر .

أما كتاب المشرق فهم الدكاترة والاساتذة : محمد مندور ،
ومصطفى بدوي ، وحسن محمود ، ونظمي خليل ، وهم من مصر ،

ثم عبد المجيد عابدين من السودان ، وشوقي أبو شقرا من لبنان .

ونحن نعرض هذه الدراسات حسب ترتيبها في الكتاب ، بغض النظر عن موضوعاتها ، فقد يتكرر الموضوع عند أكثر من كاتب ، وقد تتوارد الأفكار عند بعض الكتاب ، وقد تختلف وجهات النظر في الحقيقة الادبية الواحدة .

وتبدأ الدراسات المغربية بعد مقدمة الناشر بدراسة الشاذلي القليبي عن « الشابي وتجربة الفجر البعيد » ، يقول فيها : اننا لا نستطيع دراسة نفسية الشابي الا اذا عرفنا بالتحديد تاريخ ميلاد قصائده ، والظروف النفسية التي قילت فيها ، ويلاحظ أن الشابي يرفض الحياة البشرية ، لانها حياة الشقاء والالم ، ويتجه بحياته الفنية الى عالم يتلأل نورا وسعادة ، وهو يرمز الى هذا العالم بالنور، والفجر البعيد ، والصباح الجديد .

ويتحدث أبو القاسم كرو عن « ميلاد الشابي » ، متفقاً مع القليبي في أن الشابي كان يتوق الى التجربة الجديدة ، تجربة الموت، ليصل الى عالم الخلود الملى بالسعادة ، ويزيد فيعرض حفاوة الشابي بشعبه ، فهو يستنهض هممه ، ليصل بكفاحه الى المكانة الجديرة به ، ويحقق لنفسه الحرية والكرامة والاستقلال .

ويتساءل الدكتور محمد فريد غازي في بحثه « كيف ندرس الشابي ؟ » ويجيب بأنه يمكن دراسة الشابي كشاعر فرد ، كما يمكن أن يدرس باعتباره فرداً من أفراد المدرسة الرومانتيكية ، وهي وسط بين المدرسة الكلاسيكية والمدرسة الرمزية . ثم يدعو الباحثين الى وضع تخطيط علمي لدراسة الشابي ، وذلك بتاريخ قصائده ، وربطها بالبيئة ، وجمع رسائله وبومياته التي هي صورة دقيقة لحياته ، وكذلك بقية آثاره المبعثرة ، وجمع شهادات معاصريه، وبحث البيئة الفكرية التي عاشها الشاعر ، والتعريف بمعاصريه

وخلطائه ، وحتى الشعراء الصغار الذين أخلهم ، لانهم يشكلون ديناميكية الحركة الادبية والفكرية .

وللعروسي المطوى دراسة عن « الشعب في شعر الشابي » ، يتساءل فيها ما هو شعور الشابي نحو شعبه ؟ ويجيب : هو شعور الاشفاق والحسرة والحنان والاثارة ضد الظلم والفساد ، وتهديد الطغاة بالثورة الشعبية الجارفة ، ثم هو شعور الغضب على الشعب ، وأخيرا هو الاعتزال والهروب الى عالم الخيال .

وفي دراسة مقارنة « بين الشابي وجبران » يرى خليفة التليسي أن الشابي تلميذ لجبران في الخصائص الفنية ، وفلسفة الحياة ، والحب والحرية والتمرد والثورة على كل قديم ، ويؤكد أن الشابي تأثر بجبران وبالادب المهجري على العموم تأثرا عميقا .

وعامر غديرة يكتب عن « محاولة جعل اطار لترجمة الشابي » متبعا طريقة التحقيق العلمي المرتكز على اعمال الرأى ومشاهدة الوثائق والرجوع الى المصادر الموثوق بها ، على أن يعتبر هذا اطارا لبحث تتضافر عليه كل الجهود ، اذ لا يكفي فيه عمل الفرد .

وتطبيقا لهذا يتتبع الباحث أهم التواريخ والوقائع والاماكن التي لها أثر في حياة الشابي ، ثم يحقق البيئة الاجتماعية التي أثرت في فنه ، وأول قصيدة أنشدها بالعاصمة ، ثم يعرض لطرف من جبه .

وعن « أبي القاسم الشاعر » يقول محمد بدرة : ان الشابي هو الذي أعلى صوت تونس في العالم العربي ، وحافظ على التراث اللغوي ، وهو يعتبره مثالا أعلى لمجددى الادب المعاصر ، بتوخي البساطة ، لانه يكتب من فيض الروح ، ويحتضن الشعب ، ولا يعنى بالتشبيهات الهندسية الممقوتة .

وفي « ذكرى ميلاد الشابي » يتحدث الهادي العبيدي عن البيئة التي أطلعتة من بين الجمود والرجعية ، فأصبح يبشر بالحربة والتجديد والانطلاق ، وبظل ماضيا في استنهاض همم شعبه على الرغم من سدنة التقاليد ، لكن رفاهة حسه ، وتحالف الامراض عليه جعلت نزعة التشاؤم تنتابه ، فانزوى عن المجتمع ، وأخذ يهوى ويهوى حتى فارق الحياة ، ولكنه استطاع أن يخط لنفسه سطور الخلود .

وعن « الشابي والحياة » يتحدث عبد الله شريط عن الحياة وكيف عرفها الشابي معرفة عميقة في هذا العمر القصير ، وكيف تبرم بها ، وكيف نفر من المجتمع ، وكيف يئس من الشعب ، لكن الشابي كان مع ذلك مؤمنا بالحياة ، واثقا من غاياتها الخيرة ، ومثلها العليا التي يؤمن بها ايمانا كاملا ، ومن هنا استطاع ان يفرغ من تذوق الحياة بسرعة مادية هائلة ، وأن يتخذها معبرا الى صميم الحقيقة ، وهي الموت الذي هو بالنسبة له صباح جديد .

وعن « نفس الشابي » يتحدث محمد عبد الخالق البشروش رفيق حياته ، فيقول : ان حياته شيدت على العطف العميق ، فعاش يتعاطف مع الكون ، ويبادله المحبة والفهم ، ويتغنى بآلام الحياة وأفراحها ، وفي عزم صادق يصارع القدر ، ويغالب المصاعب ، ولكن التشاؤم كان يصبغ حياته ، الا أنه تشاؤم أملته الصلابة والعزم ، وليس تشاؤم الضعف والتهافت .

وعن « حياة أبي القاسم الشابي » يحكي ابراهيم بورقعة عن بداية الحياة الثقافية للشابي ، وكيف كان منذ صباه يتردد على المكتبة ، ويستعير الكتب والمراجع الاساسية في الادب ، وهي يومئذ كتب أكبر من سنه ، وكيف كان يخفي أدبه وأشعاره عن أقرب الناس اليه خوفا من استنكاره أو مصادرته من قبل أبيه ، الذي كان يريد ان يعده لنشئ آخر ، وبالفعل كان هو يعد نفسه للتصوف ،

فقرأ في هذا الوقت المبكر للغزالي والتبريزي وابن عربي ، ثم تغير اتجاهه بعدما ورد على الجامع الاعظم ، فتنحول الى كتب جبران ، واستوعب كتاباته بشغف ، حتى أصبح وكأنه يكتب بقلمه ، وينظر الى الحياة بمنظاره ، مما شجعه على العودة الى كتب القدامى ، ثم الى أدباء الشرق المعاصرين ، ثم الى المترجمات من أدب الغرب ، ومن هنا أصبح الادباء العالميون هم مثله الاعلى الذي اقتفاه ، وآية ذلك أنه لم يسخر شعره لمذح أو هجاء أو رثاء .

أما بحث البشير الفورتني فكان موضوعه « أبو القاسم كما يجب أن يقال عنه في حياته وبعد موته » ، وهو يشير الى تأثيره بجبران ، وبمجالس الادب ، والاجتماع بالادباء ، وكيف كانت له عينان ثاقبتان تنظران الى الوجود نظرة ساخرة تهزأ من الحياة .

ومرة أخرى يعود اليينا أبو القاسم كرو بفصل عنوانه « ما يجب نحو الشابي » من باب درء الجهالة التي ما زالت تحيط بدقائق حياة الشابي خاصة ، وبواقع الادب والفن في تونس والمغرب العربي بوجه عام ، والشووط الطويل الذي لا بد منه للاعلام بالحياة الادبية في المغرب لدى أبناء الشرق العربي ، ويحدد واجب الشعب والدولة ازاء الشابي بنشر مؤلفاته ومعلومات كل معاصريه عن وقائع حياته ، وتحقيقا لذلك يقترح الباحث تشكيل لجنة لنشر كل ذلك ، واقامة قسم خاص في دار الكتب التونسية أو بمتحف باردو ، يضم كل تراثه ، واقامة تمثال له بالعاصمة وآخر بمسقط رأسه ، واطلاق اسمه على بعض الشوارع والمدارس في تونس وفي المدن الاخرى .

والى هذا الحد تنتهي الدراسات المغربية لينتقل بنا الكتاب الى الدراسات المشرقية التي تبدأ ببحث للكاتب الناقد المصرى الجهير ، الدكتور محمد مندور ، بعنوان « الشابي .. روح ثائرة » ، وفيه تبدو شخصية الشابي المتمردة ، التي أمدته بطاقة شعرية قوية ،

كانت أقوى الطاقات الشعرية الضخمة بين جماعة أبولو التي كان ينتمى إليها ، ويكاد يكون شاعرا مصرية بروحه وشعره الذى نشر معظمه فى مصر ، ومن مصر اشتهر وذاع صيته فى أنحاء العالم العربى ، وهو الشاعر المغربى الوحيد الذى شاعت المعرفة به فى مصر ، وتم التسليم بعبقريته الممتازة .

وينفى مندور تأثر الشابى بالادب المهجرى أو المصرى ، ويقرر أن تجديده نابع من عبقريته الفريدة وموهبته المتميزة ، وروحه الثائر ، وصراعه الدائم ، وارادته التى تذكر بارادة الحياة عند شوبنهاور ، وارادة القوة عند نيتشه ، لكنها ارادة أصيلة نابعة من شخصية الشابى نفسه .

وللدكتور مصطفى بدوى دراسة عن « التقرير والايحاء فى شعر الشابى » حيث يقرر أن الشابى ينتمى الى المدرسة الرومانتيكية التى تزعمها أبو شادى فى ثلاثينات هذا القرن ، وهى المدرسة المقابلة للمدرسة الكلاسيكية ، وإذا تميزت هذه بالاسلوب التقريرى فإن المدرسة الرومانتيكية تتميز بالترعة الايحائية ، ومن أبرز ممثليها أبو القاسم الشابى الذى نستبين سمات الاسلوب الايحائى فى معظم شعره ، وخاصة قصيدته « الصباح الجديد » التى تمتاز بالنغم الهادىء الموحى الذى يكمن وراء احتفاء الشاعر بحياة سامية بعد هذه الحياة ، تجعله يتجاوز هذه الحياة بآلامها ومآسيها ، ولهذا فهى ترحيب بالموت ، وإن بدت فى ظاهرها انتصارا على الآلام ، والفضل فى ذلك راجع الى الاسلوب الايحائى الذى يصطنعه الشابى .

والدراسة التالية لحسن محمود بعنوان « نظرة فى شعر الشابى عامة » وفيها يقرر أن الشابى فنان قارب نهاية العبقرية فى هذه الفترة القصيرة من حياته ، ويلخص عناصر التجديد عند الشابى فى ابتكار العناوين التى تشي بالرمزية ، وفى روح التمرد والثورة ،

والسخرية من الحياة وعطفه على من فيها ، وفي المسحة الفلسفية التي تغلب على شعره ، وولعه بالطبيعة ، ونزعة التشاؤم ، والتغيم الحزين المسيطر على شعره ، كما يمتاز تجديده بوحدة القصيد .

و « فن الشبابي » هو موضوع بحث نظمي خليل الذي يتساءل : ما هي رسالة الشبابي ؟ ويجيب بأنها رسالة القلب الانساني ، فانه شاعر يحس وليس فيلسوفاً يفكر ، ويلجأ الى الطبيعة هرباً من الانسان لما لقي من عنث الناس وقسوة المرض . وهو في اللجوء الى الطبيعة والعودة الى الطفولة يذكرنا ببيرون ، روسو ، وكيثس ، لكنه ينفرد بمكونات شخصيته وبأسلوبه وتعاييره وتراكيبه المبتكرة .

أما الدكتور عبد المجيد عابدين فيعقب على الكتاب الذي ألفه كاتب سوداني وقارن فيه بين الشبابي والتجاني بشير في النشأة والثقافة والنزعة النفسية والفلسفية والتصوف والزهد .

وبالتقصي والتنقيب لانتاج كل من الشاعرين يفند الباحث آراء المؤلف ، لانه أقام كتابه على أساس من الظن ، ولم يقدم آراءه على المراجع أو الاسس العلمية المعتبرة .

وأخيراً يعرض الكاتب الناقد شوقي أبو شقرا كتاب « الخيال الشعري عند العرب » ، فيبين كيف عالج الشبابي ناحية الخلق الفني في الشعر العربي ، وكيف درس خيال الشعراء العرب ومواقفهم ازاء المظاهر الجمالية في الاسطورة والطبيعة والمرأة والقصة .

وبعد ..

فبهذا الاستقصاء يكون الناشر قد أسدى لتاريخ الشبابي مئة جديدة الى جانب ما كتبه عن الشبابي ، والى جانب احتضانه لكل ما يكتب عنه ، هنا وهناك .

ومن كمال الدقة أن كل بحث في هذا الكتاب مذبّل بتاريخ نشره والمصدر الذي نشر فيه ، وأن كان الناشر لم يعقب عليها ، بل ألقى التبعة على أصحابها ، الا فيما اقتضاه واجب التصحيح الضروري وفاء بأمانة الحقيقة .

نثر الشابي

« فى مذكراته »

اشتهر الشابي أكثر ما اشتهر كشاعر عبقرى مجلجل
لصوت تمجدت به تونس ، وتمجد به العالم العربى
المعاصر بأسره .

لكن الوجه الآخر للشابي كناثر فنان وككاتب وباحث
وناقدا كان أقل شهرة ، مع أنه فى نثره الفنى بالذات لا يقل
جودة ولا أصالة ولا أناقة عما عرف به كشاعر .

ولقد قدمناه من قبل فى لون من نثره الحر الطليق ، فى
رسائله التى كشفت عن جانب هام من جوانب حياته العبقريّة ،
وأفصحت عن الدوافع التى أثرت فى أدبه وفنه ، وألقت الضوء
على شيء من علاقاته الاجتماعية ومجمل مواقفه من الناس
والحياة .

واليوم نقدم لونا مشابها من إنتاجه النثرى الطليق فى هذه
المذكرات التى دونها فى صورة يوميات قصيرة ، لا تتجاوز اثنتين

وعشرين يومية، تبدأ في الأول من يناير عام 1930، وتتابع في الأيام التسعة الأولى على التوالي، ثم تتناثر حتى تنتهي في السادس من فبراير في نفس العام.

ويقول ناشر هذه المذكرات انها "مذكرات قيدها الشاعر في كلمات، يوما بعد يوم، مسجلا فيها خواطره وملاحظاته، ونقده لمجتمعه، وآراءه الكثيرة فيما حوله.

ولقد تمر بقصائد الشاعر كلها فلا تجد لها تمثل شيئا مما صرح به هنا، ومن أجل ذلك أصبح ضروريا لفهم الشابي وتصور أدبه على الوجه الكامل أن يحيط الدارس، بل أن ينفذ الى أعماق هذه المجموعة من النصوص التي كتبها أبو القاسم عن قصد، وحررها مسجلا بها خلجات نفسه ورشحات قلمه".

وهذه المذكرات هي في الواقع جانب من جوانب نفسه، يكمل ما قاله في شعره، وما تبادله في رسائله، فقد كان في شعره يخاطب الناس جميعا على امتداد الوطن العربي كله بكل أجياله، وكان في رسائله يخاطب صديقه، ويثبه جانبا من فكره ورأيه وآلامه ومطامحه، أما هنا فهو - في الظاهر - يكتب لنفسه، يناجيها، ويستبطن خفاياها.

واذا كانت هناك دواع خاصة للشعر، وحوافز خاصة للتراسل، فإن دوافع هذه المذكرات تظل خفية، الا اذا كشفها لنا الكاتب أو الناشر ولم يفعل أحدهما ذلك، غير

أننا نعتقد أنها ربما كانت تجربة فنية أراد بها الشاعر لونا آخر من ألوان الانتاج ، ونجاحها أو اخفاقها متروك في النهاية للقاريء، أو أنها تجربة نفسية خاضها الشاعر، وكانت هذه المذكرات لونا من ألوان التنفيس، بالإضافة الى الدافع الفردي لدى كل انسان من أن يخلو الى نفسه ساعة من نهار، يحادثها وتحادثه بخفايا الصدور.

وهذه المذكرات في مضمونها تدور حول استبطان النفس وتصوير خلجاتها، وترسم آمالها وأمانيتها وأحلامها من خلال لوحات رائعة يمتزج فيها الانسان بالطبيعة امتزاجا كاملا ، فيها الحنين الى الماضي بأخيلته الزاهية، وفيها - كما في شعره - هروب من الحياة ، وشعور بالغربة، ولجوء الى الطبيعة الحنون، وتصوير لخلجات المجتمع، ورسم لشخصيات معاصرة عايشها الشابي وحولها الى صور نموذجية، أو صور ساخرة، تبرز مشاعره تجاه هذه الشخصيات اعجابا أو سخطا، أو حنوا وتعاطفا، وفي هذه الشخصيات السوي، وفيها الشاذ، ولكن الكاتب يصورها بصدق ودقة، وقد يستخلص منها العبرة والموعظة من خلال المحاورات الفلسفية، وقد يتحدث الكاتب أحاديث مباشرة عن وقائع محددة وأشخاص حقيقيين، يعرض من خلالها للنشاط الأدبي والفني والثقافي في تونس، الذي يشارك في دفعه وحشه الى التقدم، والدخول إلى آفاق العلم الحديث ونبد الجمود والتعصب والخرافات والرجعية.

وأحيانا يلجأ الكاتب الى الخواطر الحزينة يجترها ويجسدها

أمام القارئ الذي لا يستطيع أن يسلم من عدواها والوقوع تحت سيطرتها، وقد تتخذ المذكرات أسلوب المناجاة الضارعة المعترفة بالضعف والعيوب والمزاج العصبي وشذوذ التصرفات، والثورة على التشاؤم، ولكنها ثورة ضعيفة لا تلبث أن تضمحل وتعود للهروب إلى أحضان الطبيعة وإلى الماضي الملون دائما بألوان الطفولة الأخاذة.

ومن خلال كل هذا تتكشف حياة الكاتب وشخصيته، تارة من خلف ستار شفاف، وتارة بطريقة مباشرة، يتحدث فيها عن وقائع حياته، وعن قراءاته، وعن أصدقائه، وأحوال مجتمعه، ورصد خطوات التقدم على أرضه.

أما أسلوب المذكرات فهو أسلوب فني أنيق، يتسم بحرارة الشاعرية، أسلوب حلو مسترسل، يروع قارئه وبطربه، ويملاً النفس بالاعجاب والاحترام، بما فيه من عمق الموسيقى، ورقة العبارة، ودقة النسيج، وانسياب الألوان، وحيوية الصورة.

يقول في أولى يومياته التي تعد قطعة حية من الطبيعة الساحرة: "في سكون الليل، أنا جالس وحدي، في هاته الغرفة الصامتة إلى مكتبي الحزين، أفكر بأيامي الماضية التي كفتها بالدموع والأحزان، وأستعرض رسوم الحياة الخالية التي تناثرت من شريط ليالي وأيامي، وذهبت بها صروف الوجود إلى أودية النسيان البعيدة النائية.

أنا جالس وحدي في سكون الليل، أستعرض رسوم الحياة،

وأفتكر بأيامي الجميلة الضائعة، وأستشير أرواح الموتى من
رموس الدهور.

هأنذا أنظر الى غيابات الماضي، وأحرق بظلمات الأبد
الغامض الرهيب.

هأنذا أنظر، فأرى صوراً كثيرة تعاقبت على نفسي كغيوم
الربيع، وتحركت حوالي كأنسام الصباح، وتعانقت حول قلبي
كأوراد الجبل.

ثم أنظر فإذا رسوم غامضة مضطربة متقلبة كأموج البحار،
وأطراف ملونة كقوس قزح، جميلة كقلب الربيع، تمر أمامي
ثم تختفي، وتتراقص حواليّ ثم تبعد، ثم تتوارى في أعماق
الظلام الدامسة، وأرى أحلاماً ناشئة تغرد كطيور الغابات، وتنمو
نمو الأعشاب، وتتفتح تفتح الورود، ثم تجف وتذبل وتتناثر
فتدروها الرياح، ثم تضمحل وتتلاشى في سكون المنون... »
وهكذا تمضي اليومية الأولى كلها على هذا النمط، كالمعزوفة
الحزينة، ولكنها لوحة متحركة للطبيعة الحية، المؤلفة العناصر
والألوان والمشاعر.

وحين يصور الشاعر غربته في الحياة يبررها بأن الناس لا
يفهمونه حق الفهم، ولا يقدّرونه حق التقدير :

” أشعر الآن أنني غريب في هذا الوجود، وأني ما أزداد يوماً
في هذا العالم الا وأزداد غربته بين أبناء الحياة، وشعوراً بمعاني
هاته الغربة الأليمة.

غربة من يطوف مجاهل الأرض، ويجوب أقاصي المجهول،
ثم يأتي يتحدث الى قومه عن رحلاته البعيدة ، فلا يجد واحدا
منهم يفهم من لغة نفسه شيئا.

انني طائر غريب بين قوم لا يفهمون كلمة واحدة من
لغة نفسه الجميلة، ولا يفهمون صورة واحدة من صور الحياة
الكثيرة التي تتدفق بها موسيقى الوجود وأناشيده.

الآن أيقنت أنني بلبل سماوي قذفت به يد الألوهية في
جحيم الحياة ... وتلك هي مأساة قلبي الدامية ... “.

ثم هو حين يتحدث عن هروبه من الحياة وارتمائه في
أحضان الطبيعة يرر هذا الهروب تبريرا عجيبا، حيث يقول في
افتتاحية إحدى يومياته :

” ليس لدي ما أكتبه اليوم عن نهاري هذا، ولعل خيرا لي أن
أذهب إلى فراشي وأنام ، لأنسى في عالم الأحلام مشاهد هذا
الوجود السخيف وآلام القلب المرة الموحجة ... “.

ولعل هذه اليومية كتبت والرجل في أقصى حالات السأم
والمرض والآلام الجسدية والنفسية التي عاناها طويلا.

لكن الشابي حينما يزايله المرض وتخف عنه حدة العلل،
يصحو من رومانتيكيته الموغلة في الحساسية والعزوف عن
الحياة، ويعود فيشارك في علاج مشكلاتها يكتب في بعض
الشؤون العامة، فيقول مثلا عن وظيفة النقد والعلاقة بينه
وبين الصداقة، وعلاقة الصداقة بالحرية :

”رأيت في الانتقاد أنه ليس شيطانا يث بذور الشقاق، وإنما هو ملاك يحمل سراج الحقيقة في سبيل الإنسان، ورأيت في الصداقة أنها ليست بمعنى عبودية الفكر، ولكنها حرية النفس، فأنني حينما أجلس الى صديق أحس بأشعاع الحياة في نفسي، وحينما أجلس الى عدو أحس بضيق الحياة فيها، وهاته الحرية التي تحس بها النفس بجوار الصديق ليس معناها عبودية الفكر وتكيسل الضمير، لأن الحرية لا تتسج الاستعباد، ولأن صديقي الذي يحترم نفسه ويقدر عقله الذي وهبته الحياة إياه هو الرجل الذي يكون جديرا بمحبتتي واحترامي، أما الرجل الذي أحبه وأستعبده بحيث يصبح ظلا لكل أفكاره وخواطري فأنني أشفق عليه أكثر مما أحبه، وأرثي له أكثر مما أحترمه“.

إن هذه المذكرات على قصرها صورة نابضة من حياة كاتبها، صارت في هذا المدى القصير جانبا هاما من نفس الشاعر وتقلبات الأيام به، صورته في أحلامه ويقظته، في مطامحه وفي يأسه، في موقعه من الناس وموقع الناس منه، صورت أسلوبه السوي والشاذ في حياته القصيرة العميقة، فكانت حياته على قصرها وعلى رقتها كالزوبعة الحادة العاتية، تركت أثرها على أرض الحياة رغم أنف الحياة، وما زال دويها يملأ الآفاق.

ومن خلال هذه المذكرات يبدو أن الكاتب كان يعتمد أن يدونها، فأحيانا يجد لها الوقت وأحيانا لا يجده، وأحيانا يجد

الوقت ولكنه لا يجد الكلام، وإن كان في بعض صمته
أبلغ منه في كثير من أفصاحه، يقول في يومية 14 يناير :
” أشعر اليوم بفتور في بدني، وبتوعك في مزاجي، ولا
أدري مآثاه، وأحس بكآبة عميقة تستحوذ على مشاعري،
وتقبض على قلبي، وتجعلني أكره الكتب والأسفار والمحابر
والأقلام.

لا أريد أن أزيد أكثر مما ذكرت، لأنني أرى النوم يغالبني،
والإعياء يدفعني إلى النعاس“.

هكذا تبدأ اليومية، وهكذا تنتهي، ونحن لا نريد منه أن
يقول أكثر من هذا، فقد قال في هذه الكلمات القصيرة كل
شيء، وفهمنا نحن عنه كل شيء.

أما اليومية التي تحدث فيها كثيرا ولم يقل شيئا فهي يومية
السادس من فبراير، التي لم يجد لها موضوعا، فأدارها حول
حادث قليل الأهمية ثم دخل عليه صاحبه فوجده يكتب، فسأله:
ماذا تكتب؟ فقال له: أكتب مذكراتي، فقال له: وهل تجد
الوقت لذلك؟ فأجابه: يوما أجده ويوما لا أجده... وانتهت
اليومية بذلك، وكانت آخر عهده بالمذكرات التي بين أيدينا،
ومع ذلك فقد دلتنا على أن هذه المذكرات كانت متعمدة
وليست عفوية.

ومع أن الناشر لم يوضح لنا اتجاه هذه المذكرات، وهل
انتهت أم أن لها امتدادا؟ فإن شهرا غير كامل ليس كافيا

ليشحن أديب كالشابي قلمه ثم يصمت عن هذا اللون الى الأبد، وربما لو نقب المنقبون لوجدوا ما هو أكثر، ولأصبح ذلك تيارا جديدا من تيارات أدبه يلقي الضوء على جانب من جوانبه اللامعة.

وأيا ما كانت كمية هذه المذكرات واستمرارها أو انقطاعها فانها ككل أعمال الشابي تجربة ذات أسلوب رائع، وصور حية متحركة ، تلقي ضوءا كاشفا على جانب من جوانب روحه الشفافة الموهوبة ، وتزيد بعدا جديدا في شخصيته النادرة.

وهي في الوقت ذاته زاد لمن يريد أن يدرس حياة الشابي بإلمام وتفحص حيث يستطيع أن يستخرج من كل كلمة ومن كل نبضة مفتاحا لحياة الشابي العبقريّة الخالدة، حتى تتكامل لديه سيرة من أروع السير لشاعر من عباقرة الشعر العربي المعاصر.

(1) طبعت المذكرات لأول مرة في تونس عام 1966 .

شعر أبي القاسم الشابي في ديوانه « أغاني الحياة »

- المرحلة الاولى :

ظل شعر أبي القاسم الشابي على مدى ربع قرن مبعثراً، لا يضمه ديوان منشور، منذ جمعه الشاعر، واعتزم إرساله الى الدكتور أحمد زكي أبي شادي رائد جماعة أبولو لينشره في القاهرة، حسب اتفاق سابق بينهما. لكن القدر لم يمهل الشابي حتى يرى شعره منشوراً في ديوان، واختفت مجموعة أشعاره التي نسقها وحذف منها وأضاف، وأعدّها للنشر.

حتى كان عام 1955، حينما انزاحت كل العقبات والأشخاص الذين كانوا يترصدون الشابي في كل طريق، فأصبح الجو مهياً لكي ينتشر شعر الشابي في ديوان، فقام شقيقه الأمين الشابي بنشر ديوان "أغاني الحياة" كما سماه الشاعر وكما جمعه ورتبه، وبالقدر الذي اختاره، بعد أن محا منه ما محا، وأثبت فيه ما راق له أن يثبت، ومن المؤكد أن الشابي قد أسقط من شعره بعض القصائد التي لم يرض عنها، فلم يثبتها في الديوان، لأنها من وجهة نظره قليلة الأهمية، وصدر الديوان، وثلثاه القراء والنقاد يومها بالمزيد من الحفاوة والتقدير.

ثم كان وفاء تونس لذكرى شاعرها بإصدار طبعة جديدة من ديوان "أغاني الحياة" عام 1970، وقد أضيف إليها ما عرف من شعر الشابي حتى الآن، ومن بينها ما أسقطه الشاعر نفسه، وهو إحدى عشرة قصيدة.

وهذه الطبعة تحوي مائة وتسع قصائد، تبدأ منذ عرف الشابي كشاعر، في الفترة التي تبدأ عام 1923، وهو في الرابعة عشرة من العمر، وتنتهي بعام 1934، العام الذي انتقل فيه الشاعر إلى دار الخلود.

وهذه القصائد موزعة على سني هذه الفترة على النحو التالي :

في السنة الأولى : قصيدة واحدة، وفي الثانية : اثنتان، وفي الثالثة : تسع، وفي الرابعة : خمس قصائد، وفي الخامسة : اثنا عشرة قصيدة، وفي السادسة : ست عشرة، وفي السابعة ست قصائد، وفي الثامنة : ثماني قصائد، وفي التاسعة : اثنتا عشرة، وفي العاشرة : ثلاث فحسب، وفي الحادية عشرة : سبع عشرة قصيدة، وفي السنة الثانية عشرة والأخيرة : ثماني قصائد، وذلك بالإضافة إلى عشر قصائد أثبتت بدون تاريخ.

ومن هذه الإحصائية السريعة نرى أن ترتيب القصائد في الديوان لم يعجز على الطريقة التقليدية التي اعتادها الشعراء حتى ذلك الوقت، وهي تقسيم مجموعات الشعر إلى فنون وأغراض، كالنسيب والوصف، والفخر، والمدح، والرثاء وغيرها، بل لقد جاء ترتيب الديوان ترتيباً تاريخياً مسلسلاً،

حسب زمن ميلادها أو حسب تاريخ نشرها، لا نندري (1). وهذا الترتيب بلا شك يعين المؤرخ الذي يريد أن يتتبع المراحل الفنية وتطورها ونضجها في شعر الشاعر، ومن هنا نستطيع أن نرصد كمية الانتاج ونوعيته من خلال هذا الترتيب الزمني، اذ نراه في السنة الأولى نادرا، ونراه أغزرها ما يكون في السنة الحادية عشرة، وفي السنوات الأولى نلاحظ كذلك وفرة انتاجه في شهور الصيف، ولعل ذلك راجع الى ما تتيحه له العطلة الصيفية من فراغ، وقد كان طالبا في الزيتونة ثم في كلية الحقوق التونسية، أما في السنوات الأخيرة فقد كان شعره موزعا على مختلف شهور السنة.

وهذا الترتيب يعطينا كذلك امكانية قياس تدرج الشاعر فنيا، وملاحظة مراحل نضج شاعريته ونموها وتطورها. فنحن نراه في السنوات الأولى يسير في الدروب المطروقة، والأغراض التقليدية التي يبدأ بها كل شاعر ناشئ، فقصائده الأولى تجري في إطار الحب، والنجوى، والطبيعة، والوصف الساذج، والنقد الاجتماعي اللاذع، وتشيع فيها السامة، والكآبة، والاحزان والدموع، والتشاؤم، واللوعة، وأحلام الطفولة، وان بدت فيها ومضات من التفاؤل والاقبال على الحياة.

وهذه المرحلة مطبوعة بطابع الأشواق والتطلعات والجموح الذي يغلف فترة الصبا وبواكير الشباب، وهي فترة تحول غير

(1) الضابت عندي من القرائن الخارجية انه تاريخ ميلادها .

مستقرة . فلم يخرج الشاعر بعد من إطار التقليد الذي تتردد فيه الأفكار والمعاني والصور المعتادة في عبارات هائلة، تتناثر خلالها المحسنات ، ويبدو فيها الميل الى اظهار البراعة في استخدام اللغة لتكوين صور ساذجة، يتخذ منها الشاعر معرضا لثروته اللغوية، وما يملكه من مفردات القاموس، ويبرز قدرته على استخدامها.

ففي أولى قصائده " الغزال الفاتن " يقول :

بذر الحب بذره	في فؤادي فأورقا
بلحاظ نوافث	فجنى حظي الشقا
وسعى فيه مهره	عاديا، ثم أعنتا
رب ظبي علقته	بالبها قد تفرطقا
سحر اللب طرفه	ما دهى الريق لورقي
أو صبا الصب صده	والشفا لو ترفقا

وهي كما نرى معرض للبراعة، تجري في موكب الموشحات التي تتسم بهذا اللون من البراعة.

ومثلها قصيدة " أيها الحب " التي يحشد فيها ما يدل على براعته في السرد وتتابع الألفاظ وترادفها، واضطراد الموسيقى لترسم صورة سريعة ولكنها قريبة العمق :

أيها الحب أنت سر بلائي وهمومي، وروعتي، وعنائي
ونحولي، وأدمعي، وعذابي، وسقامي، ولوعتي، وشقائي
أيها الحب أنت سر وجودي، وحياتي، وعزتي، وإبائي

وشعاعي ما بين ديجور دهري، وألفي، وقرتي، ورجائي
ألفاظ موسيقية راقصة متراسة، لا عناء فيها ولا غناء منها،
وما على الناظم الا أن يضع لها الاطار، ثم يطلقها فاذا هي شعر
ونغم حلوا، ولكن ربما يكون كل ما فيها هو الايقاع وحده.

على أننا نلمح قرب نهاية هذه الفترة تطوراً ما، حيث
يحاول الشاعر أن يتخلص من أسر الألفاظ ومن البراعة اللغوية،
ولكنه يظل واقفاً في أسر الموسيقى، يحاول فيها بعض
التجديد، فيقع في التناقض بين الحفاظ على النغم التقليدي وبين
النزعة التجديدية، ويضطر الى أن يلجأ الى أي تغيير، فلا يسعفه
الا اطار الموشحات، حيث يقول في قصيدته "أغنية الأحرار"

غنني أنشودة الفجر الضحوك أيها الصداح
فلقم جرعني صوت الظلام
ألم أعلمني كره الحياة
ان قلبي ملأ صداً النواح غنني يا صاح

* * *

حطمت كف الأسى قيتارتي في يد الأحلام
فقطعت صمتاً أناشيد الغرام
بين أزهار الخريف الداوية
وتلاشت في سكون الاكتئاب كصدي الغريد

* * *

كف عن تلك الأغاني الباسمة أيها العصفور
فحياتي ألفت لحن الأسى
من زمان قد تقضى ، وعسى
أن يثير الشدو في صمت الفؤاد أنسة الأوتار

وفي نهاية هذه المرحلة يكون الشاعر قد تعب من معاناة
التجديد لمجرد التجديد، فيلجأ مباشرة الى المعري يستعير منه
الحكمة، والفكرة، والصورة في مقطوعته " قالت الأيام " :

يا أيها السادر في غيه يا واقفا فوق حطام الجباه
مهلا ، ففي أنات من دستهم
صوت رهيب سوف يدوي صده

لا تأمن الدهر اما غفا في كهفه الداجي ، وطالت رؤاه
فان قضي اليوم وما قبله ففي الغد الحي صباح الحياه
يأبها الجبار لا تزدري فالحق جبار طويل الأناء
يغفى وفي أجفانه يقظة ترنو الى الفجر الذي لا تراه

ثم تنضج عواطف الشاعر وتتركز ، وتسير أدواته الفنية نحو
الاكتمال ، فتستبين شخصيته بما فيها من تشاؤم ، وحزن ، وانطواء ،
وتنضج صورته ، ويصبح لشعره معجم خاص ، تصنعه عاطفته
المتوهجة ، بعد أن نسي ألفاظ القاموس التي كان يدخرها ،
ويجرب براعته في استعمالها ، وبذلك أصبح الاطار الفني طوع
الفكرة الناضجة والعاطفة المركزة.

يبدو ذلك في قصائده "بقايا الخريف"، و "أغنية الشاعر"، و "في فجاج الألم"، و "مناجاة عصفور"، و "إلى الموت" وما يتلوها، حيث يركز الشاعر على معانيه التي ابتكرها، وألفاظه التي اشتقها، وهنا يقلع عن الجري وراء التجديد، وهنا أيضا يتسلسل التجديد إلى شعره عفوا، وبلا كبير معاناة ولا تكلف، وبذلك يكون طبيعيا، لأن التجديد في طبعه وليس بالتصنع.

ويكاد الناظر في ديوان "أغاني الحياة" يقطع بأن هذه المرحلة القلقة تنتهي بهذه الأبيات من قصيدة "صوت تائه":

يأبى الساري لقد طال السرى حتام ترقب في الظلام نجوما
أتخال في الوادي البديع المرتجى هيهات لن تلقى هناك مروما
سر ما استطعت فسوف تلقى مثلما خلفت ممشوق الغصون حطима

هنا تنتهي هاته المرحلة لتبدأ مرحلة جديدة في حياة الشاعر وفنه، وليس معنى ذلك قيام حد حاسم يفصل بين المرحلتين، فمرحلة الحياة متداخلة ومتفاعلة، وحياة الفنان - كحياة كل إنسان - متدفقة كأمواج النهر، ولكن المدارس يستطيع أن يلمح في فترة من فترات حياة الفنان غلبة سمات معينة، يمكنه منها أن يضع علامات على طريق هذا الفنان، يقيس بها مدى التطور - أو الانتكاس - في مراحل فنه، فهناك تدرج قد يكون بطيئا وقد يكون سريعا، قد يكون واضحا وقد يكون غائما، قد يكون قليلا وقد يكون كثيرا، لكنه ملحوظ على كل حال.

ومن هنا نستطيع أن نتتبع المرحلة التالية في حياة الشابي وفنه، فالى اللقاء مع المرحلة الثانية من شعر الشابي.

- المرحلة الثانية :

إذا كنا قد وجدنا في شعر الشابي سمات رومانتيكية حادة في المرحلة الأولى من حياته الفنية، ورأيناه يحنو نحو التجديد الحقيقي، وتسلل الى شعره ملامح جديدة، فإننا نلاحظ في المرحلة الجديدة من شعره سمات تقربه من النضج، وتجعل منه شاعرا متميزا القسما ، متفردا الشخصية.

في هذه المرحلة وجد الشاعر نفسه ، واهتدى الى النعمة الصحيحة، ففي قصائده : " نشيد الأسى "، و " قلت للشعر "، و " يابن أمي "، و " أغاني التائه " بدايات تختلف قليلا أو كثيرا عن شعر المرحلة الأولى الذي ألممنا به سابقا.

ففي هذه القصائد وتواليها نضج أكثر في العبارة والصورة والفكرة، وتركيز أكثر في العاطفة ووحدتها الواضحة، وانطلاق من قيود التجربة التي خاضها ليصبح شاعرا مجددا وأصيلا.

نحن نحس بشيء جديد فعلا حينما نستمع الى قصيدته " نشيد الأسى " التي يقول فيها :

ما للمياه نقية حولي وينبوعي مشوب ؟
ما للصباح يعود للندى وصبحي لا يؤوب ؟

ما لي يضيق بي الوجود وكل ما حولي رحيب ؟

... ..

مهما تضحكت الحياة فلإنني أبدا كئيب
أصغي لأوجاع الكآبة والكآبة لا تجيب
في مهجتي تتأوه البلى ويعلج النحيب
ويضج جبار الأسى وتجيئ أمواج الكروب
لاني أنا الروح الذي سيظل في الدنيا غريب
ويعيش مضطعا بأحزان الشبيبة والمشيب

فهنا تتركز العاطفة وتتحدا ، وتكامل الصورة التي ترسم
لنا تبرم الشاعر بالحياة ، ويأسه منها ، والانساق وراء
أحزانه ، وتواءم الايقاعات مع أحزان الشاعر ، ففيها
الحدة ، وفيها النبرة العميقة التي تنقل الى القاريء احساسا
عميقا بالألم والاكتئاب والكروب.

وفي قصيدته "قلت للشعر" مناجاة شخص ينطوي على
نفسه ، ويطوي جوانحه على أحزانه ، منعزلا عن الناس ،
لا يجد من يناجيه الا شعره الذي يعايشه ، ويقاسمه آلامه
ومسراته ، فهو سلوته الذي يشاركه عنت الدهر ، ويسري
عنه قسوة الأيام :

أنت يا شعر قصة عن حياتي أنت يا شعر صورة من وجودي
أنت يا شعر - ان فرحت - أغاريدي ، وان غنت الكآبة غودي
أنت يا شعر كأس خمر عجيب أتلهى به خلال اللحود

أتحساه في الصباح لأنسى ما تقضى في أمسي المفقود
وأناجيه في المساء ليلهيني مرآه عن ظلام الوجود
أنا - لولاك - لم أطق عنت الدهر ولا فرقة الصباح السعيد
أنت ما نلت من كهوف الليالي وتصفحت من كتاب الخلود

وفي قصيدته "يابن أمي" يخاطب في الانسان حريته التي
هي هبة الله، ويهيب به ألا يتخلى عنها، وفيها تتمثل الطلاقة
والانسياب والرؤى المجنحة، وتعميق جوانب الصورة بالإلهام
عليها، والخلاص من قيود الصنعة الى حد كبير:

خلقت طليقا كطيف النسيم ، وحرا كنور الضحى في سماه
تغرد كالطير أنى اندفعت ، وتشدو بما شاء وحي الاله
وتمرح بين ورود الصباح ، وتنعم بالنور أنى تراه
وقمshi - كما شئت - بين المروج وتقطف ورد الربا في رباه
كذا صاعك الله يابن الوجود ، وألفتك في الكون هذي الحياة
فمالك ترضى بذل القيود ، وتحني لمن كبلوك الجباه ؟
وتسكت في النفس صوت الحياة القوي اذا ما تغنى صداه
ألا انهض ، وسر في سبيل الحياة ، فمن نام لم تنتظره الحياة

بهذا التحرر وهذا الانطلاق ، وبهذه الدعوة المججلة الى
التمرد ينطلق الشاعر ليمجد الانسان الذي لا يراه مدينا لأحد،
وليس ابن أحد، ولكنه "ابن الوجود".

وهكذا يسير الشاعر ، صاعدا من قمة الى قمة ، فيرق شعره ،
ويعذب ، ويقوى ، ويتماسك ، وتتمثل فيه الثورة ، حتى يصبح

هو نفسه بين عشية وضحاها قمة من القسم في الشعر العربي المعاصر.

وإذا كان قد برز في هذه الفترة من ثلاثينات هذا القرن شعراء كثيرون في مصر وفي بلدان الشرق العربي، خضعوا لنفس المؤثرات التي خضع لها الشابي، وتشربوا دعوة التجديد التي دعت إليها مدرسة الديوان، وشاركوا في مسيرة جماعة أبولو، وأصبحوا عصارة لهذا التجديد — فإن الشابي يتميز بلون منفرد عن هذا الرعيل من الشعراء المجددين، يتميز بعذوبة الآراء في شعره، بانسياب موسيقاه، بتخير ألفاظه، بتلوين صوره، بالتعبير المباشر عن عواطفه الحزينة.

ان حرارة العاطفة، ودفع الكلمة، ومتانة النسيج، ورقة النغم، وجدة الصورة قد أصبحت أكثر وضوحا في شعر الشابي، تتميز بها بين شعراء جيله، وبها استطاع أن يسيطر على قاريء شعره، وأن يفتح مغاليق القلوب العربية بأيسر مما استطاع أي شاعر آخر.

فحينما نقرأ قصائده: "صلوات في هيكल الحب"، و"أراك"، و"قلب الأم"، و"من أغاني الرعاة"، و"الصباح الجديد" — تهتز جوانحنا طربا، وتكاد تشف، وتطير مع أخيلة الشاعر المجنحة، وموسيقاه الراقصة، ونحن نتذوق جرس الألفاظ التي تشكل نسيجا شفافا ومتماسكا لصورة بديعة تصنعها ريشة فنان موهوب.

وحيثما نقرأ "حديث المقبرة"، و "في ظل وادي الموت"، و "الجنة الضائعة"، و "السعادة" - نأسى مع الشاعر على الصورة القائمة الحزينة التي يلسون بها حواشي الحياة، ويعيدنا بتشاؤمه، ويقنعنا بفلسفته التي ترفض الحياة.

وفي قصيدة "ارادة الحياة" بالذات نحس الشاعر بطلا من أبطال الأساطير، يحطم القيد، ويشور على الضعف، ويكاد يهز الدنيا بزثيره، ويستثير الكائنات من حوله، يدعوها الى القوة بكامل معانيها، ولهذا أصبحت أشهر قصائده التي تتردد بقوة واعتزاز في أسماع العالم العربي.

وبمثل قصائد "حديث المقبرة"، و "ارادة الحياة"، و "تحت الغصون"، و "فلسفة الثعبان المقدس" - يقدم الشاعر مشاركة لها قيمتها في الشعر القصصي، وفي اللون الحوارى بصفة خاصة، حيث يجري الحوار الجذاب المركز الهادف الى تكوين الفكرة المقنعة من أقرب طريق، وبشوق القارئ الى المزيد، ويجعله يسلم لمنطق الشاعر في يسر وسهولة.

أما موقف الشاعر من شعبه فيشكل قضية تختلف فيها أوجه الرأي: هل هو كاره لشعبه، يجاهره العداء، ويحقره ويزدرجه، ولا يعترف أنه من بين شعوب العالم جدير بالحياة والحرية والتقدم؟ هل يبادل الشعب عداء بعداء وإهمالا بإهمال؟ هل ينتقم على شعبه ما جرعه من مرارة الحرمان والجهود؟

كل هذا يدور في خلد قاريء شعر الشابي، وخاصة قصيدته :
” الى الشعب “، و ” النبي المجهول “.

لكن المتأمل فيما وراء الالفاظ يجد الشابي أحرص ما يكون
على حرية شعبه وعلى تقدمه، الا أنه حينما يثور على الرجعية
والجمود والتخلف لا يجد غير الشعب من يتوجه اليه بشرف
الخطاب، أو من يوجه اليه العتب، انه في الظاهر يعنف بالشعب،
ويواجهه باللوم، لكنه في الواقع يشكو اليه، ويستعديه على
كل النقائص وكل المعوقات، وكل عوامل التخلف، ويصارحه
مصارحة رائعة وفدائية وحريصة على حرية الشعب ومستقبله
وتقدمه ولكن بطريقته الخاصة، وبأسلوبه الاستنهاضي المثير،
لا يتملق، ولا يداجي، ولا يسير في الركاب، وهو الذي يستحث
شعبه في قصيدته ” ليت شعري “ التي يقول فيها :

يا بني الأوطان هبوا فلقد طال الوجوم
وانهضوا نهضة جبار بعزم مستقيم
لست أبغي نهضة العاجز يتلوها الحسوم
ليت شعري: هل سحاب الجهل تذروه العقيم
فترى الأعين بدر العلم قد شق الغيوم
ليت شعري يا بلادي هل تصافيك العلوم

أما تشاؤم الشابي فهو تشاؤم الرومانتيكيين الثائرين على
الحياة، الطامحين الى الكمال في كل شيء، وهو ينتهي دائما
بالجوء إلى الطبيعة، يغنيها، ويستمتع الى ألحانها ، بين

خريـر الجـداول، وعـبـير الصـنوبر، وسـقـسـقـة العـصـاـفـير، وهـو
يـغـنـي مـعـها فـي قـصـيـدـتـه ”أحـلام شـاعـر“، حـيـث يـقـول :

لـيـت لـي أن أـعـيـش فـي هـذه الدنـيا سـعـيـدا بـوـحـدـتـي وآنـفـرـادـي
عـيـشـة لـلـجـمـال ولفـن أبـغـيـها بـعـيـدا عـن أـمـتـي وبـلـادـي
وبـحـسـبـي مـن الأـسـى ما بـنـفـسـي مـن طـرـيـف مـسـتـحـدث وتـلـاد
وبـعـيـدا عـن المـدـيـنة والنـاس، بـعـيـدا عـن لـغو تـلك النـواـدي
فـهـو مـن مـعـدن السـخـافـة والإفـك، ومـن ذاك الـهـراء العـادـي
أين هـو مـن خـريـر سـاقـية الوادـي، وخـفـق الصـدى، وشـادـو الشـادـي
وحـفـيف الغـصـون نـمـقـها الطـل وهـمـس النـسـيم للأـوراد
هـذه عـيـشـة تـقـدـسـها نـفـسـي، وأدـعو لـمـجـدهـا وأنـادـي
وفـي هـذا المـجـال يـقـول مـن قـصـيـدة لـه بـعـنـوان ”السـعـادة“ :

وإن أردت قضاء العيش في دعة شعـرية لا يـغـشـى صـفـوها نـسـم
فاترك إلى الناس دنياهم وضجتهم وما بنوا لنظام العيش أو رسموا
واجعل حياتك دوحا مزهرا نضرا في عزلة الغاب ينمو ثم ينعدم
واجعل لياليك أحلاما مغردة إن الحياة وما تدوي به حلم

فهو يسأم حياة الناس وما فيها من لغو وفضول، وما يغشها
من زيف، ويلجأ إلى الطبيعة يحتمي بها، ويعايشها، ويناجيها،
على طريقة أشبه ما تكون بنزعة جبران، فالطبيعة — كما
يقرر روسو — هي الأم الرعوم، وهي المعلم الأول.

والطبيعة عند الشابي لوحة رائعة لا تشوبها شائبة، ولا يحف بها
كدر، وكل ما فيها حلو محبب، وأروع ما فيها أنها تتردد به

الى الطقولة بما فيها من جمال ، وكل ما في الطقولة جميل ،
وأجمل ما فيها عبثها ولهوها وسذاجتها المحببة :

أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل وسحر شاطئه المنير
ووداعة العصفور بين جداول الماء النير
أيام لم نعرف من الدنيا سوى مرح السرور
وتتبع النحل الأنيق ، وقطف تيجان الزهور
وتسلق الجبل المكمل بالضوبر والصخور
ونظّل نعبث بالجليل من الوجود وبالحقير
بالسائل الأعمى ، وبالمعتوه والشيخ الكبير
بالقطعة البيضاء ، بالشاة الوديدة ، بالحمير
بالعشب ، بالفنن المنور ، بالسنايل ، بالسفير
بالرمل ، بالصخر المحطم ، بالجداول ، بالغدير

هذه هي الحياة الطبيعية التي يأوى اليها الشاعر كلما أجهده
المسير في دروب الحياة ، وكلما ثارت بأزماتها ، وأثقلت
كاهله تبعاتها ، خاصة وقد خفت بحياته الأمراض ، وغربة
الروح ، ومكابدة الرجعية التي عاشتها بلاده ، قبل أن تصبح
في عداد البلاد الحرة المناضلة الساعة الى التقدم .

- المرحلة الثالثة :

في عرضنا لشعر الشابي ألمنا بمرحلتين من حياة الشاعر وفنه ، والآن نلسم بالمرحلة الثالثة التي كونت الصورة النهائية لشعر الشابي وبلورت شخصيته.

ونود أن نشير هنا الى أن الباحث التونسي أبا القاسم كرو مؤرخ حياة الشابي ومتتبع آثاره قسم شعر الشابي الى مرحلتين زمنيّتين : مرحلة ما قبل العشرين ، ومرحلة ما بعد العشرين ، لكنه لم يقدم لنا أساسا فنيا أو تاريخيا يبرز هذا التقسيم (1).

ونحن هنا نعتمد على ما لمسناه من ملامح فكرية وفنية لكل من المرحلتين السابقتين ، ثم على تقرير الشابي نفسه وهو يعبر عن احساسه بأن شعره يدخل طورا جديدا في مرحلة أخيرة من حياته.

فلقد مرت به أزمة نفسية في نهاية عام 1933 ، بدأت على أثرها مرحلة جديدة في حياته نستطيع أن نسميها مرحلة القوة.

يقول الشابي في إحدى رسائله الموجهة الى صديقه محمد الحليوي في التاسع عشر من ديسمبر عام 1933 : " الفرق

(1) التقسيم الذي ذهبت اليه ، ما زال هو الاصح .. وهو قائم على أساس تاريخي وفني إشرت اليه في مكانه ، وهو ما ذهب اليه المؤلف هنا .. لكنه حاول إيجاد قسم ثالث مع انه سيعترف بتداخل المراحل وصعوبة التمييز بينها .

بينني وبين نفسي الأولى أني كنت أقبّل آلام الحياة وأنحسس
أشواكها بنفس ضارعة وقلب دامع، أما الآن فأنني ألقاها
ببسمه الساخر، ونظرة الحالم المتشّي بجمال الوجود، وقد
أحسست ببداية هذا التطور لما اصطفت بعين دراهم، ولعل
جمال الطبيعة هناك كان له الأثر الأكبر في تلوين نفسي بهذا
اللون الجديد، كما أن مصيفي هذا العام، وما رأيته فيه
من صور الطبيعة الرائعة قد أكمل هذا التطور ونمّاه، أما
الآن فأنني أشعر بانقلاب عميق قوي في نفسي كل القوة،
وستدرك هذا التطور في نفسي حينما تطلع على قصائدي الجديدة،
وقد عبرت عن هذا الانقلاب الروحي بقصيد "الصباح الجديد"،
وقصيد "نشيد الجبار"، وهو صورة صادقة لنفسي في
طورها الحاضر الجديد.

ويجيئه الحليوي معلقا على قصيدة "الصباح الجديد"،
قائلا: "اني لأحيى بهذا القصيد طورا جديدا دخل فيه
شعرك، فبعد التشاؤم القائم حل المرح والابتهاج، وبعد
الليل والظلمة أطل الصباح الجديد، وأنت في طريقك الى
التسامي الى قمة الفن السامقة، لأن التشاؤم الصادق ينتهي في
الغالب بالفرح الصوفي، والبهجة الروحية.

ونحن قد لاحظنا في الحلقة الأولى من هذه الدراسة أن
شعر الشابي بلغ أوج غزارته وأوج قوته في عام 1933، الذي
حدث فيه فترة التحول التي يتحدث عنها الشاعر.

واذا تتبعنا إنتاج الشاعر في الفترة التي أحس فيها بهذا التطور منذ قصيدته "الصباح الجديد" نجد شعره يتسم بالمرح والانطلاق والمغامرة، والتفاؤل، وقوة الإرادة، والاقبال على الحياة، ويتخلى فيها عن الملامح الرومانسية المتسمة بالهروب من المجتمع، واللجوء الى الطبيعة، والانزواء عن الحياة والأحياء، والعتب على المجتمع، والحساسية المفرضة التي تبحث عن الكمال المطلق في دنيا الناس.

وتصبح صور الشاعر واقعية وعميقة، وبعيدة عن الرمزية الضبابية، كما تصبح موسيقاه أكثر اتزاناً، وقد تخلت عن الصخب المجلجل والرقعة المتهافنة.

فقصيدته "الصباح الجديد" تفيض بالتفاؤل الذي يمحو نزعة تشاؤمه ليبدأ مع الحياة في الظاهر رحلة جديدة، ينشر فيها شراعه، ويغامر في بحر الحياة الجديدة بسواعد قوية، وإرادة تتحدى الأيام والآلام، وتنتصر على بأساء الحياة وضرائها لقد رضي عن الحياة، ورضيت عنه الحياة، فانطلق يغني لها :

واسكني يا شجون	اسكني يا جراح
وزمان الجنون	مات عهد النواح
من وراء القرون	وأطل الصباح
قد دفنت الألم	في فجاج الردى
لرياح العدم	ونثرت الدموع
معزفا للنغم	واتخذت الحياة

أُتَغْنَى عَلَيْهِ	فِي رَحَابِ الزَّمَانِ
وَأَذْبَتِ الْأَسَى	فِي جَمَالِ الْوُجُودِ
وَدَحَوْتَ الْفُؤَادَ	وَاحِدَةً لِلنَّشِيدِ
وَالضِّيَاءَ وَالظَّلَالَ	وَالشَّذَا وَالْوُرُودِ
وَالهَوَى وَالشَّبَابَ	وَالْمَنَى وَالْحَنَانِ
فِي فُؤَادِي الرَّحِيبِ	مَعْبُدًا لِلْجَمَالِ
شِيدَتْهُ الْحَيَاةُ	بِالرَّؤْيِ وَالْخِيَالِ
فَتَلَوْتُ الصَّلَاةَ	فِي خَشْوَعِ الظَّلَالِ
وَحَرَقْتُ الْبُخُورَ	وَأَضَاتُ الشَّمْعِ
أَنْ سَحَرَ الْحَيَاةُ	خَالِدًا لَا يَزُولُ
فَعَلَامُ الشُّكَاةِ	مَنْ ظَلَامٌ يَحُولُ
ثُمَّ يَأْتِي الصَّبَاحُ	وَتَمُتُّ الْفُصُولُ
سَوْفَ يَأْتِي رَيِّعُ	أَنْ تَقْضَى رَيِّعُ
مَنْ وَرَاءَ الظُّلَامِ	وَهْدِيرُ الْمِيَاهِ
قَدْ دَعَانِي الصَّبَاحُ	وَرَيِّعُ الْحَيَاةِ
يَا لَهُ مِنْ دَعَاءٍ	هَزَّ قَلْبِي صَدَاءُ
لَمْ يَعْدْ لِي بَقَاءُ	فَوْقَ هَذَا الْبَقَاعِ
الْوَدَاعُ ... الْوَدَاعُ	يَا جِبَالِ الْهَمُومِ
يَا ضُحْبَابِ الْأَسَى	يَا فَجَاجِ الْجَحِيمِ
قَدْ جَرَى زُورْقِي	فِي الْخَضَمِ الْعَظِيمِ
وَنَشَرْتُ الْقَلَاعَ	فَالْوَدَاعُ ... الْوَدَاعُ

وقد كانت هذه القصيدة في الواقع تمهيدا رائعا لقصيدته
” ارادة الحياة “، التي دوى مطلعها، وما زال يدوي في سمع
العالم العربي، وهذا المطلع يمثل اللحن المميز لسفونية
الثورة، ولما وراءها من معارك الصحة، والدعوة الى القوة
الغلبة التي لا تقهر، وقد أصبح بمثابة الشعار والدستور الذي
انطلق الشعب العربي تحت ندائه ليحقق حريته وذاتيته،
لكن ما وراء الشعار أروع وأقوى :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر في جوها وانذر
فويل لمن لم تشقه الحياة من صفة العدم المنتصر
كذلك قالت لي الكائنات، وحدثني روحها المستتر
ودمدت الريح بين الفجاج وفوق الجبال وتحت الشجر
إذا ما طمحت الى غاية لبست المنى، وخلعت الحذر
ولم أتجنب وعور الشباب، ولا كبة اللهب المستعر
ومن لم يحب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر
فعجت بقلبي دماء الشباب، وضجت بصدري رياح أنحر
وأطرقت أصغى لقصف الرعود، وعزف الرياح، ودمع المطر؟
وقالت لي الأرض لما سألت : أيا أم هل تكرهين البشر؟
أبارك في الناس أهل الطموح، ومن يستلذ ركوب الخطر
وألعن من لا يماشي الزمان، ويقنع بالعيش عيش الحجر
هو الكون حي يحب الحياة ، ويحتقر الميت مهما كبر

فلا الأفق يحضن ميت الطيور ، ولا النحل يلثم ميت الزهر
واولا أمومة قلبي الرؤوم لما ضمت الميت تلك الحفـر
فسويل لمن لم تشقه الحياة من لعنة العدم المنتصر

وهو كذلك في قصيدته " نشيد الجبار " ، يصارع الحياة صراع
الجبابرة ، ويتمحدي القدر ، ويصر على النصر ، وسط ضغوط
الازمات الصحية وصراعات الأزمات النفسية ، لكن ذلك لا
يعوق صوته أن يجلس وسط الأعاصير :

سأعيش رغم الداء والأعداء	كالنسر فوق القمة السماء
أرنبو إلى الشمس المضيئة هازنا	بالسحب والأمطار والأنواء
لا أرمق الظل الكئيب ، ولا أرى	ما في قرار الهوة السوداء
وأسير في دنيا المشاعر حالما	غردا ، وتلك سعادة الشعراء
أضني لموسيقى الحياة ووحيتها	وأذيب روح الكون في انشائيء
وأصبح للصوت الالهي الذي	يحيى بقلبي ميت الأعداء
وأقول للقدر الذي لا ينشني	عن حرب آمالي بكل بساء
لا يطفئ لهب المؤجج في دمي	موج الأسى وعواصف الأرزاء
فأهزم فؤادي ما استطعت ، فانه	سيكون مثل الصخرة الصماء
لا يعرف الشكوى الدليلة والبكا	وضراعة الأطفال والضعفاء
ويعيش جبارا يحقق دائما	بالفجر ... بالفجر الجميل الثاني

هذه هي النماذج التي يقرر الشابي أنها تحمل ملامح المرحلة
الجديدة في شعره ، وهي ولا شك بارزة فيها بوضوح .

لكن هذه المراحل في حياة الفنان — كما أسلفنا — تتداخل

وتتفاعل، فلا ينتقل من مرحلة الى أخرى فجأة، وان ظن ذلك، ولهذا فأنا أعتقد أن هذه الملامح ظهرت في شعر الشابي قبل تلك الفترة الزمنية التي حددها ، ومن أشهر القصائد التي تنتمي الى هذه الفترة والتي برزت فيها هذه الملامح الفنية قصيدته " صلوات في هيكل الحب "، التي تنساب فيها الموسيقى الراقصة، وتتابع فيها الصور السريعة، وتنضج العاطفة، وإن كان الخيال الرومانسي مازال يغرق الصورة في تياره، فيجعل من الحبيبة طيفا ملائكيا ليس من دنيا البشر(1):

عذبة أنت، كالطفولة، كالأحلام، كاللحن، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك، كالليلة القمرء، كالورد، كابتهام الوليد
يا لها من وداعة وجمال وشباب منعّم أملود
يا لها من طهارة تبعث التقديس في مهجة الشقى العنيد
أنت... ما أنت؟ أنت رسم جميل عبقرى من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وعمق وجمال مقدس معبود
أنت ... ما أنت؟ أنت فجر من السحر تجلى لقلبي المعمود
أنت روح الربيع تختال في الدنيا فتتهز رائعات السورود
وتهب الحياة سكرى من العطر، ويدوي الوجود بالتغريد
فيك شب الشباب وشحه السحر، وشدو الهوى، وعطر الورود
وتراءى الجمال يرقص رقصا قدسيا على أغاني الوجود
خطوات سكرانة بالأناشيد، وصوت كرجع ناي بعيد
وقوام يكاد ينطق بالألحان في كل وقفة وقعود

(1) هنا يعود المؤلف فيقرر ما ذهبنا اليه في دراستنا وتقسيمنا لشعر الشابي .

كل شيء موقع فيك حتى لفنة الجيد واهتزاز النهود
أنت ... أنت الحياة في رقة الفجر، وفي رونق الربيع الوليد
أنت ... أنت الحياة، كل أوان في رواء من الشباب جديد
أنت دنيا الأناشيد، والأحلام، والسحر، والخيال المديد
أنت فوق الخيال والشعر والفن، وفوق النهى وفوق الحدود
هذه هي الحبسية التي جمع لها الشاعر كل عناصر الطبيعة ،
المتألفة والمتناقضة، وسواها طيفا لا وجود له إلا في خيال
الشاعر، ولكن ماذا يقول فيها العالم المادي وهو يناجيها :
يابنة النور انني أنا وحدي من رأى فيك روعة المعبود
ولا نترك هذه الزهرة التي نشقنا بعض عبيرها الا الى زهرة
أنضر، هي " من أغاني الرعاة " :
أقبل الصبح يغني للحياة الناعسة والربا تحلم في ظل الغصون المائسة
والصبا ترقص أوراق الزهور اليابسة
وتهدى النور في تلك الفجاج الدامسة
أقبل الصبح جميلا يملأ الأفق بهاء فتمطى الزهر والطير وأمواج المياه
قد أفاق العالم الحي وغنى للحياة فأفريقي ياخرافي ، وهلمي يا شياه
واتبعيني يا شياهي بين أسراب الطيور واملأي الوادي ثغاء ومراحا وجبور
واسمعي همس السواقي ، وانشقي عطر الزهور
وانظري الوادي يغشيه الضباب المستنير
واقظني من كلاً الأرض ومرعاها الجديد
واسمعي شبابتني تشدو بمعسول النشيد

نغم يصعد من قلبي كأنفاس السورود
ثم يسمو طائرا كالبلبل الشادي السعيد
لك في الغابات مرعاك ومسعاك الجميل
ولي الانشاد والعزف الى وقت الأصيل
فاذا طالت ظلال الكلا الغض الضئيل

فهلمي نرجع المسعى الى الحي النبيل
وهي لوحة يتجلى فيها سحر الطبيعة وتأثيرها على الشاعر بلا تزييف ،
وهي نابضة بالفرحة والتفاؤل والإقبال على الحياة المرححة السعيدة
ولكنها أمنية لطيفة ، حيث تمتزج فيها أحاسيس الشاعر ، فلا يدري
أيسمعها أم يراها ، أم يحتسبها ، ولكن الذي يدريه أنه يعيشها .
الواقع أن اقبال الشابي على الحياة مثل انصرافه عنها ، وتفاؤله
كتشاؤمه ، وأحزانه كأفراحه ، ورومانسيته كواقعيته ، كلها حالات
ومراحل تنضج بفن الشاعر ، وتقصح عن عبقرية أصيلة ، لا تخونه
ولا تتخلى عنه (1) .

نرجو بهذه اللقطات المخاطفة أن نكون قد قدمنا قار ما
استطعنا جانباً من جوانب حياة هذا العبقرى العربى الذى قصرت
أيامه فى هذد الدنيا ، واستطالت ظلالها لكنه لم يغادرها الا بعد
أن سجل أروع الآيات فى سجل الخلود ، وترك فى أمته ذكرى
معطرة بالكفاح ، ستظل تملأ الأفق العربى بأنسام العبقرية ،
وأصداء الحرية ، والأمل فى حياة أفضل ، ومستقبل أكثر أمناً
وحرية ورخاء وسلاماً .

(1) هذا أيضاً ما ذهبنا إليه ، هناك حالات تعترى الشاعر وليست أطواراً فاصلة .

الفصل الثاني

علي الدوعاجي ... قصاصاً ورحالة

تمهيد

علي الدوعاجي قصاص ورسام وشاعر تونسي، له لون ينفرد به عن بقية القصاصين التونسيين، بل ان لقصصه مذاقا خاصا، يتميز به عن كتاب القصة المعاصرين في أنحاء العالم العربي.

فقصصه - في الغالب - لقطات سريعة، ولمحات طريفة، تدل على روح فكاهية أصيلة في الدوعاجي، كما أن قصصه تحمل في بعض الأحيان طابعا خشنا، يعكس الجموح وراء اللذة، وهو يصور حياة تونس المعاصرة وأخلاق أهلها، وقد هيا له اتصاله المستمر والعميق بطبقات الشعب ثروة غنية من الصور والأفكار الأصلية.

وبهذا يعتبره النقاد أبا للقصة التونسية المعاصرة عن جدارة وبدون منازع.

توفي علي الدوعاجي عام 1949 عن أربعين عاما، وكان قد نشأ في أسرة ثرية متدينة، تملك الأموال والعقارات، ولكنه فقد والده في سن مبكرة، فعنيت أمه بتربيته، ووفرت له

أسباب الحياة الرغدة، إلا أن تعليمه لم يتجاوز المرحلة الابتدائية، حيث قرأ القرآن، وتعلم مبادئ اللغتين العربية والفرنسية.

وأراد علي أن يشتغل بالتجارة، فأبت عليه أمه ذلك، ورفضت أن تمنحه التمويل اللازم لمشروعاته التجارية، وأراد أن يمارس الزراعة، لكن أمه كانت حريصة على أن يواصل تعليمه، ولما اشتد الخلاف بين علي وأمه ترك بيت الأسرة، واشتغل عاملاً في متجر أقمشة، ثم ترك العمل في المتجر، وهام على وجهه، وأراد أن يحقق لنفسه حياة مستقلة، واختلط بطبقات الشعب الكادحة، وعاش الفقراء، وأحس بقسوة الحياة وعذابها، وعاش ضائعاً مقهوراً بعد وفاة أمه.

واجتذبه الفن والأدب، فبدأ يكتب المسرحيات والقصص والأشعار، عندئذ دفعته الحاجة الفنية إلى مواصلة القراءة والاطلاع، والتردد على المجالس الفكرية والأدبية، والاتصال بمشاهير أدباء عصره وشعرائه وصحافيه، مثل أبي القاسم الشابي الشاعر، والطاهر الحداد الكاتب، ومحمود بيرم التونسي الشاعر الشعبي، وعبدالرزاق كركباكة الكاتب المسرحي، وزين العابدين السنوسي محرر مجلة "العالم الأدبي" التي شارك الدوعاجي في تحريرها، كما عمل في تحرير بعض الصحف الأخرى، وأصدر مجلة أدبية خاصة به، واندمج في مجموعة الأدباء البوهيميين، وقد أوحى إليه حياتهم بلوحات فنية رائعة.

كذلك تلمذ الدوعاجي على القصة الفرنسية والأمريكية

التي وسعت آفاقه الفنية، وغذت موهبته بالكثير من موضوعاتها
وحبكتها الفنية، مما جعله يصطنع الطريقة القصصية التي
يسمونها "عين الكاميرا"، لكنها لم تفقده شخصيته العربية
التونسية، بل استطاع هو أن يطوع هذا الفن لظروف البيئة
العربية، بالإضافة الى أنه كان يؤمن بروح البحث العلمي في
الميدان الجمالي، كما كان يؤمن بالأصالة في القصة، ولهذا
فهو لا يستعير لنفسه صورة ولا مضمونا من البيئات الأجنبية
عن بيئته، ولقد كشفت له الحياة البوهيمية الخاملة عن
طبيعة المجتمع التونسي، فصوره في قصصه ومسرحياته في
صور معقدة ، وأحيانا مؤلمة.

والدواعي يتخذ القصة وسيلة لدعم كفاح المكافحين،
وحفزهم على العمل والصمود في وجه استغلال المستغلين،
والتسرية عن قسوة الحياة وعنت المستعمر.

وللدواعي رأي في القصة، يحمله هذا التعريف الذي
وضعه لها حيث يقول : "إن القصة في حقيقتها صورة صادقة
لمنظر شاذ، وعلى شذوذه هذا لا يستغربه القارئ ولا يستنكره،
ومهمة كاتب القصة عرض الواقع البحث بكلمات واضحة نيرة،
وعليه أن يمسك زمام قلمه عن التعاليق الزائدة، وعن وصف
شعوره الشخصي، وعن الوعظ الثقيل".

وهو يطبق هذه الآراء في قصصه، اذ نجد فيها الكثير من
الشخصيات الشاذة، والصور النادرة الطريفة، ويعرضها بلا

تدخل ولا تعقيب، وبطريقة قد تبدو سليمة.
وهو وإن كان يستنكر تدخل الكاتب وتعليقاته والحديث عن
شعوره الشخصي في داخل القصة، إلا أن قصصه مفعمة بالنقد
الاجتماعي غير المباشر، وتلك خصيصة الفنان الأصيل.

والدوعاجي يمثل بسلوكه وبفنه المجتمع التونسي في
أواخر الثلاثينات وبداية الأربعينات من هذا القرن، وهو حامل
لواء الأدب القصصي التونسي المعاصر، ومنزله في فن القصة
تضارع منزلة أبي القاسم الشابي رائد الشعر التونسي المعاصر.

والدوعاجي متعدد الجوانب والمواهب الفنية، فهو رسام
وشاعر وصحفي وممثل ومخرج، وكاتب قصة ومسرحية. وهو
مؤمن بفنه، مخلص لأدبه وأفكاره الإصلاحية، وآرائه
التحررية، ومعتقداته التقدمية.

وفي حياته القصيرة نسيبا قدم للأدب التونسي المعاصر أكثر
من مائة وستين تمثيلية، وترك أكثر من ستين مسرحية، عدا
المسرحيات التي مثلتها له الفرق المسرحية المختلفة، وهي
تزيد على خمس عشرة مسرحية، اشترك هو بنفسه في تمثيل
بعضها، كما اشترك في إخراج البعض الآخر، وكتب أكثر من
خمس مائة أغنية شعبية تونسية، وترك عديدا من لوحاته
الابتدائية الرائعة.

على الدوعاجي ...

القصاص

ها نحن نلتقي بعلي الدوعاجي القصاص التونسي من خلال مجموعة قصص صغيرة ، لا تتجاوز صفحاتها المائة والستين، أصدرها نادي القصة التونسي بعنوان "سهرت منه الليالي"، نقرأ فيها ست عشرة قصة قصيرة جمعها النادي من بطون الصحف التي كان الدوعاجي ينشر فيها قصصه، صدرت بكلمة النادي، كتبها محمد العروسي المطوي باسم النادي، وقدمها عز الدين المدني بمقدمة تحليلية.

وعنوان المجموعة مأخوذ من عنوان إحدى قصص المجموعة، وعدا القصة الأولى شبه المترجمة، والقصة الأخيرة شبه الخيالية - فان بقية قصص المجموعة منتزعة من البيئة التونسية المحلية، ولكنها مرسومة على خلفية إنسانية عميقة وعريضة، ومفعمة بالاحساس الصادق بمشاكل الانسان المعاصر الممزق المطحون تحت أثقال الحياة، والذي يكافح باصرار ليخرج من واقع حياته المأسوية الى حياة أفضل، ولا يخفف من وقع المأساة الانسانية ومواقفها المحتدمة الاسخريفة الكاتب الذي ينتزع الفكاهة من بين ثنايا الأزمات، وينقلها في عبارات سريعة ورشيقة تهون من سخونة المواقف المأسوية.

على هذا النمط تجرى قصة « جارتى » التي تصور انسانا ضائعا، يثقل كاهله أن يجد إيجار مسكنه المتواضع ، ويلاحقه صاحب البيت صباح مساء ، وقلوح له بارقة أمل للخروج من فاقته في امرأة تنزل بالمسكن المجاور، وتظاهر بالثراء ، فيبدأ هو بالقاء الطعم وهو يعتقد أن الحياة ابتسمت له ، فيستدين ويستدين ليقدّم لها الهدايا، ثم يصحو أخيرا على الواقع وإذا هي . لا شيء ، ثم تتركه وترحل فجأة ، وتخلّفه للفقر والديون وصاحب البيت وجها لوجه.

ومن روائع قصص هذه المجموعة قصة « الركن النير » ، وهي تصوير لاوساط الأدب والفن والصحافة فى تونس فى فترة الأربعينات ، وفيها نرى رب أسرة فقير ، تطلب ابنته الصغيرة فى ليلة العيد خروفا تلعب معه كما يفعل أبناء الجيران، وهو لا يملك ما يلبي به رغبة ابنته المسكينة سوى دموعه، فيخرج الى المقهى ضيق الصدر، ويجيء مجلسه بالقرب من صحفي يحس بضيقه وزفراء صدره ويرى الدموع فى عينيه، وكان بين هذا الصحفي والراقصة المعروف ود مفقود جعله يخصص فى مجلته الأسبوعية عمودا ثابتا يشهر فيه بهذا الراقصة، ويصفها بالبخل وبرودة القلب.

ويجازف الصحفي، ويجرب تجربة قاسية بآمال هذا الرجل يسخر من الراقصة فيرسله إليها ببطاقة توصية ، عليها مساعدته فى تحقيق أمنية ابنته أو ينكشف بخلها أمام شاهد جديد ، وتسهم الراقصة فى شراء هذا الخروف الذى سيدخل السرور على قلب

الصبية المسكينة ليلة العيد، ولندع بطل القصة يحكي وقائع قصته :

« كانت الساعة الثالثة عندما ضغط اصبعي الزر المنبه، وفتح الباب حارس مغربي.. غاب قليلا، ورجع تصحبه صاحبة البيت.. سألتني عما أريد، فأجبته بالكلمة الواحدة التي تملأ قلبي وفمي : « أريد خروفا ».. ظهرت عليها علائم الدهشة، وكأنها استغربت أن يطلب خروفا من قينة ، وبين التخت والمسلخ ما بينهما من بعد ، ولكنها طلبت مني أن أتبعها، فتبعتها الى صالون فخم.. ثمين الرياش.. جلست على مقعد، واتكأت هي على طاولة.. وقصصت عليها خبري وخبر الصبية.. وكانت تنظر الى الأرض، فما رفعت رأسها حتى تبيت من خلال دموعها أنها تبكي بكاء هادئا مثلي ، وقالت ؟ :

— هيا نزل الى الحديقة.

نزلنا الى حوش خلف الكرمة ، به أشجار، وفيه خراف قائمة، وأخرى رابضة، في جملتها ما ينوف على العشرة.. ودخلت بينها، تجس ظهر هذا، وتربت على رأس هذا، وتدفع آخر برجلها.

— ها هو ذا الذي يصلح لأطفالك الصغار ، سيفرحون كثيرا بقرونه الطويلة الملتوية، وسيباهون به صبيان الحارة.

تقول هذا وهي تسمح بمسحها دموعا تساقط على خدها.

— أليس هذا رأيك يا أبت ؟

— الرأي ما قرين يا سيدتي.

— ألم تقل أن ابنتك الصغرى.. كيف سميتها لي ؟ راضية..
لها خمس سنوات، نعم هو ما قلته لي. لتأخذ أيضا هذا
العليلش لراضية. سوف يسرها، ألا تجد أنه وديع كبنتك..
هل هي كحلاء ؟

— نعم.. وجميلة كسيدتي، ولو كانت لا يمكن أن تضاهيك جمالا.
— هي أحسن مني الآن.

ثم كأن خاطرة فاجأتها. فسألني :

— أسمح لي بمرافقتك الى بيتك ؟ إني أريد أن أرى راضية
تقبل العليلش.

— البيت بيتك، والبنية ابنتك ان شرفت.

— لقد أرسلت في طلب عربية لتقلنا الى راضية.. هاتي جبلا
يا سيدة.. يا سيدة.

لا أنسى فرح مفيدة وهي ترى راضية تعانق الحمل بكلتا يديها
الصغيرتين، ولا أنسى فرح راضية بالحمل وهي تحتضنه تارة
وتقبله أخرى. ولا أنسى فرح الصبية إختوها وهم يزبنون
قرني الكبش بكل الرقائق من الألوان.

... الشكر لله الذي أبقى في قلب هذه القينة ناحية يضاء
ناصعة، ينيرها نور الحنان، وهو أبهى الألوان، وأكثرها تألؤا».

ومن هذه الروائع كذلك قصة « أمن تذكر جيران بندي سلم » ،
وهي تصوير للعادات الدينية ، والاحتفالات بالمولد النبوي ، وحالة
التعليم ، وكيف كانت تبذل له الحوافز من الاموال الموقوفة ،
ثم كيف كان جشع الأفراد يضيع الهدف من هذه الحوافز لولا
الحنان الانساني الذي أودعه الله في بعض القلوب .

ومضمون القصة أن صبيّا من صبية الكتاب الأذكىء كان
الخوف من عقاب المؤدّب يعقد لسانه ، فيتلعثم عندما يجيء دوره
في القراءة مهما كان حافظاً ، وجاء يوم المولد النبوي ، وجاء معه
موزع أموال الأوقاف ، ومنح كل صبي من صبية الكتاب نصف
ريال ليستعين به على تجهيز طعام الموسم الذي يتبارى صبيان
الكتاب في تديره صبيحة المولد ، لكن المؤدّب الجشع اقتطع
من نصيب إبراهيم ثلث ريال عقوبة له بحجة أنه لا يحفظ القادر
الواجب عليه من الدروس ، وعاد الصبي كسيرا ، لأنه لن يستطيع
أن يحتفل بالمولد كبقية زملائه ، لكن ابن المؤدّب الذي كان
رفيقا لإبراهيم أفضى بهذه الواقعة الى أمه زوجة المؤدّب الورعة
التقية ، وحالما انتهت من صلاة العصر خلف زوجها تسلمت الى
كيس نقوده فسرقت منه لأول مرة في حياتها خمسة ريبالات ،
وأرسلت الى إبراهيم فطيت خاطره ، وأعطته الريالات الخمسة ،
ولما أصبح الصباح كان الطعام الذي جاء به إبراهيم أفخم الأطعمة
التي جاء بها بقية الصبية ، ومن تلك اللحظة تعلق قلب إبراهيم
بتلك السيدة المحسنة ذات القلب الكبير ، لكنها ماتت بعد عامين
من تلك الواقعة .

لقد مضى على وفاتها ثلاثون عاماً، ومع ذلك فمن المؤلف أن يرى الناس ابراهيم على قبر هذه السيدة يوم المولد من كل عام يجلس الى القبر وينشد أمامه « أمن تذكر جيران بلدي سلم »، وهو مطلع قصيدة البردة « المشهورة بنفس النعمة التي اعتاد صبيان الكتاب أن يرددوها بها، وبين الحين والحين تشاقت الدموع من عينيه، وفاء لهذه السيدة.

وقصة « مجرم رغم أنفه » مأساة انسان مظلوم أوقفته الأقدار على طريق الجريمة، فاقتربها على الرغم منه دفاعاً عن فتاة لم ترع له واجب الوفاء، وهو لا يجد من يستمع الى مأساته، وكان العالم يصم آذانه حتى عن مجرد الاستماع لهاته المأساة.

وقصة « سهرت منه الليالي » التي سميت بها المجموعة قصة انسانية عميقة، تكشف عن جانب الحنان الانساني لدى المرأة المحبة لزوجها، فرغم ما تلقاه من سوء عشرته، وقبيح معاملته وشراسته، ورغم الشكوى المريرة من أفعاله، ومن اعوجاج سلوكه وقسوته - لا تستطيع أن تستمع الى نصيح خالتها بفراقه، ويغلبها الحنان عليه، فلا تطيق أن يرقع صوت بالقرب من غرفته ينغص عليه نومه.

أما قصة « نزهة رائقة » فهي تصوير لمعاناة الحياة في رحلة كان المفروض أن تكون ترفيهية، فاذا فيها من المتاعب والمنغصات والمفارقات، ما جعلها كارثة يستعاذ بالله من وقائعها، لولا أسلوب الكاتب

في معالجتها، وسخريته من كل متاعبها، وتهكمه بكل صعابها، ولولا شخصياتها الكاريكاتيرية المحببة التي تقنعك بانها من صميم الحياة.

وهذه القصة رمزية، تشير الى تفوق الإنسان وانتصاراته في النهاية على مآسي الحياة، مادام قادرا على التفاؤل، مصرا على أن يهزم كل الصعاب وكل المعوقات بالأمل والكفاح.

وشخصيات الدوعاجي كلها شخصيات إيجابية متفائلة، تنتزع الخير من بين عناصر الشر، تعيش حياتها نابضة بالحب، والدوعاجي يجيد تصويرها بطريق الاستبطان، لأنها ليست غريبة عليه، وهو فنان ماهر، يستطيع بالخطوط القليلة أن يبرز ملامحها الأصلية، ويجعلها تنبض بالحرارة والدفء والإيجابية.

وهو لا يهتم بالخطوط التقليدية، فلا يعمد الى تأزيم المواقف، ولا يعبأ بتصعيدها الى الذروة، ثم تلمس الحلول، ولكن قصصه تكاد تكون مسطحة ومع ذلك لا تعدم فيها جانب التشويق التلقائي من خلال أحداثها وأشخاصها.

والشخصيات التي تتحرك في قصص الدوعاجي كلها من الطبقة الكادحة المتفوقة التي تحاول كسر القوقعة، والصعود الى موقع افضل والمؤلف لا يجد عناء في الاهتمام اليها، لانها تقف دائما على طريق قصصه الواقعية، وهو يحبها، ويحنو على أخطائها، ويغفر لها انحرافاتهما.

وصور الدوعاجي صور ساخرة، لأنه مولع بالسخرية من الأحداث ومن الأشخاص، وحتى من نفسه، وكأن هذه السخرية في طبعه تعويض له عما لقي من مرارة الحياة، ووسيلة للارتفاع فوق أزماتها.

بهذه الموضوعية والواقعية، وبهذا التفاؤل والإيجابية، وبعمق التصوير وبساطته، وبالتعبير الرقيق والمركز، يعتبر علي الدوعاجي أباً شرعياً للقصة التونسية المعاصرة بلا جدال.

على الدوعاجي ...

الرحالة

للرحلات بين فنون الأدب العربي مكانة مرموقة، ولها نفس المكانة في الآداب العالمية.

ولقد كان كتاب المغرب والأندلس أكثر الكتاب حفاوة بأدب الرحلات في القديم.

فمنذ كتب ابن بطوطة وابن جبير وابن خلدون رحلاتهم انعكست صورة الرحلات على الأدب العربي، وظلت تروى وتبهر، حتى في عصور تخلف الفنون الأخرى في هذا الأدب. واليوم نجد الأدب التونسي المعاصر يحتفي بهذا اللون أكثر من احتفائه ببقية الفنون الأخرى.

فقائمة الكتب التونسية تحفل بالكثير من كتب الرحلات التي اهتم بها كبار الكتاب، وأعاروها الكثير من الجدية والكثير من المجهود.

ومن أشهر كتاب الرحلات التونسية المعاصرين محمد السنوسي في كتابه « الرحلة الحجازية »، و « الاستطلاعات الباريسية »، ومحمد بلخوجة في كتابه « سلوك الابريز في مسالك باريس »، و « الرحلة الفاليرية »، و « الرحلة الناصرية »، والمقداد الورتثاني في كتاب « البرنس في باريس ».

ولكل من هؤلاء نزعتة ومزاجه الخاص في موضوعه وعرض مشاهد رحلاته، والزوايا التي يلتقطها، لكن علي الدوعاجي ينفرد بين كتاب الرحلات التونسية بلون جديد في كتابه الذي سماه « جولة بين حانات البحر المتوسط »، اذ يقول في مقدمته : « سوف لا أحدثكم هنا بما اعتمدتموه في كتب الرحلات من ذكر غرائب المناخف، ونتائج المعامل، وأعماق البحار، وعجائب الطبيعة، وشواهد الجبال، وأعماق الكهوف. كذلك سوف لا أصف الشوارع والميادين والحدائق والعمارات.. لأن رحلتي إنما كانت للتسلية، ولا أطمع من وراء تدوينها الا تسلية القراء، أما اختياري للعنوان « جولة بين حانات البحر المتوسط » فهو تقرير لحقيقة ما قمنا به في جولتنا على موانئ البحر الزاهر، فإننا لم نر من هذه الموانئ الاحانات ومقاهيها، ولا أحسب الحديث عنها يسئم أحدا أبدا »

لقد بدأ الكاتب هذه الجولة عام 1933، طاف فيها بتونسكا، ونابلي، وبيره، وأثينا، والدردييل، واسطنبول، وأزمير، فماذا وجد الكاتب في هذه الموانئ غير ما استبعده من مشاهد الرحلات التقليدية، وكيف صور ما رآه بأسلوبه الساخر الرشيق ؟

لقد التقط في هذه الرحلة صورا انسانية عميقة، وخلع على المشاهد الطبيعية من ذات نفسه ومن حيوية فنه ما جعلها تنبض بمكنوناتها.

من بين الشخصيات الرائعة التي قدمها شخصية السيدة المحبة للاستطلاع الشغوفة بمعرفة كل شيء عن كل شيء، والتي سماها

« مدام المعرفة الكاملة » ، وكأنها سترشح نفسها يوما لإدارة هذا الكون، وهي تظهر فجأة في أي مكان، وتنقض على أي تجمع، وتملأ على الرحلة كل آفاقها، وكأنها الملح لا يغيب عن أي طعام.

والشخصية الثانية شخصية المدرس المولع بتوزيع المعلومات وتصحيح الوقائع، والتعقيب على كل شيء، والاعتراض على كل شيء، ولهذا سماه « حامض المعارضة ».

وشخصية مصطفى كمال، الذي جعل من تركيا الشرقية الوقور الضعيفة دولة أوربية قوية، مضحكة.

وشخصية الفتاة مود، التي قامت له بمهمة الدليل في بعض زياراته، فشغلته بجمالها وفتنتها عن التأمل في الأكروبول، وهو يقول عنها : « إنها تنسيك زيارة الجنة فضلا عن الأكروبول ».

والى جانب التقاطه للشخصيات فهو كذلك يلتقط المفارقات، ويبرز ما فيها من طابع الفكاهة، ويصنع منها لوحات أدبية رائعة عامرة بالحياة، تضارع أنضر لوحات الخيال.

والى جانب الشخصيات الإنسانية التي تبدو وكأنه يتكرها أو يخلق عليها سمات خاصة، نجده يعطي للمدن شخصيات حية متحركة تشبه الشخصيات البشرية.

ها هو يلتقط شخصية مدينة نيس ، فيضعها في هذا الإطار الجميل : « مدينة نيس غانية جميلة، ترتدي أزهى فساتين السهرة الثمينة، وفي جيدها عقد من أجمل العمارات والحدائق النظيفة.

نيس مدينة الزهور والغرور ، مدينة الشباب الجذاب المرح ،
والكهولة المثرية .

نيس مدينة البذخ والرفاهية ، مدينة الحب الإبليسي ، مدينة
الشهوة الإنسانية ، مدينة القمار والانتحار .

المرور من رصيف الى رصيف آخر عملية يحسب لها ألف حساب ،
والنظر من وجه غادة الى أخرى عملية يحسب لها ألف دقة
قلب .. » .

أما مدينة نابلي فلها شخصية أخرى تنجسد في هذه اللوحة :
« نابلي مدينة جميلة تقع تحت رحمة الله ثم رحمة بركان فيزوف
وهو بركان دائم الغضب ، دائم التدخين ، لا أظنه يدخن السجائر
الإيطالية ، فهي غالية الثمن جداً .. » .

وأما شخصية اسطنبول فهي موضوع في إطار السخرية
الليذة التي وضعها فيها أتاتورك ، يقول المؤلف :

« تضحك وأنت تحول في شوارع اسطنبول ، إذ يعترضك فلاح
تركي قدم للعاصمة يبيع محصولاته ، يرتدي سراويل شرقية ،
وصدرية عليها شملة صوف حمراء ، ويتنعل بلغة صفراء ،
وعلى رأسه كاسكيت سبور من قماش انجليزي .

أو ترى جنازة أجد عباد الله ، وعلى النعش تابوت يكسوه
الكشمير المزخرف وعلى التابوت من جهة رأس الميت حيث كان
يوضع الطربوش أو عمامة الميت تجد قبعة من القش الإيطالي .

وتضحك العجوز السافرة، وهي جالسة أمام بيتها بفستانها
الأسود، وهي تدخن النارجيلة في حركات بطيئة، حاملة
بماضيها، حينما كانت في الحريم، بينها وبين الشارع ثلاثة
دهاليز، في كل واحد أغصان، لا تفارق عيناه الأبواب والنوافذ.
وبضحك المؤذن وهو يطل من أعلى المئذنة، داعيا إلى صلاة
الجمعة، وعلى رأسه قبعة كنصف بطيخة.

إنها عادات شرقية استغربت، فاستغربتها، فأضحكني « .
وللدردنيل صورة شعرية رائعة، حيث يفصل بين قارة أوربا
وقارة آسيا عشرون مترا من الماء، فكيف تصورها الكاتب وهو
يخوض هذا الشريط المائي؟ « جلست على مقعد في مقدم السفينة
أنظر إلى القارتين نظر المتزوج بامرأتين، فكنت أرى في زوجتي
اليمنى آسيا الشرق بأسراره ورموزه، بما في الشرق من روح
كبيرة سامية، بما في الشرق من نحل وديانات ومذاهب، الشرق
يقصوره وجواهره ولآله..

وكانت زوجتي آسيا فتاة ممشوقة القامة، سمراء اللون في
قليل من الصفرة، سوداء الشعر، بعينين نجلاوين ساحرتين...
ترتدي الثياب الدمشقية المطرزة بالقصب والجوهر، عليها رسوم
صينية تتحلى بأنفس الثواقيت والزبرجد واللىء من أعماق الخليج
العربي والمحيط الهندي، وشامخات جبال منشوريا، معطرة بعطور
السند... أمامها القبان يعزفن لها ألحانا شجية، وهي غارقة في
مطالعة الخيام شاعر الشرق، وأمامها منضدة من خشب الأرز

المطعم بالابنوس الأنامي والأصداف والمرجان، وورجيلة من البلور الاسطنبولي، تدخن من غليونها الصيني تبغ شيراز ومقدونيا، وهي هادئة الحركات، لا تنقل نظرها عن كتاب الرباعيات الا لتلقي به على الصور الملونة بالألوان الصارخة في سجاد بخاري، أو على الآيات الكريمة المكتوبة بخط كوفي على القيشاني الذي يكسو الجدار.

وكنت أرى في زوجتي اليسرى أوروبا الغرب بمصانعه وآلاته وعدده ومداخله التي خلقتها المادة والنظام والمطبعة والعقل الهادئ، تحت سماء ممطرة، على أرض يكسوها الجليد تسعة أشهر في السنة.

وقطار الشرق الذي يقوم يوميا من باريس الى اسطنبول، يسير بسرعة تسعين ميلا في الساعة، يشق جبالا، ويخترق بحورا وأنهارا على جسور وقناطر من فولاذ وإسمنت، وحمولته آلات المدنية والموت الزوأم، من آلات صناعة وازهاق أرواح، من أسلحة بيضاء وحمراء وآلات تلفزة، وصناديق أدوية، وأحدث كتب العلم والحب..

زوجتي أوروبا شقراء جميلة، بجسم رياضي، بيضاء اللون، ذات عينين زرقاوين صافيتين، ترتدى فساتين السهرة الرشيقة، منسوجة من حرير خشبي، وجوارب من حرير بلوري، وحذاء من جلد الثعابين الاصطناعي.. جالسة على مقعد من جلد، قوائم من الكروم، في أفخم نزل سويسري، جدرانها وسقفها من الإسمنت المسلح، وأبوابه ونوافذه من بلور لا ينكسر.. وهي

تتسلى بالتفرج على المتزلقين على الثلج. تدير باصبعها زر المذيع
لتسمع الرومبا والفالس، يعزفه تحت بوهيمي، به مائة وستون كمانا.

هذا ما كنت أراه في زوجتي آسيا المكحلاء السمراء،
وزوجتي أوربا الشقراء البيضاء.. » ..

فهذه لقطات عابرة من جولة الدوعاجي في حانات البحر
المتوسط، التي أراد بها نقتل المتعة التي أحسها الى قرائه، واختار
منها تلك المشاهد المسلية والطريفة، لم يكلف نفسه في هذه
الجولة عناء البحث عما وراء المتعة، ولم يكلف قارئه كثيرا
من الجهد في حل طلاسم الرحلة ومعمياتها، بل أورد
الصور الطريفة والرائعة مما رأى، لكن وراء ذلك عمق
نظرة الكاتب، وطرافة التعبير، وجاذبية التشويق، مما لا
يمكن « أن يستثم أحدا أبدا » كما يقول المؤلف.

وبهذا اختط الدوعاجي أسلوبا جديدا في فن الرحلات
في الأدب العربي المعاصر، كان يمكن أن يكون رائدا فيه
لسواصل السير، ومن يدري، فربما يكشف الباحثون التونسيون
عن نصوص ما زالت مخطوطة أو مبعثرة في بطون الصحف من
رحلات الدوعاجي.

وأيا ما كان فإن قارئ هذه الجولة لا يخطئ فيها شخصية
الدوعاجي بما تحمله من فن أصيل، ولوحات رائعة، تكتمل
بها جوانب هذا القصاص الرسام الشاعر، الذي برز في معظم هذه
الفنون، وترك بصماته بقوة على صفحات الأدب التونسي المعاصر.



الفصل الثالث

كتب تونسية أخرى

أبو القاسم كرو

في كتابه : « حصاد القلم »

بالأمس تعرفت الى الاديب الكريم، الأستاذ أبو القاسم كرو، في دراسته الممتعة، التي قدم بها أبا القاسم الشابي في حالة من أشعاره، الى العالم العربي الحفي المشغوف بالأدب الأصيل وأعلامه.. فأعجبت به، وحمدت له السعي، وشكرت له الجميل... واليوم أتعرف إليه مزيد تعرف في كتابه الجديد : « حصاد القلم ».

هذا الكتاب كلمات الى العرب في مختلف ديارهم، كتبت في ظروف متفاوتة، فتلقفتها الصحافة والإذاعات العربية، لا لأن فيها جديدا على العرب أو غريبا عنهم فحسب، ولكن لأنها مع ذلك تتميز بالصدق والصراحة وتعبّر في بساطة عن آمال العرب وآلامهم.

وبعض هذه الكلمات يرجع الى سنوات، وبعضها من بنات اليوم، ومنها ما كتب في بغداد ومنها ما كتب في تونس أو ليبيا.

ولكن مهما اختلفت بها المناسبات والميلاد، فإن طابعها لا يتغير لأن أباهما واحد، ذو عقيدة ثابتة، وإيمان وثيق بالعروبة والاسلام، يخطو في هذه الكلمات الى هدف، ويخطر على بصيرة : لا تخونه ولا تخدعه.

وهو في سبيل ذلك يحاول أن يبدأ من جديد.. يصوغ الفكرة العربية أناشيد، يوشك أن يطلب الى العرب في كل مكان، أن يرتلوها صلوات يسبحون بها بكرة وأصيلا.

وله قلم يطاوعه في أي ميادينها خاض.. في السياسة أو الاجتماع أو الفن أو الادب، لأنه يهضم ذلك كله، ويخلع عنه طابع العمق المصنوع، وينضو عنه أغلفته الصماء، ويتخذ منه لونا جديدا، وشعارا مبسطا هادئا، يمشي به الى الجماهير العربية الكادحة المظلومة، التي بهظها الاستعمار، وأرهقتها الاستغلال، وآذاها الفقر، فألفت حياة متواضعة قانعة راضية، واعتملت في صدرها أحقاد السنين المكبوتة، وقرت على أوضاع مهينة توشك أن تؤيس المصلحين، فتخوفت كل صيحة، وارتابت في كل نصيح، وقعدت عن كل نصرة.

لكن صاحبنا لم يئأس، فنزل الى الميدان، يبدأ مع شعوبنا من أول الطريق، يلقيها مبادئ الوطنية، والدين، والحرية، والمساواة، والعلم، والفن، لينهض كل أولئك بإنسانيتهم نهضة تحررهم من الجمود، واليأس، والحرمان، والفوضى، والغفلة، والاستعمار.

فهو - في حسابنا - فاتح جديد لسجاهل العقل العربي، والوعي العربي، والقومية العربية في آونتها الحاضرة.

ومما يحمد له أنه منذ تلقف الكرة لم ينس المحور الذي يدور حوله ولم يغفل عن المنبع الذي تنفجر منه أمجاد الشرق الجديد المارجو، فهو يصطحب معه في كل خطواته ذلك المبدأ الذي اعتنقه، وآمن به، وسيلة لامتلاك ناصية الزمن..

لم ينس من أين بدأ، وأين يريد أن ينتهي.. من العروبة المسلمة،
والى العروبة المؤمنة بجنسها، وبنفسها.. أولاً وأخيراً..

يرشدها — في صراحة لا تحتل الدوران — الى أن سبيلها الى هذا
المجد المنتظر هو القوة.. والقوة وحدها.. قوة العقيدة، وقوة الخلق،
وقوة العلم، وقوة الرأي وقوة السواعد.

فهي المكفيلة بأن تحقق حقنا، وتزيف كيد المبطلين.

وهو واقعي، يؤمن بالمال، لا على أنه هدف الإنسانية، ولكنه
وسيلتها الى القوة والتحرر والمجد.

... متفائل، يؤمن بمستقبل الشباب العربي وقدرته، على
تحقيق المستحيل اذا وهب الفرصة وفتح له المجال، ونحيت من
طريقه العقبات التي تعوقه عن الهدف، وأوتي من الثقافة والوعي
والثقة بالنفس ما يؤتاه أمثاله من شباب العالم.

والمرأة عنده صاحبة دور إيجابي فعال في حياة العرب الراهنة،
يجب أن تعد لممارسته إعداداً قوياً قائماً على سياسة ثابتة، يتكافأ ومركزها
الخطير في مجتمع الامة العربية، ما دام الدين لا يعارض في أداء
مهمتها السامية، التي وكلت إليها، على مبدأ المشاركة الكريمة مع الرجل
فيما تصلح له، وفيما يليق بها من سبل الحياة الجديدة المتطورة.

والوحدة العربية — في أكمل صورها — هدف من أهدافه، فهي
التي تحدوننا الى منزلة من السعادة والعزة والجرية الجديرة بالامة
العربية في ماضيها المشرف، وحاضرها العتيد، ومستقبلها المشرق.

وليس الادب وشيعة من وشائج القرى بين العرب في مختلف
أصايرهم فحسب ولكنه لبنة قوية بها دعامة الحياة الانسانية، وله
في صميم حياة الناس العامة والخاصة مكانة لا يحتلها غيره، ولا
يغني عنه من مقومات الحياة شيء آخر.

ولسكي يؤدي الادب هذا الدور في حياتنا أداء كاملاً، لا بد أن
يتطور ويمتزج بحياتنا الاجتماعية امتزاجاً كاملاً يتفاعل معها، ويؤثر
فيها.. ومن أجل ذلك ينبغي أن يكون إنسانياً يهدف الى السمو
بالحياة، والنهوض بانسانيتها.

وللأدب في كل قطر عربي مشكلات عامة، وأخرى إقليمية،
يكابد ضغطها الادباء، ويحاولها كل على طريقته.
وقد استوعبت هذه المشكلات من التفات المؤلف الكبير الكثير
وله فيها محاولات ومحاولات.

* * *

هذه بعض المبادئ المطروحة في صفحات هذا الكتاب،
يلمسها القارئ بلا عناء، لأن صاحبها اتخذ إليها طريقاً سهلاً
هيناً، وقربها في الأسلوب السائع الميسر، بلا تعمل ولا كلفة.
كما سيحس القارئ في صوت المؤلف عذوبة همسات صديقه
الشابي وهمهمات نفسه الصافية في آلامه وقلقه، وفي آماله
وطموحه.

ويتضح في أنفاسه نبرات مهجيرية، وترانيم مصرية، وجرس
عربي خالص، تتجاوب كلها بالحن الانشودة العربية الكاملة،

وتنبئ عما يقرأ. وأين يقيم بحواسه، وأين يسبح بروحه ووجدانه، وكيف تمثلت آماله وتبلورت في كتابته، فكان صورة متعددة الجوانب للشباب العربي الاصيل.

وهذا الكتاب من قبل ومن بعد معرض للفكرة العربية. تبرز فيه شخصية الشباب العربي الطامح، المترن في طموحه، الواصل بنفسه، المؤمن بغده الزاهر، العامل في دأب على تحقيق مطامحه، غير هيب ولا مبال : أين وقعت قدمه من طريقه.. مع أقدام الناس أم على رؤوسهم، ما دام يسعى لغاية نبيلة، يعيش لها، ويفنى من أجلها، هي إعزاز العرب والتمكين للفكرة الاسلامية من رؤوسهم، تدفعهم وتحررهم وتعصمهم..

ذلك ما لمحتة في سطور الكتاب.. أما وراء السطور فمتروك للقارئ، إذ هو أعمق وأدق وأجدر بالنظر والتمعن، وأحق بأن يقف القارئ عنده متمهلاً.. فإنه لو فعل لظفر من هذا الكتاب بخلاصة لفلسفة الشباب الجاد الهادف الى بعيد.

ويقيني أن العربي المثقف سيجد صورة مقربة ميسرة لآماله الوطنية والاجتماعية والأدبية في كل ثنية من ثنايا هذا الكتاب.

ولست في حل من مزيد القول في الكتاب والمؤلف، ولكنني أرجو أن يكون فيه لشباب العروبة زاد، وأن يتخذوا منه ومن أمثاله عبرة اليوم، وسلاح الغد.

وبعد.. فهل تراني قلت ما كنت أحب أن أقول - أو ما كان ينبغي أن يقال - في الكتاب والمؤلف ؟

إن ذلك يستدعيني أن أطيل في الوقوف والتمعن والتقصي ،
ولسكنني مشفق أن أحجب المؤلف عن القارئ طويلا ، فلأترك هذا
المكان ، ولأخل المؤلف يتحدث الى قرائه ، حديث الصديق للصديق ،
هامسا إليهم همساته المحببة ، أو مجلجل الصوت جعللته المحببة
كذلك ، فإن للقارئ في كلا اللونين زادا ومتعة .

وما أحوجنا الى من يوقظ فينا كل قوانا .. كلها بلا استثناء .
الطيبة منها والشريرة البناءة والمدمرة على السواء ، ثم ينفض عنها
آثار السنين ، وأثقال القيود ، وآصار الاستعمار ، ثم يدفعها
في الطريق السوي تعمل .. وتعمل .. وتعمل .

وكتابنا لم يندخر قوة في هذه السبيل الموفقة إلا بذلها غير
ضنين ولا مخادع .

وحسبنا وحسبه : صدق البذل ، ونبل القصد... (١)

(١) هذا المقال كتبه المؤلف مقدما به كتاب « حصاد القلم » المطبوع في القاهرة
عام 1954 ، وهو تقديم لم يطلبه مؤلف الحصاد وإنما تطوع به الصديق
رضوان ابراهيم بطلب من المشرف على طبع الكتاب . ولم يعبر التقديم عن
فحوى الحصاد بقدر ما عبر عن آراء المقدم الشخصية . « ك »

أبو القاسم كرو :

فى كتابه عن عبد الرزاق كربانة

سلسلة اعلام المغرب العربى

ان اصدار هذه السلسلة هو عتاب موجه الى القراء .
وتذكرة للعرب فى المشرق والمغرب ، لأنهم نسوا — بل اهلطوا —
حياة هؤلاء الاعلام الذين جاهدوا حتى أوجدوا للمغرب ثقافة ،
وكونوا له تراثا أصبح ملكا للثقافة الانسانية كلها . ومع ذلك
ظلوا مجهولين حتى فى أوطانهم ، بل حتى من معاصريهم .
وعلى الرغم من ان عامة القراء والمثقفين فى بلدان المغرب
يعرفون الكثير عن أقطاب الآداب العالمية ، ويعرفون قدرا ليس
بالقليل عن الأدباء المشاركة الا أنهم لا يعرفون القليل أو الكثير
عن اعلام المغرب .

وتريد هذه السلسلة أن تسهم فى التعريف بهؤلاء الاعلام .
لأن فى التعريف بهم ردا لاعتبار المواطنين المغربيين ، واعلاما
بأن فى المغرب العربى وبين رجاله من ناضلوا لكى يؤصلوا
للمغرب ثقافة ، ولكى يبنوا له أساسا صلبا من العلم والمعرفة
والأدب والفن .

وهذه السلسلة لا تقتصر على التعريف بالاعلام المعاصرين
وحدهم ، ولا تتناول الاعلام التونسيين فحسب ، لكنها تعرف

بالأعلام المعاصرين ، وتذكر بالرواد القدامى للمغرب في أوسع نطاقه الزماني والمكاني .

وفي مقدمة الأعلام الذين عنيت السلسلة بتقديمهم الشاعر القصاص المسرحي ، والصحفي والفنان عبد الرزاق كرباكة ، الذي ولد مع مولد هذا القرن ، وبارح هذه الحياة قبل أن ينتصف هذا القرن .

وجين يقدمه لنا المؤلف يبدأ فيلم بمعالم حياته ، وجوانب شخصيته ، فيحقق تسميته ومن أين جاءت ، كما يحدد مكان ميلاده وزمانه .

ان عبد الرزاق كرباكة ينتمي الى الأصل الاندلسي ، والى مدينة في شمالي مرسية تسمى باسم كرباكة ، وتنسب أسرته الى المعتمد بن عباد ، جاءت الى تونس مع موجة الهجرة التي أجبر فيها عرب الاندلس على أن ينزحوا عن ديارهم فرارا بدينهم وحياتهم .

في هذه الأسرة التي كانت تحترف بعض الصناعات الصغيرة نشأ هذا الشاعر ، وفي السابعة من عمره التحق بالمدرسة القرآنية ، وفي بداية هذه المرحلة من حياته ذاق مرارة اليتيم ، ففقد أباه ، لكن ذلك لم يثنه عن مواصلة تعليمه في المدرسة العرفانية ، وكان من أنجب تلاميذ المربي الشهير الشيخ محمد مناشو ، ثم انتقل الى الزيتونة ، لكنه لم يكمل الشوط الى

نهايته ، اذ تحول الى الحياة الأدبية والفنية والاجتماعية
والادارية والنقابية والاقتصادية ، وأخذ يغامر في الحياة بالطول
والعرض حتى غادرها في عام ١٩٤٥ •

وكان لكرياكه مشاركة ملحوظة في عدد غير قليل من
الأنشطة الادبية والفنية ، فهو شاعر متفوق ، وزجال بارع ،
وكاتب ، وصحفي ، وقصاص ومسرحي ممتاز •

وكان بشعره وأزجاله يعكس الحياة المعاصرة التي يحيها
دون تصنع أو اختلاق أو تزوير ، ولهذا كان يعكس التجارب
حية نابضة في نسيج قوى ، وروعة أخاذة •

ولقد انتقل هذا النسج القوى والديباجة المتماسكة التي
نثره ، فعنى بالجزالة والأناقة والفنون البلاغية ، مع الارتباط
بالواقع ، وان مال الى الرومانسية الحاملة •

وهو في قصصه ومسرحياته فنان محكم الصناعة ، جيد
السبك ، واسع الخيال ، وفي هذا السبيل أخذ من التراث المغربي
« عيشة القادرة » و « ولادة وابن زيدون » ، فنسجهما نسجا
جديدا يوثك من يقرأهما أن يحس فيهما بنبض العصر الحاضر •

وكان الى جانب ذلك يكتب قصصا قصيرة ينشرها في
الصحف أو يذيعها تحت عنوان « عبرة في قصة » ، ويعالج فيها
مشكلات الحياة اليومية ، ومسائل الاجتماع والسياسة ، مثل
قصصه « جريمة شهر زاد » ، و « أبو القحطط » ،

و « بدعة وحماد » ، وهى معرض للآراء الأصيلة فى شؤون الحياة المعاصرة •

وفى ميدان الصحافة كان كرباكة يشارك فى تحرير عدد من الصحف ، فى مقدمتها جريدة « المضحك » الفكاهية ، التى اصطنع فيها أسلوبه الساخر فى نقد الناس والمجتمع ، وكشف العيوب الاجتماعية ، واثارة المشاعر تجاهها ، وفى عام ١٩٢٠ أصبح رئيسا لتحريرها ، كما أصبح محررها الذى يكتب أشعارها وأخبارها ، وينسق حوادثها ، ويقترح لها الرسوم والصور •

وعندما توقفت جريدة « المضحك » شارك فى تحرير عدد من الجرائد منها جريدة « لسان الشعب » التى كتب فيها مقالاته الأدبية والاجتماعية الجادة ، ثم عمل رئيسا لتحرير « جريدة الزمان » عام ١٩٣٢ ، وفيها تبنى قضايا الطبقة الكادحة وأصحاب الصناعات والمهن اليدوية ، ووقف قلمه وجهوده على حماية هذه الصناعات من المضاربة ومزاحمة السلع الأجنبية لها •

ومن خلال عمله الصحفى اشتمق للصحافة شعارا يؤكد دورها الكبير فى قيادة الشعب •

وقد تمثل هذا الشعار فى البيتين التاليين :

اقرأ الجريدة راضيا أو سبها

لا شئ غير الحق يرضى ربها

شأن الصحافة أن تسير شعبها

نحو الهدى ، لا أن تساير شعبها

أما جهوده فى النهوض بفن الغناء لفظا ومعنى وعاطفة فهى جهود موفقة ، ارتفعت بالأغنية التونسية من وهدة الخلاعة والتبذل ، الى الدعوة للعمل والكفاح ، والى الرقى بعواطف الجماهير .

وفى المسرح شارك كرباكة ممثلا وكاتبا منذ عام ١٩١٩ فى جمعيات التمثيل ، وفى الفرق الفنية التى شارك فى انشائها أو ادارتها مثل « فرقة الهلال » وجمعية « الآداب » و « الجوق الكاملى » ، وأخذ يؤلف للمسرح التونسى روايات من أنواع الملهاة أو المأساة ، من بينها مأساة « أميرة المهدية » ، وغنائية « عيشة القادرة » ، ومأساة « ولادة وابن زيدون » ، وكان أكثرها باللغة الفصحى وبعضها بالتونسية الدارجة .

هذه الجوانب العديدة واللامعة التى تناولها مؤلف الكتاب فى سرعة وعمق جديرة بأن تجعل من صاحبها علما من أعلام النهضة الفكرية والفنية فى العالم العربى كله ، لافى تونس وحدها .

وهى جديرة من الشباب العربى بكل حفاوة وتقدير ، وجديرة بأن تجعلهم يتخذون من نضال صاحبها نموذجا للنضال الهادف لبناء الشخصية العربية فى جانب من جوانبها .

على أن مؤلف الكتاب لم يكتف بهذا الاطار العام ، بل تسلل الى خصائص هذه الشخصية ، والى دقائق حياتها ،

فمعرض من عناصرها ، ومن نواذرها وأقوال المعاصرين
والعاشرين للشخصية الشيء الكثير والممتع ، وخصص جانبا
كبيرا من هذا الكتاب الصغير لعرض نماذج من نثر كرباكة ومن
شعره وأغانيه العامة والفصيحة ، تحدد معالم شخصيته ، وتدل
على فلسفة صاحبها واتجاهاته وآرائه في الحياة والناس
والأحداث .

وكان كرباكة كان يندب حياته وينعى نفسه بهذه الأغنية
الحزينة في وقت مبكر :

بعد موتى عناصر الجسم تتحل تباعا ، وتستحيل رغاما
ثم تجرى المياه فيها فتبتل فيمتصها النباتات طعاما
فاذكريني اذا تكللت بالورد ، وان شئت فاذكريني دواما
غير انى بالورد أرنو على البعد ففيه هباء جسمي أقاما
وانشقيه فان فيه مزاجا عاطرا كان في فؤادي غراما

. سلام على كرباكة في الاعلام

وتحية لجهود كرو في المزيد من التعريف بأدب المغرب وأعلامه
المناضلين الخالدين .

محمد الفاضل ابن عاشور

في كتابه : « الحركة الادبية والفكرية في تونس »

صاحب هذا الكتاب هو سماحة العلامة المرحوم محمد الفاضل ابن عاشور مفتي الجمهورية التونسية، وعميد الكلية الزيتونية للشرعية وأصول الدين، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الذي فقدته تونس والعالم العربي في ابريل من عام 1970 .

وكتابه هذا من أوائل الكتب التي عرفت العالم العربي بالحركة الأدبية والفكرية في تونس المعاصرة، إذ هو حصيلة المحاضرات التي ألقاها العالم الراحل في معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية. بالقاهرة، وقد تولى المعهد طبعه ونشره في العالم العربي على أوسع نطاق، وبهذا حظي بما لم يحظ به أي كتاب تونسي من انتشار خارج تونس، وعلى مستوى البلاد العربية كلها.

وهذا السفر الذي تتجاوز صفحاته أربعمئة صفحة يحتوي على قسمين القسم الأول للبحوث والدراسات، والقسم الثاني يحوي طائفة من النصوص الشعرية والنثرية لأعلام الشعراء والخطباء والكتاب والصحفيين والمفكرين التونسيين المعاصرين.

ويمضي القسم الأول والأكبر في ثمانية فصول متتابعة.

ففي الفصل الأول يمهد المؤلف لموضوعه بالتعريف بالحياة السياسية والاجتماعية في تونس وكيف كانت تعيش قبل الاحتلال وماذا كسب شعبها من اصلاحات تمثلت في إنشاء المدرسة الصادقية وإصلاح جامعة الزيتونة، وافتتاح المكتبات وتشجيع الصحافة والطباعة في عهد الوزير خير الدين، وكيف عصفت الاحتلال بكل ذلك حينما دهم البلاد، واضطر رجال الفكر والأدب الى الانزواء لولا كفاح الأمجاد المؤمنين ببلادهم مثل الشيخ قبادو، وبيرم التونسي، وبوحاجب، والسنوسي، الذين حملوا أعلام الثقافة العربية في مواجهة الاستعمار.

وبمزيد من التفصيل يتحدث الفصل الثاني عن المدرسة «الخلدونية» وارتباطها بحركة التحرر التي شنها جمال السدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، والكفاح المرير بين المؤمنين بالشورى الفكرية وبين الاستعمار الذي أراد أن يحيل هذه المؤسسات الى معامل لتفريخ الكتبة وصغار الموظفين، لولا هممة البشير صفر الذي تزعم الحركة الثقافية وحشد لها خرجي الصادقية، ومنها نشأت الجمعيات الثقافية مثل الجمعية الخلدونية.

وكانت الصحافة من وسائل قيام حركة البعث الإصلاحي، وفيها ظهر الثعالبي والخضر حسين وغيرهما.

وقد ساعد على ذلك ظهور الحركة العلمية والتفاعل المستمر بين

مشرق الوطن العربي ومغربه، مما تكشف عن فنون جديدة من
الشعر، والنثر الفني والسياسي والعلمي.

ويخصص المؤلف الفصول الثلاثة التالية للحديث عن قدماء
الصادقية وأثرهم في الأدب والفكر والصحافة وحركات الشباب ويحلل
مظاهر التطور ونشأة الفنون الأدبية المختلفة والعوامل المؤثرة في ظهورها،
والروائع التي أنتجتها وآثارها في نهضة الفكر التونسي الجديد.

وفي الفصل السادس يتحدث عن الإذاعة التي أنشأت استجابة لوعي
الشعب وعن كفاحها في سبيل التحرر، وأثرها في الأدب والفن والفكر.

ويخصص الفصل السابع للإصلاحات التي تمت في جامعة الزيتونة
وكيف كانت هذه الإصلاحات استجابة لمركز هذه الجامعة وقوة
نفوذها في الأمة التونسية.

وبالفصل الثامن ينتهي المؤلف الى « الموقف الحاضر وآثاره »،
فيعالج الأوضاع التي كانت تعيشها تونس في تلك الفترة، والصراع
الثقافي بين الاستعمار والقومية، بحيث شكل هذا النزاع تيارا
ثقافيا خاصا بعيدا عن الصراع السياسي، والمؤلف يرى أن انتصار
تونس السياسي يؤثر تأثيرا عكسيا على الثقافة القومية، لأن الصراع
السياسي من وجهة نظره يحصن الثقافة العربية ويمنحها القدرة
على مقاومة الاستعمار الثقافي، وعلى العكس فإن المهادنة السياسية
تعني افساح المجال لاستقرار الثقافة الدخيلة بامكانياتها الضخمة
لإزاء الثقافة المحلية الوليدة.

ومن خلال هذه الفصول التي ألممنا بمضمونها في سرعة يعرض المؤلف بمزيد من التحليل والتفصيل واقع الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية والتعليمية في البلاد، ويعرف بمخفاياها تعريف العالم الخبير.

وفي هذا كان المؤلف يعكس إحساس أبناء تونس المثقفين بالواقع الذي كانوا يعيشونه، وما فيه من جوانب الصراع الذي يعانيه كل شعب ينجح في اغتصاب حريته من بين أنياب الاستعمار ويواصل نضاله لبناء مجتمع جديد يسعى بوطنه نحو التقدم، ويحاول أن يتمرّد على عوامل الجمود.

والمؤلف يرسم له طريق النهضة الأدبية، حينما يؤكد ضرورة الاعتصام بالعروبة، والاندماج في المحيط العربي العام، والتفاعل معه تفاعلا كاملا وذلك بتبادل بعوث الطلاب والأساتذة، وتشجيع الثقافة العربية الأصيلة، ومؤازرة الصحافة والإذاعة والمسرح، والعناية ببعث التراث العربي، ونشر المخطوطات القديمة، والمؤلفات الحديثة، وتشجيع الأقلام الموهوبة والاتجاهات الشابة.

وبكل هذا أفلح المؤلف في تعريف القارئ العربي في الشرق بتونس وواقعها والخطوات التي خطتها في طريق الأدب والفن والثقافة القومية، والأشواط التي بقي عليها أن تقطعها حتى تحمي ثقافتها من التيارات الدخيلة، وتلحق بالركب في البلاد العربية المتطورة، وتأخذ دورها الذي ينتظرها في إعادة صنع الحضارة والتقدم.

لقد كان أبو القاسم الشابي هو العنوان الوحيد الذي تعرف به
تونس، لكن هذا الكتاب قدم لنا عشرات من المفكرين
والأدباء يقفون في الصف مع أبي القاسم الشابي، وزادنا معرفة
بواقع تونس المعاصرة التي تسير بخطوات واسعة الى الأمام. (1)

(1) طبع الكتاب لأول مرة في القاهرة 1956 ثم أعيد في تونس بالتصوير.

محمد الفاضل ابن عاشور

في كتابه : « تراجم الاعلام »

مرة أخرى تتأكد هذه الحقيقة المعروضة، وهي أن أزمة الأدب التونسي تتمثل في انعزاله، وعدم معرفة الأدباء والنقاد المشاركة بقيمته الفنية وبميادين نشاطه، وقد ألمحنا من قبل إلى أن الأدباء التونسيين يحسون بمرارة وعتب على زملائهم الشرقيين، لأنهم لا يتفاعلون، بل ولا يفعلون بما ينتجه أقرانهم من أدباء تونس.

لهذا جند أدباء تونس ونقادها جهودهم لتعريف إخوانهم هنا وهناك بواقع الأدب الذي يعيش في تونس لكي يسدوا الفجوة الكبيرة بين الأدب التونسي وقرائه، ينفرد كل منهم بلون من ألوان التعريف، ولكنهم يلتقون على هدف واحد هو التعريف بهذا الأدب التونسي والفكر التونسي، والثقافة التونسية، والاعلام بمسيرة البلاد وبخطواتها في سبيل التقدم.

منهم من يعرف بالقيمة الفنية لهذا الأدب، ومنهم من يعرف بأعلامه، ومنهم من يجمع انتاجه، ومنهم من ينشر قرائه، وكل هذه خطوات على الطريق لكي يلتحم أدب المشرق بأدب المغرب ويتفاعل معه، ويأخذ منه ويعطيه، شأن كل آداب الاقطار العربية، التي تمارس التأثير والتأثر في سرعة تجاوبها، وعميق تفاعلها.

وفي القائمة اليوم كتاب جديد لرائد من رواد التعريف بالثقافة التونسية هو العلامة محمد الفاضل ابن عاشور، وكتابه «تراجم الأعلام».

لقد تناول في هذا الكتاب ثمانية وعشرين من شخصيات الأعلام المبرزين فعلا، والذين كان لهم أثر مباشر في حياة الشعب التونسي على مدى قرن من الزمان.

من بينهم عشرة من كبار علماء المسلمين هم أحمد الورتاني، والشاذلي ابن صالح، وأحمد بن الخوجة، وأحمد كريم، ومحمد السنوسي، ومصطفى رضوان، ومحمد المكي، وصالح الشريف وسالم بوحاجب، ومعاوية التميمي.

.. وثمانية من الوزراء هم: محمد خزندار، وخير الدين، والعزیز بوعتور، ومحمد الجلولي، ويوسف جعيط، وطاهر باشا، ومحمد حسين، وخليل بوحاجب.

.. وخمسة من رجال الدولة وكبار موظفيها وهم محمد البشير صفر، ومحمد الأصرم، ومحمد بن الخوجة، والمقداد الورتاني، ومحمد الفكياني.

.. وأربعة من رجال القضاء والافتاء هم الطاهر النيفر، وعمر ابن الشيخ، ومحمد بن يوسف، ومحمد بن الخوجة.

.. وفيهم أديب واحد هو محمد الشاذلي خزندار.

ومن هذا العرض نجد أن المؤلف قد اختار قطاعا معيناً

من الاعلام، هو قطاع القيادات السياسية والادارية والدينية، مما يوحي بأنه وضع حاجزا بين القارىء وبين المجتمع التونسي الحقيقي، ولكن هذا الايحاء ينتفي إذا عرفنا أن المؤلف قد اتخذ من هذه الشخصيات إطارا يعرض من خلاله تحركات المجتمع التونسي نحو الإصلاح والتقدم.

فهو في عرضه لحياة الوزراء يرصد أعمالهم الإصلاحية، ومدى ما قدموه للشعب التونسي من الآراء والأفكار والأعمال، ففي ترجمته لحياة الجنرال محمد حسين يقول إنه كان « مأخوذا بالنزعة الإصلاحية، شديد الغيرة على المصلحة الوطنية.. حنقا على الذين يبتزون جانبا من الثروة العامة للبلاد، ثم يلتجئون الى البلاد الأجنبية ».

وفي حديثه عن الوزير خير الدين يقول « نحيث عن وزارته التأسيسيات الحيوية العظيمة التي منها تأسس مدرسة الصادقية، وتعمير مكتبة الدولة ونظام العدالة، ونظام المحاكم الشرعية، وإصلاح نظام السجون، وتأسيس الخزنة العامة، والإصلاحات البلدية، والتنوير بالغاز، وإسقاط المغارم على أهل الساحل، والمعاهدات الجمركية لحماية الصناعات الأهلية، وتوسيع ساحة الأراضي المبذورة من 60 ألف هكتار الى مليون هكتار.. ».

وكذلك كان حديثه عن الوزير محمد العزيز بوعتور : « لما انتصبت الحماية الفرنسية بتونس تبين أن هذا الطور لا بد له من رجل متقرر الثقة، بعيد عن الريب والمخاتلات، قدير على تصور

الأمور، وتحاشي المشاكل قبل مواجهتها، مستعد لتلقي تأسيسات الحماية بما لا ينقض من كيان الدولة التونسية، ولا يضعف من ذاتيتها لتبقى متهيئة للنهضة؛ فكان من حظ البلاد أن دعي بوعتور إلى هذا المنصب الخطير في ذلك الوقت الخطير».

كذلك يقيس المؤلف مدى نجاح العلماء ورجال القضاء والإفتاء بما يقدمونه من إصلاح ديني، وما يكون في سلوكهم الشخصي والعام من قدوة ومثل عليا.

وفي تقييمه لرجال الدولة يعدد آثار كفاحهم فيما يقدمونه من سلوك وظيفي نظيف، وفي مدى حرصهم على أموال الدولة وسمعتها، ونزاهة الحكم فيها، وفي مواقفهم الصلبة لإزاء الاستعمار السياسي والاقتصادي والثقافي.

بهذا يجد القارئ نفسه مع الشعب التونسي، والمجتمع الذي يتأهب للإصلاح والتقدم من خلال هذه الشخصيات المؤثرة في المجتمع التونسي تأثيرا مباشرا.

وبالإضافة إلى هذا فان اهتمام المؤلف بالبيئة الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تعيشها الشخصيات باعتبارها الوعاء الذي أنبت هذه الشخصيات يجعل القارئ يعيش في الصميم من الحياة التونسية خلال قرن من الزمان، وبما يجري فيها من تيارات الإصلاح، ومن عوامل الانتكاس، دون محاباة لشخصية من الشخصيات أو تحامل على الأخرى.

وليست هذه التراجم تاريخاً للأحداث والأشخاص فحسب، ولكنها معاشة كاملة لحياة تونس في هذه الفترة، وعلاقتها بالبلاد وبالأحداث العربية والإسلامية والعالمية.

كذلك نرى المؤلف في عرضه للبيئة الخاصة لكل شخصية من هذه الشخصيات، يمهّد لتحليلها، ويعرض مكوناتها أمام القارئ لكي يتعرف على وقائعها وعلى خصائصها البشرية والفنية، وعندئذ تتحول الترجمة من مجرد السرد إلى الإحساس الذاتي بالشخصية والتعاطف معها، تبعاً لتعاطف المؤلف وحنوه على أشخاصه، وكان تعاطفه مع الشخصيات العلمية والأدبية كبيراً، وكان أكبر منه تعاطفه مع المعاصرين الذين عايشهم وأخذ منهم وأعطاهم، كما في ترجمته لمحمد الشاذلي نخرندار.

وفي كلمة مجملّة نستطيع أن نقول إن هذا الكتاب هو في الظاهر ترجمة للإعلام، وتعريف بهم، لكنه في الواقع إحاطة عامة بحركة المجتمع التونسي كله من خلال حياة هؤلاء الإعلام وسيرتهم.

ومن خلال هذه التراجم نلمح الشيء الكثير من حياة المؤلف وميوله ومكونات شخصيته، فنحن نراه يؤكد في سير أعلامه على العلم وقيّمته الحقيقية، وعلى الحرية وضرورتها للإنسان، والطموح إلى التجديد، والتمسك بالقيم الدينية والأخلاقية، ويتقدم على مادية الغرب المستعمر ويخشى منها على الثقافة العربية.

على أن هناك شخصية تبرز وتتسع حتى تحتوي كل هذه الشخصيات ، وتشكل قدرا مشتركا في مكونات معظم هؤلاء الأعلام، ودقائق حياتهم، هذه الشخصية هي شخصية جامعة الزيتونة، وتأثي على أثرها المدرسة الصادقية ثم الخلدونية، وفي المدارس التي كانت مصنعا لانضاج المفكرين والمثقفين والعلماء والأدباء وكانت المنارات التي احدثت بها البلاد، والتي عصمت ثقافتها العربية من أن تذوب في الثقافات الدخيلة على مدى هذه الفترة المخصصة من تاريخ البلاد.

إن كتاب تراجم الأعلام في هذه الفترة من حياة تونس وبهذا العرض الجلي المشوق يعتبر خير تعريف بالفكر التونسي والثقافة التونسية يقدم الى القارئ العربي في شتى الأقطار، اذ يضم في الواقع تعريفا بالأشخاص والمواقع والبلدان والأحداث وواقع الحياة كلها في آن واحد (1).

(1) طبع بتونس 1970 .

محمد الحايوى

فى كتابه : « فى الادب التونسي »

هذا الكتاب ولو أنه مجموعة متناثرة من المقالات الا أنه يجري في إطار واحد هو الأدب التونسي .

ومنذ البداية تبرز الشكوى من جهل المواطنين بواقع الإنتاج الأدبي في بلادهم ، وتجاهل الشرقيين لموقع الأدب التونسي من خريطة الإنتاج الأدبي في العالم العربي ، يقول المؤلف في مقدمة كتابه هذا : « ان الأدب التونسي عاش قرونا عديدة يأخذ من الأدب العربي ولا يعطي ، أو ظل قانعا بالأدب المصدر من عواصم الشرق دون ان يدخل يوما في حسابه » .

والمؤلف يحدد هدفه من إعادة نشر هذه المقالات في كتاب ، بأن هذه الثروة الضخمة من المقالات النائمة في بطون النشريات لما تستثمر بعد ، وأن هذا الكتاب جاء ليعين النشء على معرفة حقبة من تاريخ الأدب التونسي المعاصر تمتد الى ثلث قرن هي التي يمكن أن نسميها عصر الشايب ، وما كان يستولي على أصحابها من اهتمامات فكرية . والكتاب ينقسم الى أربعة أقسام :

قسم الدراسات الأدبية ، وقسم التراجم ، وقسم المناقشات ، أما القسم الرابع فيخصصه المؤلف للحديث عن القيروان .

وإذا كانت شخصية الشابي وعبقريته تستأثر باهتمام النقاد والمؤرخين، وتكاد تعطر القلم الذي يكتب عنها، فقد بدأ القسم الأول من الكتاب بدراسة لديوان الشابي في طبعته الجديدة. والمؤلف حين يتناول ديوان الشابي لا يحيط بجملته، ولكنه يلقي الضوء على زاوية معينة، ومن خلالها يخرج بمجمل آرائه وأفكاره عن الشابي وشعره.

فهو يركز على القصائد الجديدة التي تنشر في الديوان لأول مرة، بالطبعة الجديدة وهي تسع وعشرون قصيدة، لم تنشر في الطبعة الأولى.. وقد استبعدها الشابي نفسه من الديوان لأنها في رأيه لا تعبر عن أسلوبه أو روحه، بل فيها سذاجة كسذاجة الأطفال.

وهو يحلل محتويات هذه القصائد، ويصنفها الى مجموعات تتحدث عن موضوعات الموت والعدم والقدر، والفلسفة، والطبيعة والغاب، والغربة الروحية، والقلب والحب، والمجتمع، والشعب. ثم يتحدث المؤلف عن أطوار شعر الشابي ويخلص من دراسته بالمقررات التالية :

أولاً — أن الشابي يقف في صف واحد مع زعماء الرومانتيكية أمثال هيجو، ودي فيني، وجينه، وشاتوبريان، وبيرون، ولامرتين، وجبران، ونعيمة، وإيليا أبي ماضي، وإبراهيم ناجي.. وغيرهم، لتوفر العناصر الأصلية للرومانتيكية في شعره.

— أن ألفاظ الشابي وهو ينسقها ويركب منها صورته الشعرية تثير الإعجاب بقوة الشاعرية، لكنها لا تفلح في خلق الإيهامات

النفسية، ومع ذلك فهو في قصائد قليلة يقتصد في الألفاظ،
ليركز على تكوين الجو الإيجابي الملائم مثل قصيدته « إلى
عازف أعمى » التي يقول فيها :

وأدركت فجر الحياة أعمى	وكنت لا تعرف الظلام
فأطبقت حولك الدياجي	وغمام من فوقك الغمام
وعشت في وحشة تقاسي	خواطرا كلها حرام
وغربة ما بها رفيق	وظلمة ما بها ختام
تشق فيه الوجود فردا	قد عضك الفقر والسقام
وطاردت نفسك الماسي	وفر من قلبك السلام

ثانيا - أن موقف الشابي من الشعب، وما وجهه إليه من قوارع
ودمدات لم تكن انتقاما من الشعب الذي تجاهله، وإنما هي
رغبة واضحة وصريحة في الإصلاح، وتنبؤات بالمستقبل،
ودفع لاقتحام الحياة، وفض مغاليقها وتحطيم الحواجز التي
تعترض طريق المستقبل.

أما الموضوع الثاني فهو « النقد الأدبي المعاصر في تونس »، وهو
عملية رصد لحركة النقد، وإحصاء لما كتب، واستعراض لآراء الأعلام
الذين كتبوها في كتبهم وصحفهم وإذاعاتهم، وتقييم لهذه الجهود،
ومن خلال المقال نلتقي بآراء الكتاب متناثرة بين ثناياه.

وفي موضوع « الحركة الفكرية في تونس » يستعرض المؤلف
مظاهر هذه الحركة في وفرة الشعراء والصحف والجمعيات،
ونشاط الحركات الفنية والسياسية، لكن نواقصها كثيرة، تتمثل

في اهتمام الصحافة بفصائح المجتمع وخدمة الأقوياء، وقيام الأدب على التهريج والشعوذة والتهافت على الشهرة، وأزمة النشر، وانعكاسها على الأدباء، وتعلق بعض الأدباء للجماهير، وتخوفهم من الخروج على المألوف.

ثم يخلص الى أن النهضة لا بد لها من مقومات، هي النشاط المتخلص لتجميع الشباب، وتوجيهه بعيدا عن الخصومات والطائفيات، وانقاذ الشعب من الجهل، بافتتاح المدارس والأندية والمكتبات، وقيام العمل في ظل شعار : العزيمة، والإيمان، والإخلاص.

وفي دراسته لشعر الشاذلي عطا الله يحصر أغراضه في الروحانيات والطبيعة والوطنية، والقومية، واعتزازه بالوطن ورجاله ومعالمه ويميز شعره بمتانة البناء، وسلامة الذوق، واختيار الكلمات.

وفي القسم الثاني « مع أدبائنا الراحلين ».

يلم بحياة الأدباء والشعراء والمفكرين أمثال محمد البشروش الذي برز في الصحافة والقصة واتقان الفرنسية، وصالح السويسي تلميذ المؤيد والأفغاني ومحمد عبده، وداعية الاسلام على أساس الاستمسك بالعروة والدين المطهر، والاقبال على العلوم الحديثة.

أما الشيخ محمد بوشريه فيتتبع حياته العلمية والتعليمية وثورته على المناهج التعليمية ومطالبته بتطويرها، وتشاؤمه ونقمتة على الحياة، وطموحه الى تحرير بلاده.

وأما أحاديثه عن عبد الرزاق كرباكة، ومحمد العربي الكبادي فلا يدو أن يكون مرثيات عاطفية.

وعن محمد الفائز يلزم بنشأته واندماجه في الأوساط الأدبية، واشتغاله بالتعليم، ومشاركته في الصحافة والخطابة والأندية، ومطالبته بالإصلاح على أساس العودة الى مجد العرب .

وفي ترجمته لأبي الحسن ابن شعبان يتحدث عن انشغاله بالتعليم والأدب، وعن ذوقه الأدبي الذي جعله من فحول الشعراء.

أما القسم الثالث فيقوم على مناقشات لبعض القضايا، وفيه تتناثر آراء المؤلف في بعض الشؤون الأدبية والفكرية التي تجيء بمناسباتها، وتناخص في :

أولا - الدعوة الى تكوين أدب قومي.

ثانيا - لا سرقة في الشعر ولكن هناك طائفتين من الشعراء : شعراء الاختيار، وشعراء الشخصية، وشعراء الاختيار يستحضرون نماذج معينة وهم يكتبون أشعارهم، فتتوارد فيها الخواطر.

وتجري المناظرات بين المؤلف وبين الكتاب والنقاد حول قيمة التراث والأعلام القدامى، فيتحامل على ابن رشيق ويصفه بأنه جامع آراء، وليس ذا رأى أصيل، ويدافع عن الحريري ومقاماته، ويمجد ابن هانيء وشعره.

وأقوم آراء المؤلف هنا هو الدعوة الى النقد الموضوعي القائم على المبادئ والقواعد، والمعني بالتحليل في ضوء القيم الفنية والنزعة الإنسانية، واعتبار العمل الفني كلاً قائماً بذاته غير قابل للتفتيت. وفي الاستفتاء حول الشعر يرى أن الشعر الجديد سيعود من تلقاء نفسه الى الوزن بشكل أو بآخر، وإلى القافية ولو بالمزوجة ،

وسيصير الى انتقاء اللفظ الموحى، والتعبير بالصور بدل التعبير
التقري.

والثقافة العربية المعاصرة في رأيه تجتاز فترة القلق والحيرة،
وتبشر بالدخول في عهد الابتكار والخلق بعد أن تخطت دور
الاعجاب الابله بالغرب، ولا بد أن تتسم الثقافة الجديدة بالوحدة
والقومية والثبات والواقعية والتحرر والانسانية والجمالية.

وهكذا نجد عند تقييمنا لأقسام الكتاب منسوبا بعضها الى بعض
أن القسم الأول أهمها وأقيمها، لما فيه من موضوعات متكاملة،
وآراء أصيلة يليه القسم الثالث لاحتوائه على الآراء والافكار
الحررة التابعة من مناسباتها.

أما قسم التعريف بالراجلين فيغلب عليه طابع الرثاء العاطفي، فلا
يلقي الأضواء الكافية على الشخصيات وإن لم يدخل من قيمة
تعريفية بالأعلام وانتاجهم.

وأما القسم الرابع فهو مقتطوعات وحواريات وأشعار تسجيلية قليلة
تدور كلها حول القبروان مستطراأس المؤلف، وليس فيه كبير غناء.

ومع ذلك فنحن نسجل بالتقدير هذا الجهد الذي بذله المؤلف
من أجل التعريف بمقومات الأدب التونسي وأعلامه، خدمة
للمعرفة والثقافة، وغيره على الوطن والتراث. (1)

(1) طبع بتونس عام 1989 .

رشييد الذواڊى

فى كئابه : « أعلام من بنزرت »

الربة الأءبفة فى ءونس ءحمل من عناصر البءصوبة ما ففشر بعطاء وففر؁ كما ءحمل من ملامء ءءءفء ما فوؤف بالاستمرار فى ءعمفق مءرى ءفباراء الفكرفة الأصلفة.

وشباب الأءباء والمفكرفن فى ءونس فسفرون ببءطواء ءابءة ءءو ءأصفل وءر سفء؁ وءمكفن الأساس؁ والارءفاع بالبناء.

ومع اسءمرار الإنءاء ءءقلءف فى الشعر والقصة؁ ومع ارءفاع مء ءءءفء فى هءفن المءالفن فان الإنءاء الأءبف فى مءال ءءرف بالأرض والبشر فءءء لنفسه مءرى مءمفزا؁ فمئء الأساس ءونسف قوة وطافة على الاحءمال فى مءركة البناء.

فالعرف بالبلءان والأعلام فكاء فزءم عفك الطرف فى كل إقلفم وكل بلد من بلءان ءونس.

لكل بلد ءقالفء ومواسمه وأعباءه وطقوسه؁ ولكل مناسفة نءوة وملءقى لاءفاء المءالم والشءصفاء والأمءاء.

ولكل مءفنة — بل لكل قرفة — ءورها وأعلامها الءفن وهبوا ءفائفهم لاءرائها؁ وبءلوا نفوسهم لءءرفها؁ وأقاموا ففها للعلم سوقا؁ ولل فكر منارات.

وعن كل إقليم وكل مدينة وكل قرية كتاب أو باقة من الكتب،
تهدي إليك في سلة معطرة، كما تهدي الزهور والعطور والفواكه والتحف.
وأشهد أنها ليست مطبوعات دعائية أو سياحية، لكنها دراسات
علمية جادة، دبرتها أفلام متخصصة، مؤرخة ومتحمسة في نفس الوقت.
تونس العاصمة أشبه ما تكون بالأم في عرس بناتها، تبهر بأضوائها،
وتتبه بمسارحها ومغانيها، وتبرج بزینتها، وتشغل بما تشغل به عواصم
العالم التي تتجدد فيها الحياة كل لحظة، وحتى المؤسسات التاريخية
والمتحفية فيها تكاد تتجدد مع ما ينجم كل يوم من جديد.

أما عقب التاريخ وجلال العتق فهو هناك : في القيروان، حيث
يشع جامع عقبة، ويرتفع ضريح البلوي، وتستريح فسقية الأغالبة،
وتنتشر الحرف التقليدية في أسواقها ذات الماضي العريق.
وهناك على الطرف الآخر مدن تتمجد بعلمائها وأدبائها،
مثل قفصة، كبرى مدن الجنوب الغربي.

وهناك سوسة، عاصمة الساحل، وثالث مدن الجمهورية..

وهناك المنستير ورباطها التاريخي، وقصرها ومطارها..

وهناك المهدية عاصمة البلاد القديمة، وقلعتها الحصينة التي
انطلق منها الفاطميون نحو الشرق.

وهناك .. وهناك، كل مدينة لها مجد، وكل مجد له تاريخ.

لكن المدن التي تحتل المكانة الأولى من اهتمام الشعب التونسي
وتقدير الشعوب المحبة للحرية والسلام وإكبارها — هي مدن البطولة،

وقد احتلت الذروة منها مدينة بنزرت، التي تنال — الى جانب شرف التمجيد في القديم — شرف معارك التحرير الأخيرة التي جرت ضد الغزاة المعاصرين، وآخرها المعركة الكبرى التي كلفت بالنصر، وأحرزت شرف التحرير لها ولكامل التراب التونسي، بين عام 1961 وعام 1963، ومن يومها رفعت رأس تونس، ورفعت قدر العرب، ورأس البلاد المناضلة، إذ أضافت الى سجل البلاد المتحررة بلدا جديدا ومجيدا.

فعلام يدل تمجيد التونسيين لمدينهم ومحاولة تخليدها والإشادة بها على تلك الطريقة الفريدة ؟

لقد خرجت تونس من محنة كان ترابها فيها هو المستهدف من الغزو، كان المستعمرون يريدون استيطانها والحقاقها بتراب البلاد الغازية، وبنزرها من التراب العربي الافريقي.

ولهذا تمثلت فرحة الاستقلال والحرية في تمجيد هذه المدن والقرى، واتخذ الوفاء لها شكل الدراسة والبحث عن أمجادها الغابرة ومعطياتها اليوم وغدا، واتخاذها أعلاما على النضال المنتصر، والإشادة ببطولاتها وأبطالها، شكرا لله على هذا النصر، وتوعية للأجيال كي تستمسك بحريتها واستقلالها وتقدمها، لا تسمح للاستعمار مرة أخرى أن يدنس قرابها أو يعوق تقدمها.

من أخص خصائص تمجيد هذه البلاد تسجيل البطولات التي أنجبتها على توالي العصور في ميادين العلم والمعرفة والثقافة والفكر والوطنية.

والكتاب الذي يقدمه لنا رشيد الذوادي اليوم نمط من التمجيد العلمي غير المتعصب ولا المغالي، فكتابه « أعلام من بنزت » يضم باقة من العلماء الذين أنجبته هذه المدينة على توالي العصور.

والذوادي شاب على قمة الشباب، هادئ الطبع، بعيد عن الأضواء، يعكف على عمله في غير ضجيج، أخلص ولاءه للمهنة التعليم، وأحب مسقط رأسه بنزت كل الحب، ومن هذين ارتسم له إطار هذا العمل فاتخذ كتابه معرضاً لتحليل الشخصيات التي أنجبها بنزت، والتي مارست مهنة التعليم، مهنة الأنبياء والرسل، ومن هذا نجدته يتحدث عن شخصياته بحب وتعاطف، ويشخص دقائق حياتهم تشخيص الخبير، ويبرز بدايات تعليمهم ومنابع ثقافتهم ونضالهم باصرار في سبيل المبدأ، والأضواء التي أفاضوها على بلادهم في ميادين العلم والثقافة والإصلاح والتحرر وإقامة العدل وتنوير البصائر — فتلك سمات المعلمين المخلصين لمبادئهم، وتلك هي العناصر التي يحرص كاتب التراجم على إبرازها في شخصياته إذا كان في مثل موقف الذوادي، خاصة إذا كانت شخصياته ممن أنبتهم التراب الذي ما زال يمشي عليه ويتنفس في أجوائه.

وقد يبدو أن الكاتب بهذا التحديد يضيق دائرة بحثه، ويوجد قلمه محسباً بين أبناء الوطن وأبناء المهنة، فلا تتوالى له شخصيات ذات نشاط يدور حوله موضوع ذو قيمة، وقد لا يجد المراجع التي تسعفه بالقدر الكافي لإدارة البحث.

قد يبدو ذلك صحيحاً من بعض الوجوه، وقد يكون مجرد توقع وإشفاق نحو كاتب نقرأ له لأول مرة، ولكننا حينما نرافقه

في هذا الكتاب نجده قد اجتاز هاتين السلبيتين بثقة واعتداد، فقد تعمق حياة شخصياته، ومنحها من النبض الحيوي ما جعلها تتعامل مع القارئ بشكل يكاد يكون مباشراً، ومنح القارئ فرصة التعرف الكامل على هذه الشخصيات.

والذي منح تراجمه هذه الحيوية وهذا النبض أنها لم تكن مجرد معلومات يسردها عن حياة أبطاله، ولكنها كانت رصدًا كاملاً للأجواء والتيارات الأدبية والفكرية والسياسية التي أنبتت هؤلاء، ورافقتهم في خضم الرحلة، وسيرت بهم سفن تونس من منبع تاريخها إلى مصبه، فجعل منها قطعة نابضة من تاريخ تونس، تسير على الأقدام، وتبطش بالأيدي، وتفكر وتناضل، لتنتقل البلاد وتنتقل بها من عالم الظلام وعالم التخلف إلى عالم النور والحضارة.

لقد عرض المؤلف في هذا الإطار شخصيات بنزرتية خالصة، فعايشها على بساط التاريخ منذ القرن الرابع عشر، والتقى بها على أرض الواقع في أيامنا هذه، وأخذ منها وبادلها الفكر والرأي.

بدأ المؤلف لقاء التعارف بيننا وبين أبطاله بمحمد بن قاسم البزرتي المتوفى عام 1391، وانتهى بالهادي زمزم، المتوفى عام 1970، فقدم لنا على مائدة هذا التعارف ست عشرة شخصية، من بينها شقيقه الشاب القصاص الأديب المربي المناضل محمد الذواذي، الذي استشهد في ساحة الشرف بقذائف النابالم في معركة الجلاء عن بنزرت عام 1961، عن ثلاثة وعشرين عاماً.

قد يكون من بين من تولى التعريف بهم جنود مجهولون، ولكنهم جميعا أسهموا في إقامة البناء الثقافي واللغوي والأدبي والديني في واقع تونس الحرة المعاصرة.

من هؤلاء عبد الله البحيري، المعلم والخطيب والقاضي، من أعلام القرن الخامس عشر، ومصطفى بن عبد الكريم، اللغوي المحدث والمفتي والفقيه الذي عاش في القرن السابع عشر، وعلي الشريطي الذي كان من أعلام الدولة الحسينية في القرن التاسع عشر، والذي عاصر الإصلاحات المالية التي قام بها الباي أحمد الثالث، وهجرة الجزائريين الى تونس بعد احتلال الجزائر، وسمع قوله نابليون : « اذا تعود العرب الحرية والعدالة فلن يكون بيننا وبينهم سلام في الجزائر »، وعاصر إصلاحات الوزير خير الدين، وهاجر الى الحجاز، وزار القدس، وأقام في عكا، وشغل بالتصوف، وعمل على نشر طريقة أبي الحسن الشاذلي، كما اشتغل بالسياسة وزامل الأمير عبد القادر الجزائري، حتى أصبح معدودا من قادة الفكر في الشرق.

أما عمر بن الشيخ فقد ولد في العقد الثاني من القرن التاسع عشر، وتوفي في أوائل العقد الثاني من القرن العشرين، فأدرك عهد محمود باي، وعاصر ثورة علي بن غداهم، وخروج البابات على الحكم العثماني، وقد لفت نبوغه المبكر كبار الأساتذة، فاختاروه للتدريس بالزيتونة عقب تخرجه منها، واختاره الوزير المصلح خير الدين عضدا له، وعينه مستشارا للمعارف، كما عينه في لجان تصفية الفساد السياسي، وتولى مناصب الإفتاء والتدريس وكان شديد

الإعجاب بعمر بن الخطاب في سيرته، كما أعجب بالثورات الاجتماعية التي قامت في الدول الإسلامية، ومن بين زعماء الإصلاح كان معجبا بمحمد بن عبد الوهاب، والأفغاني، ومحمد عبده، وكان مهتما بالتاريخ والحديث والأسانيد، ومع أنه لم يترك مؤلفا واحدا الا أنه ترك في الفكر التونسي تيارا مرموقا.

والعربي النجار المتوفى عام 1916 لم يتلق أي نوع من التعليم، ولكنه كان من مشاهير الشعراء الشعبيين، نادى في شعره بالإصلاح والوطنية.

وعلي بوشوشة المتوفى عام 1917 بدأ تعليمه في بنزرت، وواصله في الزيتونة والصادقية، وأتمه في إنجلترا، وكان نائرا لامعا منذ شبابه، وكان متضلعا في اللغات الأجنبية، وكان امتدادا لحركة خير الدين، لكن عودته من إنجلترا الى تونس جاءت مع بداية الاحتلال الفرنسي، فابتعد عن الأعمال الرسمية، وأنشأ أول جريدة غير رسمية، هي جريدة الحاضرة التي ظلت تصدر من عام 1888 حتى توقفت عام 1915 إبان الحرب العالمية وكان ذكائه وحيلته واعتداله مما جنب هذه الجريدة أخطار التصادم مع السلطة، وان أنكر عليه المواطنون هذا المسلك.

وإدريس الشريف المتوفى عام 1936 عرف بفتاواه المشهورة ضد الاحتلال الفرنسي (1) وعاصر واقعة الزلاّج عام 1911، وأحداث

(1) المعروف انه اُغتني ضد التجنيس، واعتبار المتجنس بالجنسية الفرنسية مرتدّا عن الاسلام.

مقاطعة الترام عام 1912، وثورة خليفة بن عسكر 1915 - 1919،
وتأسيس الحزب الدستوري بقيادة عبد العزيز الثعالبي، وقيام
الحركة النقابية بزعامة محمد علي، والحزب الدستوري الجديد بزعامة
الحبيب بورقيبة، وقد كانت دروسه وفتاويه ومقالاته وأشعاره تملأ
أنهار الصحف في تونس وبلاد المشرق، وقد ترك كثيراً من المؤلفات
الاجتماعية والتاريخية والدينية والوطنية واللغوية والصوفية، كما
ترك ديوان شعر تناول فيه مختلف الأغراض.

أما سليمان والي المتوفي عام 1961 فقد شهد كل هذه الأحداث
كما شهد ظهور الجمعيات الأدبية والتمثيلية، واشتغل بالتعليم
والشؤون العدلية في مسقط رأسه، وأسهم في تأسيس الجمعيات
الثقافية.

وحمودة بوقطفة المتوفي في نفس العام معلم وكاتب وخطيب
سياسي وديني، وشاعر ومتضلع في اللغة، وكان دائم التصدي
لكشف أعمال الاستعمار في بنزرت.

ومحمد علي العنابي المتوفي عام 1962 درس في باريس بعد
بنزرت وتونس، فحصل على إجازة الآداب من السربون، وإجازة
الرياضيات من كليتي العلوم والرياضة، ودبلوم العلوم السياسية من
المدرسة الحرة، وعرضت عليه جامعة السربون منصب الأستاذية
إذا تخلى عن تونسيته، فرفض، وعاد الى تونس ليمارس نشاطه
من خلال التجمعات الثقافية، فأنشأ كثيراً من الأندية الطلابية، وعلى
اثر الاستقلال سعى لاشراك تونس في الوكالة الدولية للذرة،

ومثل تونس في مؤتمراتها، وأنشأ في تونس مصلحة الأبحاث العلمية والطاقة الذرية، واختير مديرا لوكالة الطاقة الذرية بتونس.

وكان خميس ترنان الذي توفي عام 1964 من مشاهير الموسيقيين العرب المعاصرين، تلمذ عليه خيرة فناني تونس، وقام على حفظ التراث الموسيقي، وهو ملحن موهوب، قدم أعذب الألحان لخيرة المطربين والمطربات، وهو صاحب الفضل في إقبال الشباب التونسي اليوم على المألوف والموسيقى الاندلسية، وقد عاش في خدمة التراث، والتوفر على ابتكار الجديد حتى وهو في السبعين من العمر.

وعلي الخماسي المتوفى عام 1967 عن 91 عاما اشتغل بالتعليم مبكرا، وقام بإنشاء المدرسة القرآنية في بنزرت ليعلم النشء الدين واللغة العربية بازاء التعليم الأجنبي الذي أشاعه الاستعمار ليقضي على لغة الوطن ودينه، وقد اهتم بشتى ألوان الثقافة والعلوم الى جانب التربية، وله مؤلفات دافع فيها عن الأمة العربية ولغتها وتاريخها، وله كتب في الجغرافيا والتاريخ والاجتماع وتاريخ بنزرت، وقد اهتم بتأسيس الجمعيات الخيرية، وجمعيات الطفولة المشردة، ومما يروى عن جرأته السياسية أنه وجه رسالة الى القائد الالماني في الحرب العالمية يطلب اعترافه بحق تونس في الحرية والاستقلال عندما قضع الحرب الدائرة بين الحلفاء والمحور على أرض أفريقية أوزارها.

وقد كان محمد الطاهر الخماسي المتوفى عام 1970 متأثرا بمدرسة خير الدين الإصلاحية، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد

الرحمان الكواكبي، وقد تتلمذ على مكاتب تونس وصحفها، وعاش فترة تأسيس الحزب والثورات الشعبية، وكتب في الصحف، واشتغل بالتعليم والعدل والخطابة، وترك بعض المؤلفات الدينية والتربوية والاجتماعية والسياسية.

أما آخر هذه الشخصيات فهو الهادي زمزم الذي توفي في نفس العام عن إحدى وثمانين سنة، لقد عاش في بيئة إسلامية وبعد حصوله على شهادة الزيتونة في القراءات قام بالتدريس فيها، ثم اشتغل بالخطابة والامامة والإصلاح الاجتماعي في قرينته وبين مواطنيه، حيث قضى أخريات حياته.

وبعد ..

فهذه باقة من الرجال تشرف بها أمة بكاملها، فكيف إذا كانت تنسب الى بلدة ليست من كبريات بلدان تونس، لكنها فرضت كبرياءها على التاريخ.

فهؤلاء هم بناء تونس الحقيقيون، بناء البشر، أغلى ما وهبت الحياة.

هؤلاء هم معلمو بنزرت مدينة الكفاح والتحرر والسلام، تمجدت بهم وتمجدوا بها.

هم جميعا من بنزرت، وهم جميعها معلمون، نظمهم المؤلف في سلك واحد ليصنع منهم عقدا مضيئا حباته المناضلون الأبطال، وكأنه بذلك يؤدي ضريبة الولاء للمواطنة والولاء للمهنة في وقت واحد.

لقد أفلح في تشخيص كل منهم بملامح أصيلة، ميزته بدقة عن أقرانه، لم تلبس شخصية بأخرى، ولم تطمس واحدة منها معالم أختها، استل بعضها من غياهب التاريخ، وعاش بعضها كامل المعاشة، ولكنه تعاطف مع الجميع بعدالة.

وذلك ميزة كاتب التراجم الأصيل، الذي لا تتشابك في أصابعه الخيوط ولا تتعقد، ولا تترك رسالة مسببة، بل تناسب كل منها إلى الموضع المرسوم لها لتؤدي دورها في صنع السيج الإنساني الرائع، وتكاد تبعث الشخصية من جديد.

وأروع النماذج التي تألق فيها المؤلف شخصيات عمر بن الشيخ، والعربي النجار، وعلي بوشوشة، وقد شد تعاطف القارئ بقوة إلى القصص الشهيد محمد الحبيب الذوادي، الذي أصبح عليه واجب تقديمه مرة أخرى من خلال تراثه.

وبالتأكيد هناك شخصيات جديدة برزت من خلال معارك بنزرت الأخيرة ولا بد أن تظفر من المؤلف بلمسة حنان، ليواصل بها تعبه في محراب بنزرت.

إن رشيد الذوادي اسم قلما تسمع به كثيرا في زحمة الأدب التونسي لأنه يعمل بلا ضجيج، لكنه بهذا المستوى من كتابة التراجم قد فرض نفسه ككاتب سيرة من الطراز الأول وهو يؤدي للقارئ واجب التعريف بأبطاله الأمجاد في معركة الحياة والتقدم (١).

(١) طبع بتونس عام ١٩٧١ .

بدقة عن
نها معالم
مها كامل

رشيد الذواذي

في كتابه « رواد الاصلاح »

أصابه
منها الى
الرائع

مر بن
القاري
صيح عليه

ك بنرت
بها تعبده

مة الأدب
من كتابة
هو يؤدي
لتقدم (1).

رشيد الذواذي من الكتاب التونسيين المعنيين بفن السير والتراجم، يتابع كل نبتة تنجم في حقل الفكر التونسي، فيمهد لها المكانة اللائقة بها في سجل الأدب والثقافة والفكر، الذي أصبح حافلا بالأعلام.

وقد استقبلت المكتبة العربية بحفاوة تجارب الذواذي في مجال التراجم من أمثال كتاب « حسن النوري »، وكتاب « أبطال وشهداء »، وكتاب « أعلام من بنرت »، وكتاب « أدباء تونسيون ».

أما كتابه الذي نعرضه اليوم وهو كتاب « رواد الاصلاح » فيتميز بأنه رحلة حول خمسة من الرواد، عاشوا في فترات متتابة امتدت من عام 1820 الى عام 1940، وتمثلت رسالتهم في المحاولة الجادة لإصلاح المجتمع العربي الإسلامي في فترة من أشد فترات حياته قسوة وظلما، فاستطاعوا بعقريتهم وثورتهم ونضالهم وإصرارهم أن يمزقوا حجب الظلام والجهالة، وأن يصيحوا في وجه الجبروت الاستعماري، وأن يفجروا في نفوس مجتمعاتهم طاقات الثورة، وأن ييشروا بعالم أفضل، فكانوا طلائع الحرية،

وأضاءوا طريق الامة نحو فجر التحرر والاستقلال والتقدم الذي نساكه اليوم.

وليست شخصيات الذواذي في هذا الكتاب، قاصرة على المحيط التونسي كما عودنا في كتبه السابقة، ولمكن دائرة الإصلاح اتسعت أمامه، فجعل معها في أنحاء العالم العربي والاسلامي أينما وجد الإصلاح ورجاله الذين ندين لهم اليوم بما أحرزناه من يقظة، وما سنحرزه غدا من تقدم في مجالات الفكر والحريّة والثقافة والسياسة.

خير الدين التونسي

وحين تذكر كلمة الإصلاح في تونس تنداعى الى الذاكرة شخصية خير الدين التونسي، محاطة بهالة من التقدير والإجلال، سواء من المثقفين أو السياسيين أو رجل الشارع.

وخير الدين في وعي الدائرة التونسية المحدودة ليس عبقرية عربية تونسية فحسب، ولكنه أسطورة سياسية وفكرية على النطاق الأمازيغي.

فهو ظاهرة شاذة بمقياس عصره وبيئته، وهو شخصية فذة على المستوى العالمي، حيث عاش ومارس حياته بين العشريّات والتسعينات من القرن التاسع عشر في بلد متخلف مهدد بالاستعمار بين يوم وآخر. وحبكا للأسطورة لا بد أن يكون خير الدين من سبي القوقاز، وأن يباع في سوق استنبول، ليستقبله قصر نقيب الأشراف، فيترى مع ابنه الوحيد، وحينما تحزن الأسرة لفقد وحيدها تتخلص من شيخ الذكرى بإعادة بيع رفيق حياته خير الدين، وبالتداول، يصل الى ساحة باي تونس، الذي يرى فيه شخصية غير عادية

فيخصص له المعلمين والمربين ، وتسعفه همته ، فلا يقتصر على تلقي المبادئ ، بل يعكف على فنون الحرب والسياسة ، ويلتزم العلماء ، ويتقن الفرنسية الى جانب العربية والتركية .

وتونس يومئذ بلد متخلف ، لم يبق له من الحضارة سوى هيكل متداع ، ولا من الدين الا بعض المظاهر والقشور التي انزوت في الكتائب وأركان التكايا والزوايا ، بينما التعليم المدني خاضع للجاليات الأجنبية ، وما يتبع ذلك من فساد الحكم ، وانهايار الاقتصاد .

لقد أزعج ذلك الباي أحمد باشا مولى خير الدين ، فحاول إدخال بعض النظم على هياكل الإدارة ، وصادف ذلك اهتمام الدولة العلية على عهد محمود الثاني باقتباس بعض النظم الأوروبية ، وتطبيقها في مختلف ولايتها ، ومن بينها تونس .

وبمعونة خير الدين استطاع الباي أن يشجع الثقافة ، وينظم الجيش والإدارة ، ويخفف الضرائب ، ويلغي الرق .

وفي هذه الأثناء ألحق خير الدين بالحاشية ، وصحب الباي في زيارته للملك فرنسا ، ثم عين أميراً للواء ، ووكّل إليه بعض المهام العسكرية والاقتصادية الخطيرة ، وكاف بإصلاح أوجه الفساد الإداري والانحرافات السياسية في البلاد .

وقد اقتضت بعض هذه المهام أن يقيم في فرنسا ثلاث سنوات متصلة ، حيث واثته الفرصة لتوسيع آفاق ثقافته ، والتعرف على أعلام أوروبا وبلدانها وأسباب تقدمها .

وتداول كبريات الوظائف : فعين وزيرا للحربية : ثم رئيسا للوزراء ، كما تداولته العقبات التي اعترضت طريقه الإصلاحية ، فترك الحكم ، وعكف على تدوين تجاربه في كتاب حال فيه تطور المجتمعات المتقدمة ، وسماه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » .

وظل خير الدين بعيدا عن الحكم سبع سنوات استشرى فيها الفساد ووقع فيها الانهيار الاقتصادي فاستدانت الحكومة بفوائد ربوية باهظة اضطرتها لفرض ضرائب عالية ، مما فجر الثورة الشعبية المشهورة بقيادة علي ابن غداهم .

وخوفا على تونس من تفاقم الأمور حولها ، وانقضاض الاستعمار الفرنسي الذي داهم جارتها الجزائر — كلف الباي خير الدين برئاسة اللجنة المالية التي شكلت لتسوية ديون تونس ، فأقنذها من الانهيار الاقتصادي والاستعمار السياسي ، وقام بتوثيق العلاقات بينها وبين الدولة العلية ، فعينه الباي وزيرا أكبر الى جانب رئاسة اللجنة المالية .

واستيقظت سعائيات الناقمين على خير الدين ، وعلى الاتجاه الإصلاحية عامة ، فنحي عن الحكم ، وصودرت حريته ، مما جعله يفكر في الهجرة ، وحينئذ استدعاه السلطان عبد الحميد الذي كان قد اطلع على آرائه الإصلاحية في كتابه « أقوم المسالك » ، فعينه رئيسا للجنة الاقتصادية ، ثم عينه صدرا أعظم للدولة العلية ، لكن قلبه ظل معلقا بتونس ، متابعا لأحداثها ، وقد حزن حزنا شديدا عندما علم باحتلالها على أيدي الفرنسيين ، وظل حزينا عليها حتى فارق الحياة .

ولقد كان خير الدين طاقة فكرية ووطنية وإصلاحية جعلته من أعلام القرن التاسع عشر، ووضعت على رأس المصلحين العرب والمسلمين في فترة كانت تموج بالتقلبات العالمية الخطيرة، فكان من حسناته أن أصدر أول دستور في البلاد الإسلامية كلها، هو عهد الأمان. (1)

وكان أعظم تراث فكري وسياسي واجتماعي خلفه خير الدين، بل خلفته هذه الفترة هو كتاب « أقوم المسالك » الذي حل فيه أحداث العالم الإسلامي على ضوء الحركة التقدمية التي شملت الدول الأوروبية، وجعلها تسبق الشرق بمراحل بعيدة.

وترجع أهمية هذا الكتاب الى أنه صدر عن مصلح عربي مسلم، وحوى أفكارا سياسية تقدمية في فترة مبكرة من حياة الشرق الفكرية المتخلفة.

وتذكرنا سيرة خير الدين بحياة ابن خلدون في عناصر كثيرة مشتركة، من بينها الآراء الثورية الجريئة، والدعوة للانقضاء على التقاليد البالية، وعلى أسباب التخلف التي تحيط بالعالم الاسلامي، كما يشابهان في إنتاجهما الفكري التقدمي بالنسبة لعصريهما، فقد لفت كتاب خير الدين أنظار العالم كله، وترجم فور صدوره الى العديد من اللغات الأوروبية، وما يزال يجد صداه حتى الآن، ويعتبر من مفاخر الفكر التونسي، كما يعد مرجعا مبكرا

(1) لم يصدره خير الدين ، وإنما صدر بمرسوم من الباي محمد ، وكان خير الدين من دعاة إصداره ومن أعضاء مجلس الشورى الذي جاء به الدستور .

للدراستات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وحوله تدار الرسائل والبحوث الجامعية.

واذا كان الدارسون التونسيون يعلقون الأهمية الكبيرة على مقدمة هذا الكتاب وحدها لما حوت من أفكار وآراء ذاتية، وإذا كانوا يرون أن الكتاب نفسه لا يعدو أن يكون معامات جغرافية وتاريخية واجتماعية عن البلاد الأوروبية التي زارها فإن بعض الباحثين في المشرق قد كشفوا في صلب الكتاب عن نظريات سياسية عربية أصيلة في الإدارة السياسية لم تتوصل إليها أوروبا إلا في أوائل القرن العشرين.

في هذا الكتاب ينادي خير الدين بالقضاء على الاستبداد والحكم المطلق، ومقاومة الدكتاتورية، كما يرى أن المبادئ الإسلامية هي أصلح الأنظمة للمجتمع الحر العادل، كذلك يرى أن يجمع العالم الإسلامي بين روح الإسلام وما في المدنية الحديثة من عوامل التقدم كما كان يحبذ النظام الرأسمالي، ويدعو إلى التعليم المهني.

وقد ترك خير الدين إلى جانب ذلك بذرة الحرية والإصلاح والتقدم التي ما تزال تونس تحمل شعلتها، وما يزال تلاميذه يسرون على دربه في الحرية والاستقلال والتقدم، ولا ينكر أبناء تونس أن آراء خير الدين وما فيها من وطنية، وما استلهموه من مبادئها الإصلاحية قد عصمتهم من الغرق في دوامة التجهيل والتغريب، ومنحتهم حصانة المقاومة ضد الاستعمار الرهيب الذي انتصروا عليه.

بيـرم الخـامس

أما الشخصية التونسية الثانية في مجال الإصلاح فهي شخصية محمد بيـرم الخامس، الذي عاش فترة ما بين الأربعينات والتسعينات من القرن الماضي، ويعد من أحرار العالم الاسلامي، فلقد نضجت اهتماماته بالسياسة والإصلاح شؤون الحكم في وقت مبكر، وتولى مشيخة بعض المدارس الكبرى وهو ما يزال في شرخ الشباب، كما تولى التدريس في جامعة الزيتونة، فبث في تلاميذه روح التمرد والنقمة على الأوضاع السائدة في العالم الاسلامي، ووجه المثقفين الى الإصلاح، وقد رحل في أنحاء الشرق والغرب، واستقر بمصر، حيث أصدر جريدة «الاعلام»، وتولى القضاء وبعض المهام السياسية، وساهم في النهضة الفكرية، وألف في الفلسفة والعلوم الشرعية والسياسية، وأبرز مؤلفاته كتاب «صفوة الاعتبار»، وهو موسوعة في السياسة والتاريخ والرحلات ووصف البلدان ومجتمعاتها وسياساتها.

وقد مارس الإصلاح من جذوره، إذ كان يرى أن إصلاح التعليم هو البداية، كما نادى بإصلاح الأخلاق، وتطبيق النظم النيابية.

وهو من أنصار خير الدين ومؤازري دعوته، وقد استعان به خير الدين في تنظيم التعليم والأوقاف، وتولى بعد خير الدين إصلاح القضاء، وتنظيم المستشفيات وحاول إصلاح نظم الحكم.

والتقى في الشرق بأقطاب الفكر والسياسة، أمثال الشريف حسين، ومدحت باشا، وسعد زغاول، وأديب إسحق، وسليم نقاش.

وخلاصة آرائه تتركز في الرجوع الى مبادئ القرآن، وتطهير الدين من البدع، وفتح باب الاجتهاد، والانتفاع بثمرات العلم الحديث، وتجديد أساليب التعليم.

عبد الحميد بن باديس

أما عبد الحميد بن باديس الذي عاش بين عام 1889 وعام 1940 فلم تعرف الجزائر خطيبا يماثله في البلاغة وقوة التأثير في الجماهير. كان من الرواد الذين فجروا الثورات، ودفعوا شعوبهم الى ميادين التقدم، وقد استمسك بعروبة الجزائر في مواجهة الاستعمار الاستيطاني الذي كاد يجتاحها الى الأبد، وبذلك أصبح أبا الجزائر ومعلمها. ولد ابن باديس في قسنطينة بالجزائر، والتحق بالزيتونة في تونس، وفيها تخرج، وقام بالتدريس لطلابها.

وممن تأثر بهم البشير صفر، والثعالبي في تونس، والطاهر الجزائري في دمشق، ومحمد عبده، وجمال الدين الافغاني، وعبد الرحمان الكواكبي، ومحمد إقبال، وقاسم أمين (1) على اختلاف اتجاهاتهم ومذاهبهم في الإصلاح.

وقد اصطنع في سبيل تحقيق أهدافه الإصلاحية مختلف الوسائل، كفنون الأدب، والصحافة، والخطابة، ولكي تظل الجزائر عربية مسلمة كان لا بد من بعث الحركة الدينية التجديدية، ونشر اللغة العربية في جميع مجالات الحياة.

(1) لا نظن ان باديس تأثر في شيء بقاسم أمين . كما نشك أيضا في انه تأثر بجميع المذكورين .

جمال الدين الافغاني

وأما جمال الدين الأفغاني، فإلى جانب ما هو معروف عنه من معلومات شائعة ركز على دوره الرائد في علاج أزمات العالم الإسلامي، ودعوته إلى التجمع تحت ظلال الجامعة الإسلامية، وكانت سياحاته في جميع أنحاء القارات ذات أثر فعال في النهوض بالعالم الإسلامي، غير أن دوره في مصر، والتقاءه بمحمد عبده، وتأليف جمعية العروة الوثقى، وتعاونهما على إيقاظ العالم الإسلامي، وتنقية الإسلام من الخرافات، وإعلان الثورة على الاستعمار والإقطاع - كان من أكبر الأدوار التي لعبها جمال الدين الأفغاني في حياته كلها.

محمد عبده

والحديث عن جمال الدين لا بد أن يستدعي الحديث عن تلميذه وحواريه محمد عبده، لأنهما لعبا دورا مشتركا في حياة الأمة العربية والعالم الإسلامي، بحيث يكمل كل منهما الآخر. غير أن المؤلف أبرز شجاعة محمد عبده، وجراته في الجهر بآرائه، وإقدامه على التجديد، وحملته على الجمود والرجعية، كما تحدث عن أدواره الدينية والسياسية، وعن مواقفه من إصلاح التعليم، وما لقيه من تكريم الهيئات في مختلف أنحاء العالم، وما صادفه من عقبات في سبيل تحرير الفكر، وتطهير الدين، وتحرير الأساليب الأدبية من بقايا عصور الانحطاط، وتقويم أسلوب الصحافة، وتصحيح أفكار المستشرقين عن الدين الإسلامي، ورد تهجماتهم عليه.

غير أن المؤلف وقع في التباس صغير عند حديثه عن الحركة التجديدية التي قام بها محمد عبده، فقد اشتبه عليه اسم الكاتب الكبير عباس محمود العقاد، مؤلف كتاب « محمد عبده » في سلسلة أعلام العرب، وعباس محمود، مترجم كتاب « الاسلام والتجديد في مصر »، وهما شخصان مختلفان.

وهكذا يقدم لنا الباحث التونسي رشيد الذوادي في هذا الكتاب نماذج جديدة من أعلام الفكر والإصلاح، تجمعهم نزعة الإصلاح، وإرادة تغيير المجتمع، في فترة حرجية من حياة الأمة العربية والعالم الاسلامي .

تجمعهم كذلك المعاصرة، كما تجمعهم العروبة والاسلام مهما اختلفت بهم الديار، ويثقل ضميرهم الواجب نحو الوطن، والالتزام بحماية الدين.

والقدر المشترك بينهم يتمثل في حرية الرأي، والشجاعة في الجهر بالحق، والحرص على لغتهم والتقاليد الصالحة للمجتمع الاسلامي الواعي.

ولقد بذل المؤلف الكثير من الجهد لسكي يجمع أطراف المعلومات عن هؤلاء الاعلام، سواء في جمع المراجع الكثيرة والمبعثرة في أنحاء العالم أو في تنقية هذه المعلومات مما أدخل عليها لتشويه سيرة هؤلاء الاعلام، سواء من الأدعياء أو الحاقدين وبهذا استطاع أن يقدم لنا هؤلاء الاعلام بالصورة اللاتقة بهم، وبما بذلوه من جهود مضمينة في سبيل مجتمعاتهم، وبالصورة التي تليق بالمؤلف كباحث ألزم نفسه بأن ينصف هؤلاء المجاهدين من

قالة السوء، ومن الحملات المغرضة التي وجهت اليهم في حياتهم كثيرا، وبعد رحيلهم أكثر وأكثر.

ولم يكن ذلك بالأمر الهين، فإن كلمة الحق تثقل ضمائر الذين يتحرون فيها وجه الصواب بالجمع والتدقيق والموازنة والتحقيق، حتى تبدو كلمة الحق في المكانة الجديرة بها.

ويبدو من عديد المراجع وأشتات المصادر التي استنطقها المؤلف، ومن الموازنات والتدقيق وتقليب وجوه الرأي، والتحقيقات والتصويبات التي تحراها النوادي أنه يحترم التاريخ، ويحترم قلمه، وقبل هذا وذاك يحترم قارئه، وفي سبيل ذلك يهون كل جهد يبذله الباحث لكي يؤدي واجب الحقيقة، ولكي يكون جديرا باحترام قرائه، وهو الأمر الذي نغبط من أجله النوادي، ونباركه عليه(1).



General Organization of the Algerian
Scientific Association

(1) نشر المقال في مجلة الفكر عدد ماي 1974 . وكان الكتاب قد طبع في تونس عام 1973 .

فهرس الاعلام والجماعات

— ١ —

- | | |
|---------------------|-----------------------|
| ادريس الشريف : | ابراهيم : |
| . 220 | . 174 ، 173 |
| أديب اسحاق : | ابراهيم بورقة : |
| . 231 | 128 ، 125 |
| اسماعيل حسن : | ابراهيم ناجي |
| . 62 | . 209 |
| الغالبية : | أتاتورك : |
| . 215 | . 180 |
| أليبر ممى : | أحمد أمين : |
| . 78 | . 119 |
| ألفريد دى فينيه : | أحمد باشا باي : |
| . 54 | . 227 ، 40 |
| ألفريد دى موسى : | أحمد الثالث باي : |
| . 54 | . 219 |
| الفونس دى لامرتين : | أحمد بن الخوجة : |
| . 54 | . 203 |
| أمين الريحاني : | أحمد زكي ابو شادي : |
| . 11 | . 120 ، 119 ، 101 ، 7 |
| الامين الشابى : | . 141 ، 130 ، 121 |
| . 141 | أحمد كريم : |
| أمينة بنت مصطفى : | . 203 |
| . 33 | أحمد الورتقاني : |
| | . 203 |

ايليا ابو ماضى :
. 209

اولجا فرولوفنا :
. 24 ، 25 ، 37
ايبيد نسكى :
. 25

— ب —

البشير الفوراتى :
. 125 ، 129

ابن بطوطة :
. 77

بورقيية :

انظر : الحبيب .

بيرم التونسى :
. 198

بيرون :
. 209

بانتو تشك :
. 24

البربر :
. 78

بروزوروف :
. 25

البشير خريف :
. 71 ، 72 ، 73

البشير صفر :

19 ، 43 ، 44 ، 47 ، 198 ،
. 203 ، 203

— ت —

ابو تميم :
. 50

توريسكا :
. 178

توفيق الحكيم :
. 67

التبريزى :
. 129

التجاني بشير :
. 131

تخوروجيفسكى :
. 25

— ث —

الثعالبى :

انظر : عبد العزيز .

— ج —

- جـاك لندن :
65 .
- جمال الدين الافغانى :
52 ، 198 ، 211 ، 220 ،
222 ، 232 ، 233 .
- جـبران :
119 ، 127 ، 129 ، 154 ،
209 .
- جميل بوئينة :
107 .
- جيتـه :
209 .
- ابن جبـير :
177 .
- جلال الدين السيوطى :
74 .

— ح —

- بـوحـاجـب :
انظر : سالم .
- حسن محمود :
125 ، 130 .
- الحبيب بورقيبة :
81 ، 221 .
- الحـريـرى :
212 .
- ابو الحسن الشاذلى :
219 .
- الحليوى :
انظر : محمد .
- حمودة بوقطفة :
221 .
- ابو الحسن ابن شعبان :
212 .

— خ —

- الخضر حسين :
198 .
- خليفة التليسى :
125 ، 127 .
- ابن خلدون :
9 ، 14 ، 26 ، 105 ، 177 ،
229 .
- خليفة بن عسكر :
221 .

- خبر الدين :
 40 ، 41 ، 198 ، 203 ،
 219 ، 220 ، 222 ، 226 ،
 227 ، 228 ، 229 ، 230 ،
 231 .
- دليل بوجاجب :
 203 .
- الخميري :
 10 .
- خميس برنان :
 222 .

— د —

دي فيني :
 209 .

— ر —

- الرافعي :
 119 .
- الرصافي :
 62 .
- رفاعة رافع الطهطاوي :
 46 .
- رشاد الحمزاوي :
 75 .
- رشيد الذواوي :
 23 ، 214 ، 217 ، 224 ،
 225 ، 226 ، 234 ، 235 .
- روسو :
 154 .
- ابن الرومي :
 119 .
- ابن رشيقي :
 212 .

— ز —

- زيبس :
 19 .
- زين العابدين السنوسي :
 166 .
- الزيات :
 119 .

— نس —

- | | |
|--------------------|---------------------|
| سليم البرجي : | سالم بو حاجب : |
| . 72 | . 203 ، 198 |
| سليم نقاش : | سانت بيف : |
| . 231 | . 118 |
| السنوسي (محمد) : | سعد زغلول : |
| . 46 | . 231 |
| سوكولوفنا : | سفيتلانا باتسييفا : |
| . 25 | . 25 ، 9 |
| | سليمان والي : |
| | . 221 |

— ش —

- | | |
|---------------------|----------------------------|
| الشاذلي عطاء الله : | الشابي ابو القاسم : |
| . 211 | . 9 ، 19 ، 20 ، 53 |
| الشاذلي القليبي : | . 54 ، 55 ، 56 ، 58 ، 59 |
| . 126 ، 125 | . 60 ، 61 ، 99 ، 100 ، 101 |
| شتاينبك : | . 102 ، 103 ، 106 ، 107 |
| . 65 | . 109 ، 110 ، 111 ، 112 |
| الشريف حسين : | . 113 ، 114 ، 115 ، 116 |
| . 231 | . 117 ، 118 ، 120 ، 123 |
| شكسبير : | . 125 ، 126 ، 127 ، 128 |
| . 120 | . 129 ، 130 ، 131 ، 132 |
| شهرزاد : | . 133 ، 140 ، 141 ، 148 |
| . 67 | . 151 ، 153 ، 154 ، 156 |
| شوينهور : | . 161 ، 162 ، 164 ، 166 |
| . 130 | . 168 ، 188 ، 201 ، 208 |
| شوقي ابو شقرا : | . 209 |
| . 131 ، 126 | شاتوبريران : |
| | . 209 |
| | الشاذلي ابن صالح : |
| | . 203 |

— ص —

صفر :
انظر : البشير

صالح الشريف :
211.203 .

صلاح الدين الجمالي :
33 .

— ط —

الطاهر الحداد :
166 ، 53 ، 52 ، 51 .

الطاهر التيفر :
203 .

الطيب التريكي :
36 ، 31 ، 30 ، 25 .

طه حسين :
121 ، 119 ، 11 .

طاهر باثيا :
203 .

الطاهر الجزائري :
232 .

— ع —

عبد الرزاق كريكاة :
193 ، 192 ، 191 ، 166 .

211 ، 196 ، 195 ، 194 .

عبد العزيز الثعالبي :
232 ، 221 ، 198 ، 63 .

عبد العزيز قاسم :
29 .

عبد العزيز المسعودي :
49 .

عبد القادر الجزائري :
219 .

عبد المجيد عابدين :
131 ، 126 .

عائشة :
75 .

عامر غديرة :
127 ، 125 .

عبد الله البحيري :
219 .

عبد الله شريط :
128 ، 125 .

عبد الحميد بن باديس :
232 .

عبد الحميد (السلطان) :
228 .

عبد الرحمن الكواكبي :
232 ، 222 .

- | | |
|----------------------------|-----------------------|
| عبد الواحد ابراهيم : | علي الخماسي : |
| . 23 | . 222 |
| ابن عربي : | علي بو شوشة : |
| . 119 ، 129 | . 220 ، 224 |
| العربي النجار : | علي الدوعاجي : |
| . 220 ، 224 | 4 ، 6 ، 65 ، 66 ، 165 |
| العروسي المطوي : | 166 ، 167 ، 168 ، 169 |
| 19 ، 73 ، 74 ، 125 ، 127 ، | 175 ، 176 ، 177 ، 178 |
| . 169 | . 183 |
| عز الدين المدني : | علي ابن غذاهم : |
| . 169 | . 219 ، 228 |
| العقاد : | علي الورداني : |
| . 118 ، 119 ، 120 ، 121 ، | . 46 |
| . 234 | علي اليشرطي : |
| علي باشحانية : | . 219 |
| . 47 | عمر بن الخطاب : |
| علي البلهوان : | . 220 |
| . 72 | عمر ابن الشيخ : |
| | . 219 ، 203 ، 224 |

— غ —

- | | |
|-----------|----------------|
| الفزالي : | غيلان : |
| . 129 | . 67 ، 68 ، 69 |

— ف —

- | | |
|--------------|---------------|
| ابن الفارض : | فريد غازي : |
| . 119 | انظر : محمد . |
| الفاطيون : | فروفا : |
| . 215 | . 37 |

— ق —

- | | |
|-----------------------|---------------------|
| ابو القاسم محمد كرو : | قاسم امين : |
| 17، 20، 23، 102، 103، | 52، 232 . |
| 109، 110، 111، 113، | ابو القاسم الشابي : |
| 115، 125، 126، 129، | انظر : الشابي . |
| 156، 185، 191، 196 . | |

— ك —

- | | |
|----------------|-------------------|
| كولوديل : | الكعك (عثمان) : |
| 65 . | 19 . |
| لامرتين : | كمال نشات : |
| 118، 209 . | 62 . |
| ليلي بن مامي : | لندن : |
| 77 . | 65 . |

— م —

- | | |
|-----------------------|-------------------|
| محمد بدرة : | المازني : |
| 125، 127 . | 119، 121 . |
| محمد بالخوجة : | المؤيد : |
| 46، 177، 203 . | 211 . |
| محمد بيرم الخامس : | مخايل نعيمة : |
| 231 . | 119 . |
| محمد الجلولي : | محجوب ابن ميلاد : |
| 203 . | 19 . |
| محمد الحبيب الزوادي : | محمد الاصرم : |
| 224 . | 203 . |
| محمد حسين : | محمد اقبال : |
| 203، 204 . | 232 . |

- محمد علي الحوماني :
 . 7
 محمد علي العنابي :
 . 221
 محمد الفائز :
 . 212
 محمد الفاضل ابن عاشور :
 . 203 ، 202 ، 197
 محمد فرج الشاذلي :
 . 35 ، 32 ، 25
 محمد فريد غازي :
 . 126 ، 125 ، 66
 محمد الفكياني :
 . 203
 محمد بن قاسم البزرتي :
 . 218
 محمد محي الدين :
 . 63
 محمد المرزوقي :
 . 25 ، 29 ، 28 ، 25 ، 19
 . 77 ، 76
 محمد مزالسي :
 . 19
 محمد المكي :
 . 203
 محمد مناشبو :
 . 192
 محمد مندور :
 . 129 ، 125
 محمد بن يوسف :
 . 203
 محمد حسين هيكل :
 . 119 ، 31
 محمد الحليوي :
 . 118 ، 117 ، 116 ، 19
 . 208 ، 156 ، 124 ، 121
 محمد الذواودي :
 . 218
 محمد السنوسي :
 . 203 ، 198 ، 117
 محمد الشاذلي خزندار :
 . 206 ، 203 ، 50 ، 49
 محمد الصاحبى الحاج :
 . 34 ، 32 ، 25
 محمد الطاهر الخماسي :
 . 222
 عبد الخالق البشروشي :
 . 125 ، 124 ، 118 ، 117
 . 211 ، 128
 محمد عبده :
 . 211 ، 198 ، 47 ، 43 ، 14
 . 233 ، 232 ، 222 ، 220
 . 234
 محمد عبد الوهاب :
 . 220
 محمد العربي الكبادي :
 . 212
 محمد العزيز بو عنور :
 . 205 ، 204 ، 203
 محمد علي :
 . 221

- محمود باى : 219
 مصطفى رضوان : 203
 محمد بو العيد : 25 ، 30 ، 35
 مصطفى بن عبد الكريم : 219
 محمود بيرم التونسي : 166
 مصطفى الفارسي : 30
 محمود الثاني (باى) : 227
 مصطفى كمال : 179
 محمود المسعدى : 66 ، 67 ، 69 ، 70
 معاوية التميمي : 203
 محمود طرشونة : 25 ، 31 ، 32 ، 34
 المعتمد بن عباد : 192
 محمود قابادو : 198
 المعمرى : 119
 مخايل نعيمية : 119 ، 209
 المقداد الورتقاني : 177 ، 203
 مدحت باشا : 231
 ابن منظور : 105
 مصطفى بدوى : 125 ، 130
 موليير : 65
 مصطفى رجب : 19
 ميخائيلوفنا : 25

— ن —

- نابوليون : 219
 تقيمية : انظر : مخايل
 ناجية ثامر : 19 ، 25 ، 33 ، 36 ، 37 ، 77
 نور الدين الحمداني : 23
 نيتشه : 130
 نظمي خليل : 125 ، 131

— ه —

همنجوای :
. 65

هیجو :
. 209

الهادی زمزم :
. 223 ، 218

الهادی العبدی :
. 128 ، 125

ابن هانی :
. 212

— ی —

یوسف جمیط :
. 203



General Organization of the Alexandria Library (G.O.L.)
Organization of the Alexandria Library

فهرس الكتب والمجلات والقصائد والمقالات

— ١ —

- | | |
|-------------------------|-----------------------------|
| آراء المعرى وعقيدته : | ارادة الحياة : |
| . 76 | . 60 ، 152 ، 160 |
| ابريق الاشاي : | أردنا الحياة : |
| . 25 ، 33 ، 37 | . 36 |
| ابطال وشهداء : | أرضنا العزيزة : |
| . 225 | . 30 ، 36 |
| ابناء الشيطان : | الاستطلاعات الباريسية : |
| . 59 | . 177 |
| ابولسو : | الاسلام والتجديد في مصر : |
| . 26 ، 62 ، 101 ، 119 | . 234 |
| . 120 ، 121 ، 130 ، 141 | أشعة الجمال : |
| . 151 | . 76 |
| الاجنحة المنكسرة : | أشعة وظلال : |
| . 119 | . 121 |
| احلام مشاعر : | الاعتصاف : |
| . 154 | . 58 |
| ادباء تونسيون : | الاعلام (جريدة) : |
| . 225 | . 231 |
| الادب التونسي : | أعلام العرب (سلسلة) : |
| . 23 | . 234 |
| الادب الشعبى : | أعلام المغرب العربى (سلسلة) |
| . 77 | . 17 ، 19 |

- أعلام من بنزرت :
 225 ، 217 ، 214
- أغاني الحياة :
 57 ، 62 ، 102 ، 107 ، 141 ، 142 ، 147
- أغاني الرعاة :
 163
- أغنية الاحزان :
 145
- الافلاس :
 71
- اقوم المسالك في معرفة الممالك :
 40 ، 228 ، 229
- الى طفاة العالم :
 60
- امراتنا في الشريعة والمجتمع :
 52
- أمن تذكر جيران بذي سلم :
 173 ، 174
- اميرة المهدية :
 195
- أهل الكهف :
 67
- ايها الحب :
 144

— ب —

- بدعة وحماد :
 194
- البردة :
 174
- برق الليل :
 72 ، 73
- البرنس في باريس :
 177
- البضاعة الجديدة :
 25 ، 32 ، 34
- بودودة مات :
 75
- بيجما ليون :
 67
- بين زوجتين :
 35
- بين الشابي وجبران :
 127

— ت —

- تاريخ الحروب الصليبية :
 74
- تحت الفصوص :
 57

التوت المر :
. 74

تونس الجميلة :
. 60 ، 57

تونس الشهيدة :
. 64 ، 63

تراجم الاعلام :
. 202 ، 203 ، 207

التقدم :
. 45

التقرير والايحاء في شعر
الشابي :
. 130

تمثال من الملح :
. 78

— ث —

الثقافة :
. 17

— ج —

جولة بين حانات البحر الابيض
المتوسط :
. 178 ، 66

جارتى :
. 170

جريمة شهرزاد :
. 193

جواب بين النجوم :
. 65

— ح —

حصان القلم :
. 185 ، 18

حصان الهشيم :
. 119

الحاضرة :
. 43 ، 45 ، 220

الحركة الادبية والفكرية في
تونس :
. 197

- | | |
|---------------------------|-----------------|
| حياة سيدنا محمد : | حليمية : |
| . 64 | . 74 |
| حياة الشبابي : | الدمار الذهبي : |
| . 122 ، 57 | . 26 |
| حياة أبي القاسم الشبابي : | الحياة : |
| . 128 | . 57 |

— خ —

- | | |
|---------------|---------------------------|
| خيال الماضي : | الخيال الشعري عند العرب : |
| . 29 | . 116 ، 107 ، 100 ، 55 |
| | . 131 |

— د —

- | | |
|---------------|---------------------|
| دموع وعواطف : | دراسات عن الشبابي : |
| . 76 | . 125 |

— ر —

- | | |
|-------------------------|--------------------|
| رسائل الشبابي : | الرائد التونسي : |
| . 102 ، 117 ، 123 ، 124 | . 45 |
| . 133 | |
| رسالة باريس : | راعى النجوم : |
| . 46 | . 65 |
| الركن النير : | الرحلة الحجازية : |
| . 170 | . 177 ، 46 |
| رواد الإصلاح : | الرحلة الفاليرية : |
| . 225 | . 177 |
| روح القرآن : | الرحلة الناصرية : |
| . 64 | . 177 |

— ز —

زهر الآداب :
. 105

الزمان :
. 194

الزهرة :
. 45

— س —

السكر :
. 107

ساعات بين الكتب :
. 120 ، 118

سلوك الابريز في مسائل
باريسي :
. 177

سبيل الرشاد :
. 45

السياسة الاسبوعية :
. 119

السد :
. 72 ، 69 ، 67 ، 66

سيدي سالم :
. 35 ، 30 ، 25

سر مع الدهر :
. 60

سهرت منه الليالي :
. 174 ، 169

سر خديجة :
. 33

السعادة :
. 154

السعادة العظمى :
. 45

— ش —

الشابي والحياة :
. 128

الشابي حياته وشعره :
. 102 ، 18

شارع الاقدام المخضبة بالدماء :
. 65

الشابي روح ثائرة :
. 129

شجون :
. 57

الشابي وتجربة الفجر البعيد :
. 126

- شرف الدينونفا : 25
شعرنا وشعراؤنا : 57
الشعب في شعر الشابي : 127
الشعر فاذا يجب أن نفهم منه : 57
شعري : 57

— ص —

- صاحب المفازة : 25 ، 29 ، 36
صفوة الاعتبار : 231
الصباح : 23 ، 24
صلوات في هيكل الحب : 162
الصباح الجديد : 123 ، 130 ، 157 ، 158
الصواب : 45
صفحات دامية : 107
صوت تائه : 147

— ع —

- عازف أعمى : 210
العالم الادبي : 166
العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية : 53
عبرة في قصة : 193
العمران البشري في مقدمة ابن خلدون : 119
عرقوب الخير : 36 ، 35 ، 29
العروة الوثقى : 233
عيشة : 193 ، 195

— غ —

غناء البلبل :
. 33

الغريبال :
. 119
الغزال الفاتن :
. 144

— ف —

فن الشبابى :
. 131

فى الادب التونسى :
. 208

فى سبيل الحرية :
. 36

فى القبرة :
. 107

فرقة الاولاد :
. 25 ، 30 ، 36

فرقة الهلال :
. 195

الفصول :
. 118

الفكر :
. 27 ، 29 ، 34 ، 35 ، 36 ، 37 ، 71

— ق —

قلب لا يخفق :
. 30

قلت للشعب :
. 149

القلم :
. 45

القمح وزيت الزيتون :
. 25 ، 31 ، 34

ابو القاسم الشاعر :
. 127

ابو القاسم كما يجب ان يقال
عنه فى حياته وبعد موته :
. 129

قالت الايام :
. 146

ابو القطط :
. 193

— ك —

- | | |
|----------------------|--------------------|
| الكتاب (مجلة) : | كفاح الشبابي : |
| . 7 | . 110 ، 102 ، 18 |
| كتاب البعث (سلسلة) : | كيف ندرس الشبابي : |
| . 18 ، 17 | . 126 |

— ل —

- | | |
|-----------------|------------|
| لسان الشعب : | ليت شعري : |
| . 194 | . 153 |
| اللغات (مجلة) : | |
| . 17 | |

— م —

- | | |
|-------------------------------|--------------------------|
| ما يجب نحو الشبابي : | المضحك : |
| . 129 | . 194 |
| المتبوع : | المطالعات : |
| . 36 ، 29 ، 25 | . 118 |
| مجرم رغم انه : | مقامات الحريري : |
| . 174 | . 212 |
| مختارات من مقدمة ابن خلدون | مقدمة ابن خلدون : |
| . 11 | . 26 |
| محاولة جعل اطار لترجمة | مكتبة ابن خلدون : |
| الشبابي : | . 9 |
| . 127 | مكتبة الشبابي : |
| مذكرات الشبابي : | . 102 ، 19 ، 17 |
| . 135 ، 132 ، 133 ، 138 ، 139 | منارة في السنة اللهيبي : |
| . 138 ، 139 | . 77 |
| مصرع صالح : | من أغاني الرعاة : |
| . 35 ، 32 ، 25 | . 57 |

ميلاد الشابى :
. 128 ، 126

المنير :
. 50
مولد النسيان :
. 69

— ن —

نشيد الجبار :
. 161 ، 157 ، 123 ، 122
نظرة فى شعر الشابى عامة :
. 130
نفس الشابى :
. 128
النهضة :
. 54

النبي المجهول :
. 59
نجوم الفن (سلسلة) :
. 19
نزهة رائعة :
. 174
نشيد الاسى :
. 148

— ه —

الهفاء وسراج الليل :
. 47

— و —

وحى الاربعين :
. 120 ، 119
ولادة وابن زيدون :
. 195 ، 193

الوجه الجديد :
. 34 ، 25 ، 24
وجه المستعمر :
. 79

— ى —

يا ابن امى :
. 150

المدن والاماكن والجمعيات والمنظمات

— أ —

- | | |
|-------------------------|-----------------------------|
| استنبول : | الآداب (جمعية) : |
| . 226 ، 182 ، 180 ، 178 | آسيا : |
| افريقيا : | . 183 ، 181 ، 23 |
| . 23 | الاتحاد العام التونسي للشغل |
| الأكروبول : | . 53 |
| . 179 | أثينا : |
| انجلترا : | . 178 |
| . 220 | الإذاعة التونسية : |
| الاندلس : | . 76 ، 64 |
| . 192 ، 177 | أزمير : |
| أوروبا : | . 78 |
| . 182 ، 181 ، 51 ، 44 | أسبانيا : |
| . 230 ، 229 ، 227 ، 183 | . 46 |

— ب —

- | | |
|-------------------------|------------------------|
| بنزرت : | باريس : |
| . 220 ، 218 ، 217 ، 215 | . 221 ، 182 ، 63 |
| . 224 ، 223 ، 222 ، 221 | البحر الأبيض المتوسط : |
| بيهره : | . 46 |
| . 178 | بركان فيزوف : |
| بيروت : | . 180 |
| . 46 | بغداد : |
| | . 185 ، 74 |

— ت —

- تركيا :
51 ، 159 .
توزر :
54 ، 105 .

— ج —

- جامع عقبة :
215 .
جدة :
74 .
جامعة الازهر :
14 ، 54 ، 105 .
الجريد :
105 .
الجزائر :
7 ، 125 ، 219 ، 228 ،
232 .
جامعة دار الحكمة (بالقيروان):
105 .
جامعة الدول العربية :
197 .
جمعية الآداب :
195 .
جامعة الزيتونة :
انظر : الزيتونة .
جمعية الاربعين :
43 .
جامعة لينينجراد :
24 .
جمعية خرجى الصدقية :
47 .
جبال منشوريا :
181 .
الجوق الكاملى :
195 .

— ح —

- الحجاز :
219 .
الحزب الحر الدستورى :
221 .

— خ —

- الخلدونية :
44 ، 73 ، 76 ، 198 ،
207 .
الخليج العربى :
181 .

— د —

- الدار التونسية للنشر :
8 ، 17 ، 24 .
- الدار العربية للكتاب :
9 .
- دار الكتب الشرقية :
17 .
- دار المعلمين العليا :
18 .
- دار المغرب العربي للطباعة والنشر :
17 ، 19 .
- الدردنيل :
178 ، 181 .
- دمشق :
36 ، 232 .

— ر —

- رباط المنستير :
215 .
- روسيا : الاتحاد السوفياتي :
8 ، 9 ، 24 ، 51 ، 62 .

— ز —

- الزلاخ (مقبرة) :
220 .
- الزيتونة :
27 ، 41 ، 52 ، 53 ، 54 ، 231 ، 232 .
- 55 ، 71 ، 72 ، 76 ، 105 ، 129 ، 192 ، 198 ، 199 ، 207 ، 219 ، 220 ، 223 .

— س —

- الساحل :
215 .
- السريون :
221 .
- السودان :
62 ، 126 .
- سوريا :
7 ، 46 ، 48 .
- سوسة :
215 .

— ش —

- | | |
|----------------------------|-------|
| الشباب الاسلامي : | 54 . |
| شركة النشر لشمال افريقيا : | 17 . |
| الشيان المسلمون : | 106 . |
| شمال افريقيا : | |
| انظر : المغرب العربي . | |
| الشركة التونسية للنشر : | 17 . |
| شيرات : | 182 . |

— ص —

- الصادقية :
- 41 ، 44 ، 105 ، 198 ،
- 207 ، 220 .

— ض —

- ضريح البلوى :
- 215 .

— ع —

- | | |
|----------|-----------|
| العراق : | 18 ، 62 . |
| عكا : | 219 . |

— ف —

- فرنسا :
- 33 ، 47 ، 78 ، 227 .

— ق —

- | | |
|-----------|-------------------------|
| القاهرة : | 7 ، 9 ، 46 ، 74 ، 141 ، |
| القديس : | 197 . |
| | 219 . |

- قرطاج : قرطاجة :
 . 26 ، 15
 القسوقساز :
 . 226
 قسنطينة
 . 232
 القيروان :
 ، 213 ، 208 ، 150 ، 35
 . 215
 ققصنة :
 . 215

— ل —

- لبنان :
 . 126 ، 46
 لبيبا :
 . 185 ، 125 ، 75

— م —

- متحف باردو :
 . 129
 مصر :
 ، 51 ، 48 ، 46 ، 43 ، 14
 ، 125 ، 121 ، 101 ، 62
 . 233 ، 231 ، 151 ، 130
 مجمع اللغة العربية (بالقاهرة)
 . 197
 المحيط الهندي :
 . 181
 المغرب العربي :
 ، 100 ، 78 ، 20 ، 19
 ، 192 ، 191 ، 177 ، 125
 . 231 ، 196
 مدرسة الحقوق التونسية :
 . 55
 مقدونيا :
 . 182
 المدرسة الصادقية :
 انظر : الصادقية .
 المكتبة العبدلية :
 . 41
 مرسية :
 . 192
 المهديسة :
 . 215
 المشرق :
 ، 129 ، 125 ، 101 ، 100
 ، 191 ، 182 ، 181 ، 151
 ، 229 ، 221 ، 200 ، 192
 . 231 ، 230
 المنستير :
 . 215

— ن —

نادى القصة الادبى :
. 74

نيس :
. 180 ، 179

نابلس :
. 180 ، 178

الننادى الادبى :
. 106

فهرست الكتاب

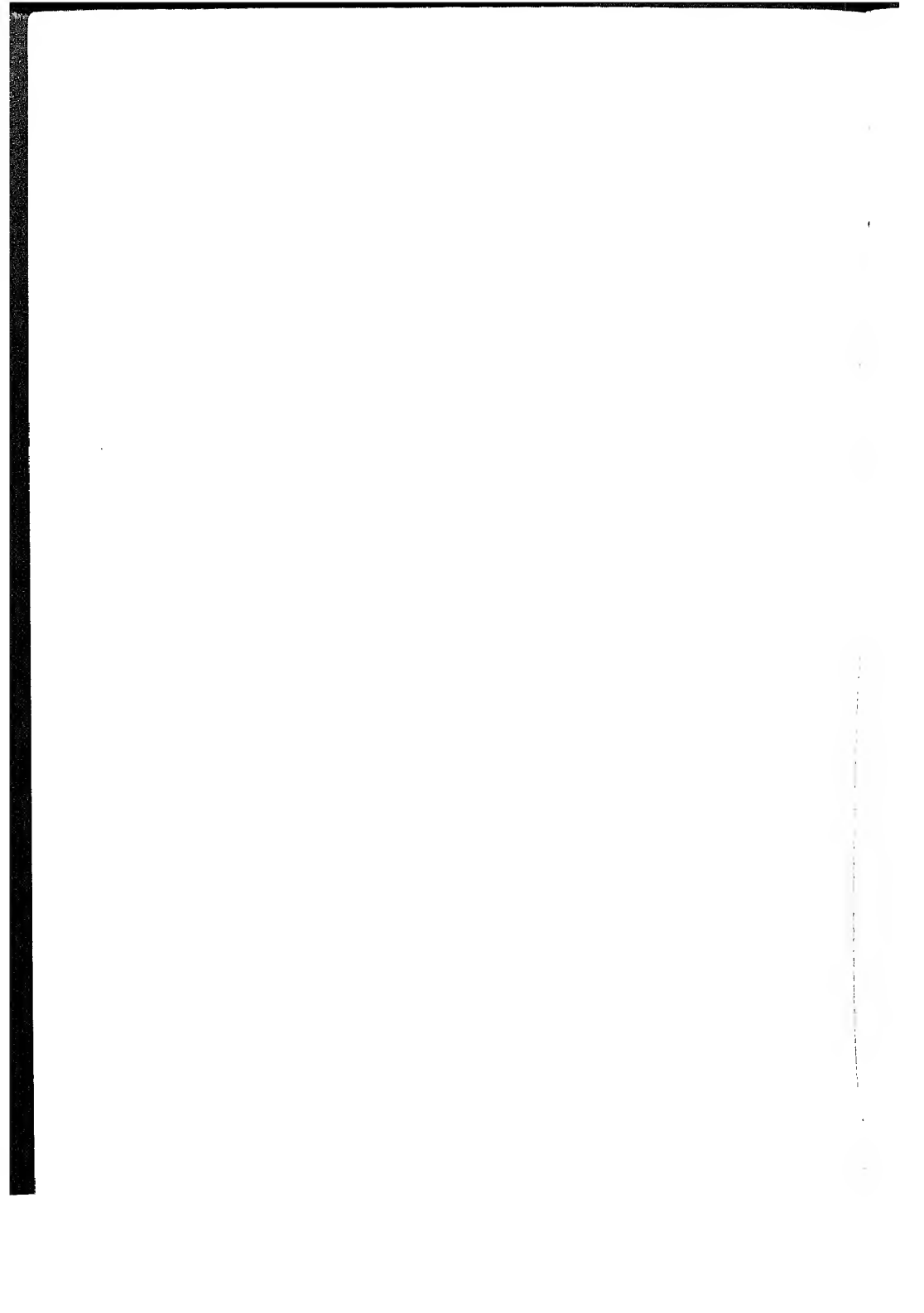
7	- تقديم بقلم الاستاذ أبو القاسم محمد كرو
13	- مقدمة
21	- الباب الاول : الادب التونسي المعاصر في اللغة الروسية ..
23	الفصل الاول : الادب التونسي في الاتحاد السوفياتي ...
39	الفصل الثاني : التجديد في الادب التونسي المعاصر
82	أهم المراجع
87	ملاحظات وتعليقات بقلم أبو القاسم محمد كرو
97	- الباب الثاني : الادب التونسي المعاصر من خلال مطبوعاته
99	الفصل الاول مع الشابي
99	تمهيد
103	الشابي ... حياته وشعره ، تأليف أبو القاسم محمد كرو
110	كفاح الشابي تأليف أبو القاسم محمد كرو
116	رسائل الشابي جمع محمد الخليوي
125	دراسات عن الشابي من سلسلة مكتبة الشابي
132	نشر الشابي في مذكراته
141	شعر أبي القاسم الشابي في ديوانه أغاني الحياة



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
المنظمة العامة لمكتبة الإسكندرية

- 141 المرحلة الاولى -
148 المرحلة الثانية -
156 المرحلة الثالثة -
165 الفصل الثانى : على الدوعاجى
169 على الدوعاجى ... القصاص
177 على الدوعاجى ... الرحالة
185 الفصل الثالث : كتب تونسية
185 أبو القاسم كرو فى كتابه « حصاد القلم »
..... أبو القاسم كرو فى كتابه عن عبد الرزاق كرباكه ،
191 سلسلة أعلام المغرب العربى
..... محمد الفاضل ابن عاشور فى كتابه « الحركة الادبية
197 والفكرية فى تونس »
..... محمد الفاضل ابن عاشور فى كتابه « تراجم
202 الاعلام »
208 محمد الخليوى فى كتابه « فى الادب التونسى »
214 رشيد الذوايدى فى كتابه « أعلام من بنزرت »
225 رشيد الذوايدى فى كتابه « رواد الاصلاح »

237 الفهارس : -
237 الاعلام والجماعات
249 الكتب والمجلات والقصائد والمقالات
258 المدن والاماكن والجمعيات والمنظمات





انتهى طبع هذا الكتاب بمطبعة
الاتحاد العام التونسي للشغل - تونس
رجب 1397 / جويلية 1977

نفسه ان اراهم ما يوافق هذا الكتاب من كتابه فيكون
 على ان يكون الكتاب الواحد في الشرح على كتابه في
 التوسيع وباريه من اراء وفكراته فيخصص مع اعداد من
 ايدى على ان لا في كتب في الحوت والفتاوى والفتاوى
 الخفية السجدة والفتاوى والفتاوى السجدة في
 في التوسيع من التوسيع التي التوسيع وفتاوى
 بالترجمة التي في ما كتب من عيسى والفتاوى والفتاوى
 الكتاب والكتاب التوسيع

والله فضل الشرح والفتاوى كما كتب ان يشرح في روسيا من
 درساته كتب من اثار التوسيع وفتاوى

وقد وجد ان اراهم في ترجمة التوسيع كتاب في روسيا من
 ان يشرح في التوسيع على ان التوسيع في التوسيع
 ان يشرح في التوسيع على ان التوسيع في التوسيع
 في ما يشرح في التوسيع على ان التوسيع في التوسيع

ويظهر التوسيع في التوسيع في التوسيع في التوسيع
 وفتاوى التوسيع في التوسيع في التوسيع في التوسيع

ويظهر التوسيع في التوسيع في التوسيع في التوسيع
 في التوسيع في التوسيع في التوسيع في التوسيع
 في التوسيع في التوسيع في التوسيع في التوسيع

في التوسيع في التوسيع في التوسيع في التوسيع

في التوسيع في التوسيع في التوسيع في التوسيع

في التوسيع في التوسيع في التوسيع في التوسيع

في التوسيع في التوسيع في التوسيع في التوسيع
 في التوسيع في التوسيع في التوسيع في التوسيع
 في التوسيع في التوسيع في التوسيع في التوسيع
 في التوسيع في التوسيع في التوسيع في التوسيع

في التوسيع في التوسيع في التوسيع في التوسيع